

قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات

مجموعة الأعمال الكاملة

أيام السعادة والشقاء

عبد الوهاب مطاوع

أيام السعادة والشقاء!

٢٥ قصة واقعية من دراما الحياة

عبد الوهاب مطاوع

الشتاء بارد على من لا يملكون ذكريات دافئة !

« عبارة من قصة أمريكية قصيرة عن رجل وحيد يعانى من الأرق ولا تؤنس وحدته ذكريات أيام سعيدة سابقة ! »

الشيء المجهول !

أنا سيدة في الاربعين من عمري جامعية ولا أعمل ومن أسرة طيبة، تزوجت منذ ١٥ عاما من رجل فاضل ومن أسرة عريقة وانجبت منه بنتين في غاية الجمال، ولقد أحببت زوجي حبا هائلا سرى في دمي ومشاعري وراح يتعملق داخلي يوما بعد يوم، وكانت رحلة حياتي معه هناءً دائما وسعادة غامرة وهو لا يبخل عليّ بشيء من مأكل أو ملبس أو مال أو ذهب أو سيارة خاصة بي أو شقة في المصيف للأسرة، كما منحني حريتي الكاملة في التصرف والخروج من البيت بسبب معدنه الطيب وقلبه الحنون وثقته التامة بي من نا حية وبسبب حبي الغامر له وأمانتي معه ورعايتي لحدود ربي فيه وفي بيتي وأسرتي من ناحية أخرى .

وعلى هذا النحو مضت بنا الحياة ونحن نتبادل الحب والعطف والاحترام ولايعلو أبدا صوت أحدنا على الآخر ولا نعرف المشاحنات العنيفة أو المشاجرات الزوجية التي يسمع بها الجيران لأنه عف اللسان حلو العشرة واحسبني أنا ايضا كذلك، إلى أن شعرت منذ حوالي عام وبغير سبب سوى إحساس الزوجة الصادق بزوجها، أنه قد طرأ شيء جديد لا أعرفه على حياة زوجي، وحاولت جاهدة أن اكتشف هذا الشيء المجهول في حياته، فلم اوفق إلى ذلك أبدا وشعرت بأنه شديد الحذر والحيطة فازدادت رغبتي ولهفتي لمعرفة هذا المجهول وليتني ما اكتشفته فلقد أشقى حياتي وبدد سعادتي وقتل هنائي . لقد عرفت

أن زوجي الحنون الرقيق ابن الأسرة العريقة قد تزوج من واحدة ممن يعملن تحت رئاسته قبل ثلاث سنوات وأنه قد ارتبط بها وهي تعرف جيدا أنه رجل متزوج وله زوجه صالحة تسمع عنها في عملها كل خير، وبنتان تحتاجان لأبيهما وأمهما، لكنها تجاهلت كل ذلك ولم تر فيه إلا ما يخرج من يده من مال رفير ، فألقت عليه شباكها واستجاب لها ونشأت بينهما القصة المألوفة من علاقة غير مشروعة في البداية ثم بعد فترة من الوقت قالت له كالعادة : أهلي .. والجيران وماذا أفعل إلخ فتزوجها عرفيا في بيت أسرتها وعلى فراشها القديم ، واستمر الحال هكذا ثلاث سنوات تحول خلالها زواجه العرفي منها لزواج شرعي مع استمرار اقامتها بين أهلها، وزوجي يتردد عليها من حين لآخر ولا يقضي الليل عندها إلا إذا كنت غائبة عن بيتي في الاسكندرية، كما حملت أيضا هذه الفتاة من زوجي مرتين وتم اجهاضها في كل مرة استجابة لرغبة زوجي أو بضغط شديد منه، ثم حملت للمرة الثالثة وتكتمت حملها عنه هذه المرة إلى أن ثبت الحمل ثم وضعته أمام الأمر الواقع، فلم يملك إلا القبول به وانجبت طفلا جميلا وراحت هي تنفث فحيحها في عقل زوجي وتحدثه عن «الولد» الذي يحمل اسمه، ويخلد ذكراه وهو الذي لم ينجب سوى البنات .. إلخ .

ولم أعلم بزواج زوجي وانجابه من أخرى إلا بعد عشرة شهور من مجئ الطفل للحياة وبعد أن اصرت أمه على أن تعرف «أم البنات» وأهل زوجي بوجود هذا الطفل، لم تطلب أن يكون لها كيان عائلي مستقل عن أسرتها، ولا أن يقيم معها زوجي إقامة دائمة أو متقطعة وإنما طلبت فقط أن أعرف بوجودها في حياة زوجي وبوجود طفلها وأن يعرف أهل زوجي بذلك، وهكذا عرفت مالم أكن اعرف ومن زوجي نفسه الذي جاء إليّ ذات يوم ثم صارحني به وكأنما قد هدم جبلا هائلا فوق رأسي، ورغم ثقل هذا الجبل فلقد تماسكت بقوة حبي له وعمق الاحساس الذي يقوم عليه بيتي معه، وقال لي من خلال دمعه الذي امتزج بدمعي إنها «سقطة» و«غلطة» و «حفرة» وقع فيها، هو يطالبني

بأن اساعده على الخروج منها وأن اقف إلى جواره وإلا افضحه، وسوف يحل المشكلة ويطلقها ليس فقط إكراما لى، وإنما أيضا لأن الأخرى لا تناسبه خاصة أن فارق السن كبير، والتفاوت فى المستوى الاجتماعى هائل.

وصدقت زوجى واستجبت إلى نداء العقل وقررت أن اقف إلى جواره وأن أسانده فى هذا المشكلة واتفقنا على أن يطلقها ويعطيها مبلغا عادلا من المال، وبعد اسبوع تم الطلاق بحضورى فى بيت أحد الاصدقاء، وسلمت هذه «الفتاة» أنا بيدى مبلغا محترما من المال كنفقة لها ولطفها وكحقوق شرعية لها، ووجدت من واجبى بعد ذلك أن احتضن زوجى لأخفف عنه فراق ولده، وأملت أن تختفى هذه «الفتاة» إلى الأبد من حياتنا ولكن هيهات أن تفعل، فلقد راحت تلاحقه من حين لآخر مرة بحجة أن الولد تعبان وثانية بحجة أن حرارته مرتفعة، إلى أن ردها إلى عصمته بعد أقل من شهر واحد من طلاقه لها، وعلمت بذلك فلم أنهر مرة أخرى ولم أقلب الدنيا رأسا على عقب ولم أهدم بيتى وأسرتى، ولم اشرك أهلى فى مشكلتى وإنما كافحت مع زوجى من جديد من أجل بيتى وأسرتى ، وحاربت لكى أحميه من هذه « الفتاة » التى شعرت بعد الطلاق بنقص المال والسهرات والملبس والمظاهر الاجتماعية التى كان زوجى يغدق بها عليها، فسعت لإعادته إليها، واستمر كفاحى مع زوجى هذه المرة حوالى ثلاثة شهور إلى أن استجاب وطلقها للمرة الثانية ، وبدأ يزهدها بالفعل ، لكنها لم تيأس منه بالرغم من ذلك وراحت تلف حوله خيوط العنكبوت مرة أخرى فلم يمض وقت طويل حتى كان قد تزوجها للمرة الثالثة أو رجع إليها.

وعلمت بذلك أيضا فلم افقد أعصابى مع زوجى، ولم انفجر فيه، وإنما تمسكت بمطلبى الذى لا اقبل بغيره وهو أن يطلق هذه «الفتاة» وواصلت حياتى معه أتبادل معه الحديث الودى واهتم بشئونه وأعد له ملابسه وطعامه وأشياءه الخاصة وأرعى الطفلتين اللتين يحبهما أبوهما حب العبادة وتحبانه بنفس الدرجة، وتمسكت بالصبر والأمل

فى الحب العميق الذى يجمع بيننا لكنه راح يطلب منى القبول بالأمر الواقع، والتسليم بوجود الأخرى فى حياته لأنه لايستطيع كما يقول أن يتخلى عن طفله، فأرفض ذلك بإصرار، وتنتهى المناقشة عند هذا الحد وأرجع إلى طبيعتى الهادئة معه !

لكن الصبر فاض بى أخيرا وانفجر البركان المكتوم فى اعماقى ولم أعد استطيع الاستمرار. وقد طلبت منه إما أن يطلق هذه الفتاة ويخرجها من حياته وإما أن يتركنى مع الطفلتين فى سلام ويخرج هو من بيت الأسرة مع استمرار رابطة الزوجية بيننا لكى يجرب «الحياة الكاملة» مع الفتاة التى لا يلتقى بها إلا لقاء العشاق لساعات قصيرة ولا يعايشها المعايشة الكاملة لكى يكتشف إذا كان يستطيع احتمال الحياة معها أم لا يستطيع ، وهو يرفض ذلك حتى الآن ويقول لى إننى لو تمسكت بهذا المطلب فإنه سوف يبيع شقة الاسكندرية ويشترى شقة فى القاهرة ويؤثثها ويقيم فيها معها ويتوقع منى أن ارجع عن هذا المطلب، لكنى لا استطيع احتمال الحياة مع زوجى الذى أحببته بكل جوارحى وهو يتردد بينى وبين امرأة أخرى . ولن أحتمل الحياة أيضا إذا انفصلت عنه وانقطعت روابطى به .

فبماذا تنصحنى أن افعل وهل ترانى أخطأت حين صدقت ندمه على ارتباطه بهذه «الفتاة» واستجبت لطلبه بأن اقف إلى جواره واسانده فى مشكلته ؟ إننى اعرف أننى أخطأت واريدك أن تقسو علىّ فى الرد على هذه النقطة . لأننى لم اصدقه مرة واحدة بل مرتين وهاهى النتيجة أنه قد رجع لهذا الفتاة بحجة الولد، وبحجة أنه لايستطيع أن يلقى بابنه إلى مجهول فماذا تقول لى ؟

ماذا تقول عن مثل هذه الفتاة التى تتساهل مع رجل يكبرها بـ ٢٢ سنة وتعلم أنه متزوج وله زوجة وأطفال وتقبل بالزواج العرفى منه وهى مقيمة بين أهلها إلى أن تستدرجه للزواج الشرعى، وماذا تقول عن مثل هذا الزواج الذى يذهب فيه الزوج إلى بيت أهل زوجته ليقضى لديها حاجته لساعة أو ساعتين فقط ثم يرجع لبيته الذى يليق به وبعائلته وكأنه لم يفعل شيئا . وكيف يقبل الأهل ذلك ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لو عرفنا كل «المجهول» لنا لربما قتلتنا هذه المعرفة غما وحزنا وتمنينا لو لم نكن قد سعينا لكشف حجبه وأستاره تماما كما قال العالم الهندى الذى انتحر منذ ثلاثين عاما لأنه قد «عرف» أكثر مما يطيقه عقله واعصابه، فأنهى حياته تاركا وراءه رسالة قصيرة تثير التأمل تقول : «قتلتنى المعرفة» !

لكنها قصة أخرى أثارها لدىّ ماشقيت أنت به حين «عرفت» ماكان مجهولا لك من أمر زوجك، وعلى أية حال فإنى أقول لك إنك لم تخطئى ياسيدتى حين صدقت ندم زوجك على تورطه فى هذه المغامرة السرية التى لا تليق به أو بسنه أو مكانته العائلية والاجتماعية، واستجبت لمطلبه منك أن تتسترى عليه وتسانديه فى الخروج من حفرتها العميقة، نعم لم تخطئى فى ذلك بكل تاكيد فهذا هو ما تفعله الزوجة المحبة الحريصة على زوجها وسعادة أطفالها وكيان أسرتها، إذا رغبت فى ألا ينهار هذا الكيان كله عند أول هزة أرضية . بل إنك لم تخطئى كذلك حين أعدت الكرة معه مرة ثانية، وصدقت ندمه من جديد وواصلت الكفاح معه على أمل استرداده إليك وإلى طفلتيك كاملا، لكنك أخطات فقط فى تقدير عمق ذلك الرباط الأبدى الذى نجحت هذه «الفتاة» فى أن تكبل به زوجك بحيث اصبح من غير الميسور الآن إخراجها من حياته نهائيا بغض النظر عن استمرار علاقته الزوجية معها أو انقطاعها، وهو هذا الطفل الوليد ! فلقد ساهم مجيئه للحياة فى تعقيد المشكلة وتعذر فرص احتوائها وحلها بغير خسائر إنسانية يتحملها هذا الطفل البرئ الذى لاذنب له للأسف فى ضعف أبيه أمام نداء المغامرة، ولا فى تساهل أمه الأخلاقى الذى سمح لها ببدء علاقتها بزوجك منذ البداية .

ولأن معظم شقاء الإنسان انما ينجم عن تعارض وسائل البشر فى طلب سعادتهم كما يقول لنا الأديب الفرنسى ألبير كامى، فلقد

أصبحت سعادتك الآن رهينة بشيء واحد لا تقبلين بغيره وهو طلاق زوجك لزوجته الأخرى هذه وحرمان هذا الطفل الوليد من مظلة أبيه ومن الحياة العائلية الناقصة التى تهيأت له واصبحت سعادة زوجته الأخرى كذلك رهينة بأن تنجح فى البداية فى إقناع زوجك باستمرار الوضع الحالى بينهما على ماهو عليه وهى فى بيت أهلها وهو يقيم مع زوجته الأولى وطفلتيه فى بيتهم اللائق به وبين وسطه العائلى المناسب لوضعه الاجتماعى، إلى أن تنجح مع الأيام فى اقناعه بأن يهيىء لها مسكنا مستقلا ويمنحها اعتراف أهله ومجتمعه بوضعها كزوجة ثانية له وأم لطفل من صلبه، أما زوجك فلقد أصبح « سلامه » ولا أقول سعادته بعد أن تبطر على حياته العائلية الوادعة واختار طريق الزوابع والقلاقل رهينا بأن تقبلى أنت ذات يوم قريب أو بعيد بالأمر الواقع الذى لا يرغب فى تغييره أو لا يقوى عليه تحت ضغط حاجة الابن الوليد إليه ومسئوليته الإنسانية والأخلاقية عنه، أما أمنيته الصامتة فهى أن تصدق زوجته الجديدة فيما تزعمه له من قناعة ورضا بوضعها الحالى لبعض الوقت وبلا بيت مستقل بها .. ولا مساكنة دائمة من زوجها لها .

وهكذا تتعارض الوسائل .. والأهداف ويدور الجميع فى حلقة الأمنيات الصعبة وشبه المستحيلة إلى مالا نهاية .

فماذا تختارين لنفسك ياسيدتى فى حلبة هذا الصراع الذى فاجاك وأنت فى سن النضج وقمة الإحساس بالأمان والاطمئنان !

إنك وحدك من تملكين أن تختارى لنفسك ما ترينه جديرا بك ومحققا لسعادتك وسعادة طفلتيك وكرامتك، ولا يستطيع أحد أن يلومك على أى خيار تختارينه حتى ولو اخترت أن يدفع زوجك ثمن مغامرته كاملا وانفصلت عنه بالطلاق ؟ ليس فقط لأنه قد خان عهد الوفاء معك بارتباطه بأخرى وزواجه منها بغير أن يبلغك بذلك قبل الإقدام عليه ويخيرك بين القبول به أو الانفصال

عنه وإنما أيضا لأنك لم تسلمي بالهزيمة ولم تنسحبي من المعركة من أول طلقة، وإنما كافحت مع زوجك وحاولت مساعدته على أمره وصدقت ندمه على مغامرته ورغبته في تصحيح أخطائه، وفعلت ذلك مرتين وليس مرة واحدة .

غير أن الإنسان ينبغي له أيضا أن يعرف أين سوف تصب مياه نهره ومن الذي سيستفيد منها ؟

والواضح يا سيدتي هو أن مطالبتك لزوجك بأن يغادر بيته ويقيم مع الأخرى إقامة دائمة عسى أن يكتشف صعوبة أو استحالة تواؤمه معها، لن تستفيد منها في البداية على الأقل سوى الأخرى، ولست أنت كما أنه من المحتمل أيضا أن تسفر هذه الخطوة غير المحسوبة عن اتاحة الفرصة الذهبية التي تترقبها الزوجة الأخرى لأن تلح على زوجك أن يتخذ لها مسكنا لائقا به وبوضعه العائلي، ولا يدري احد بعد ذلك بما يمكن أن يحدث في المستقبل، فلقد يتواءم هو مع هذه الحياة الجديدة، ويضعف ارتباطه بك أنت وبطفلتيه، وقد يحدث العكس، وفي كل الاحوال فإن الأخرى سوف تحقق أقصى ما تستطيع من استفادة من هذا الوضع الجديد، ولن «تقل» غنائمها منه حتى في حالة عودته إليك نادما عن الفوز بمسكن مستقل ومطالبتها له بأن يساكنها في بيت الزوجية الجديد نصف أيام الأسبوع فهل أنت مستعدة لهذا الاحتمال ؟ وهل يحقق ذلك اهدافك من الصراع بينك وبين الأخرى حول زوجك ؟

إنني لا افضل عادة انسحاب الزوجة الأولى من حياة زوجها وإخلاء الساحة للغازية الجديدة التي اقتحمت عليها حياتها وهددت استقرار اسرتها .. وأنت لم تقرري الانسحاب الكامل بالفعل لكنك ترغبين في ممارسة نوع جديد من الضغط على زوجك بوسيلة إنهاء حياته العائلية اللائقة به اجتماعيا، وإرغامه على أن يعايش واقعه العائلي الجديد الذي تورط فيه معايشة

كاملة عسى أن يؤدى ذلك إلى نفوره منه وعودته إلى حياته الطبيعية معك .

لكنك لا تدركين فيما يبدو خطورة هذا الرهان ، ولا طبيعة غريمتك فى الصراع أو نوع اسلحتها فيه، فهى كما يبدو لى ممن يؤمنون بسياسة «الممكن الواقعى» الذين لا يطلبون فى البداية على الاقل «الأمثل» و «الأفضل» أملا فى أن يتمكنوا فى المستقبل من تحقيق كل ما يهدفون إليه بسياسة الخطوة خطوة والاستدراج الناعم ولقد نجحت «سياستها» هذه حتى الآن فى تحويل علاقتها غير المشروعة بزوجك فى البداية إلى زواج عرفى شبه سرى، ثم إلى زواج شرعى بغير مسكن للزوجية سوى بيت أسرتها وبغير توافر ركن «المساكنة» وهو من أركان الزواج الشرعى الأساسى إلى جانب الإشهار والعلانية والإعالة، ومطالبتك لزوجك بمغادرة بيته الآن سوف تمكنها من تحقيق الخطوة التالية فى خطتها الاستدراجية . وهى المسكن المستقل والمساكنة .. فهل هذا ما تهدفين إليه؟ ومن ناحية أخرى فلقد لاحظت فى رسالتك إنك قد شددت النكير على هذه الزوجة الأخرى واصررت على أن تصفيها دائما بلقب «الفتاة» مع أنها لم تعد كذلك منذ اصبحت زوجة لزوجك، ولست ألومك فى ذلك لأن موقفها غير الأخلاقى من زوجك قد ساهم فى قيام علاقته غير المشروعة بها فى البداية ثم زواجه منها وخلق هذه المشكلة المعقدة، لكننى اعترض فقط على اعفاء زوجك من كل لوم فى القصة كلها وتصويره فى رسالتك فى صورة الحمل الوديع البرىء الذى خدعته فتاة تصغره بـ ٢٢ عاما «وغررت» به واستدرجته للزواج منها لدوافع مادية بحتة ! ولقد يرضى كرامتك كزوجة محبة وانثى أن تشعرى بذلك أو تتوهميه لكن تجاهل الحقائق لا يغير من الواقع شيئا .. والواقع يقول لنا إن زوجك يتحمل النصيب الأكبر من المسئولية عن قيام هذا الوضع المعقد الذى تشقين به الآن، لأنه حين ارتبط بهذه الفتاة كان رجلا

مسئولا عن أسرة وزوجة وطفلتين .. ولم يكن غرا ولا غريرا .. فتعاملى مع الموقف على ضوء هذه الحقيقة ولا تلقى بالمسئولية كلها على هذه «الفتاة» الأخرى وحدها وأنما أشركى معها زوجك، وتعاملى معه على هذا الأساس وواصلى الكفاح معه إذا رغبت فى الحفاظ عليه وعلى السقف الآمن الذى تستظل به طفلتاك، وتعاملى مع غريمتك فى هذا الصراع وليس مع زوجك بمنطق الملك ماكبث فى رائعة شكسبير، حين قال قبل مبارزته الأخيرة لخصمه ماكدوث : اللعنة على من يقول قبل الآخر .. كفى قتالا .

لكن «القتال» هنا ليس بالسلاح أو الكلمات وإنما «بالعقول» التى تحدد الهدف المطلوب تحقيقه بدقة ثم تختار من الوسائل مايصل بالإنسان إليه وليس بعيدا عنه، بالحكمة والفهم والصبر وبعد النظر .

واللعنة بالفعل بعد كل ذلك على كل من يضطر زوجة محبة مثلك لأن تخوض مثل هذا الصراع المرير دفاعا عن أطفالها وحياتها وسعادتها، سواء أكان زوجا لم يقدر مسئولياته عن زوجته وأطفاله أو «فتاة» غازية لم تتردد فى الاستجابة لنداء المغامرة العاطفية أو الحسية معه بغير أن تتوقف ولو لحظات أمام مسئوليتها الأخلاقية عمن سوف تزرع ألغام التعاسة والشقاء فى حصونهم التى كانت آمنة قبل أن تقترب منها !

الحل السحرى

أكتب إليك للمرة الثالثة واعتب عليك لعدم اهتمامك بمشكلتى ، لكنى فى حاجة إلى مشورتك وارجو الا تبخل علىّ بها حتى ولو كانت رسالتى لا تعجبك .

فأنا إنسانة أبلغ من العمر ٢٥ عاما ، نشأت فى أسرة مكافحة .. فى مدينة من مدن الأقاليم وكنا نقيم فى بيت قديم متهالك ، تم إخلاؤه من سكانه قبل أن ينهار عليهم وأنا طالبة بالمدرسة الثانوية التجارية ، ومنحتنا المحافظة مسكنا من مساكن الإيواء فواصلنا حياتنا المتقشفة فيه وحصلت على الدبلوم وخرجت للعمل فعملت فى عدة أماكن مختلفة وارتبطت خلال ذلك بشاب يعمل حرفيا من جيران البيت القديم ، حافظ على مودتنا بعد انتقالنا لمساكن الإيواء ، وواصل زياراته لنا واهتمامه بى .. وكان ظاهرا للجميع أنه يحبنى ويرغب فى الارتباط بى وتجاوبت معه وبادلته بعض الحب وشجعته على التقدم إلىّ والتغلب على العقبات التى تعترض طريق الزواج وأهمها قلة دخله وإمكاناته المادية ، فراح يدخر من رزقه المحدود لكى يشترى لنا أثاث الزوجية ويقدم لى الشبكة والمهر ويعيد طلاء الغرفة التى خصصتها لنا عائلته فى بيتهم القديم ، وتم عقد القران ، وحاولت بمرتبى الصغير أن اشترى لنفسى بعض لوازم العروس ، فكنت أعطى أسرتى جزءا من مرتبى وأدخر الباقى واشترك فى جمعيات للتوفير ، لكى اشترى بعض الملابس واللوازم وخطيبى يحاول بقدر جهده أن يوفر المطلوب منه إلى أن نجح فى تدبير كل مطالب الزواج وتحدد موعد الزفاف ، وخلال ذلك كنت قد

انتقلت إلى عمل جـديد بمرتب أفضل فى مـعرض تجارى ومنـذ اليوم الأول لعملى بهـذا المعرض لاحظت أن صـاحـبه الذى يبـلغ من العمـر ٤٦ عاما ينظر إلى جمالى بإعجـاب ويهتم بى ويكافئنى من حين لآخر على عملى بـبعض النقود الإضـافية وتقـبلت إعجـابه واهتمامـه برضا وسعـادة إلى أن وجدتـه يعرض علىّ الزواج ولم يبق على زفـافى إلى خطيبى سوى شـهر واحد ، ولن أكذب عليك فأقول لك إننى قد اندهشت لغرابة العرض أو اسـتنكرته فالحق هو أنه قد انتابنى « الفـرح » لرغبة صاحب المعرض فى الزواج منى ، لاننى سوف انتقل معه من حياة إلى حيـاة ولأن الرجل لديه كل الامكانات المادية للحياة ولا يـعيبه كـعريس سوى شىء واحـد هو انه متزوج وله اسـرة واطفال ولم أتوقف طويلا عند مشكلتى الاخرى ، وهى انه معـقود قرانى على شاب آخر ولم يبق على موعد زفافنا سوى أسابيع ، إنما صارحت صاحب المعرض بقبولى له لكننى سألته ، بغير قلق : ومـاذا سأفعل مع خطيبى ؟ فطلب منى أن أدع له هذا الامر لانه قـادر على مواجهته وبالفـعل فقد قـابل خطيبى وصـارحه بـالامر وبموافـقـتى على الزواج منه وطلب مـنه أن يطلقنى مقـابل أن يعوضه مـاديا عمـا تكلف من مهر وشـبكة ونفقـات للإعداد للزواج ولم يكن خطيبى مرتاحا لعملى فى المعرض منذ البداية لشعوره باهتمام صاحبه الزائد بى فايقن بصحة ما يقوله له الرجل وجاءنى فى العمل وسألنى هل ما يقوله فلان صـحيح ؟ فأومأت إليه برأسى مؤيدة فى صـمت وأنا أتفـادى النظـر إلى عـينيـه فـأحنى رأسـه منكسـرا . وانصرف صامـتا مخذولا والغـريب أننى بدلا من أن احزن من اجله أو أشفق عليـه و جدتنى اتنفس الصـعداء كأن حـملا ثقيـلا قد انزاح عن صدرى ، ولم تمض أيام حـتى كان خطـيبى قد تسلم المبلغ المتـفق عليه من صاحب المعرض وارسل إلىّ بورقة الطلاق ، وفى اليوم الذى تلقيت فيـه هذه الورقة قام صـاحب المعرض بنقل أسرتى من مـساكن الإيواء إلى شقة اشتراها لها وقدم لى شبكة قيمة وملابس كثيرة وعقب انتهاء فترة العدة عـقد قرانه علىّ وأنا فى أتم السـعادة وسافـرت معه لنقضى اسـبوع العـسل فى إحدى المدن البـعـيدة ونهلت من رحـيق السعـادة

والبهجة حتى ارتويت ، وانتهى أسبوع العسل ورجعنا إلى مدينتنا ، فرجع هو إلى بيته وأسرته وأولاده ورجعت أنا إلى بيت أمى وإخوتى الجديد ، ومضت حياتنا بعد ذلك فى طريقها وفى كل يوم يأتى إلينا فى الظهر أو فى المساء ويقضى معى بعض الوقت ثم ينصرف فى الليل إلى بيته وأسرته وأولاده إلى أن علمت زوجته بسر زواجه منى « وأوقعت » بينى وبينه ، فتصور أننى المسئولة عن علمها بزواجه وغضب منى وتم الطلاق بيننا ، وتجهمت لى الحياة بعض الوقت ، لكن تجهمها لم يستمر طويلا ، فلقد عرف زوجى أننى « مظلومة » وأعادنى إلى عصمته ، لكنه تجنبا لمشاكل زوجته قرر أن ينقل أسرتى كلها من المدينة التى يعيش بها مع أسرته إلى مدينة أخرى على بعد نصف ساعة بالسيارة منها وباع الشقة الأولى واشترى لنا شقة أخرى فى المدينة الجديدة وأثثها بأحسن الأثاث وجميع الأجهزة الكهربائية وتغير نظام حياتنا بسبب ذلك وبعد أن كان يقضى معنا فترة المساء كل يوم أصبح يجىء إلينا فيقضى معنا ثلاثة أيام كل أسبوع ويرجع لأسرته وبيته ، ومضى بنا الحال على هذا النحو بضعة شهور ، ثم بدأ يقضى معنا ليلتين فقط كل أسبوع ثم ليلة واحدة أسبوعيا إلى أن أصبح لا يجىء إلينا إلا مرة واحدة كل عشرة أيام ويقضى الليل معنا .

وبدأت أشعر بالفراغ والوحدة فى غيابه وبدأت أيضا أشعر بالضيق بالرغم من أنه لا يحرمنى من شىء وقد وفر لى مسكنا لم أكن أحلم بمثله وبدأت أتساءل : أين مكانى من حياته ؟ ولماذا لا يصبح لى طفل كالأخريات ولماذا يشترط علىّ عدم الإنجاب ؟ وحملت منه وأبلغته بذلك وأنا خائفة فإذا به يعترض على حملى بشدة ويصر على التخلص منه ، ولم أجد مفرا من الاستجابة لطلبه وذهبت معه إلى عيادة أحد الأطباء ، حيث تم إجهاضى ، ورجعت حزينة ومكتئبة ، ومنذ ذلك اليوم استقر الخوف فى نفسى ولم أعد أشعر بالأمان والاستقرار خاصة أنه قد أصبح لا يأتى لزيارتنا إلا مرة كل أسبوعين ، وبالرغم من أنه يتصل بى تليفونيا كل يوم إلا أننى أشعر بالخوف ولست سعيدة ، وأحس بأن الله يعاقبنى لأننى تركت خطيبى الأول لقلة امكاناته وفضلت عليه آخر

ثريا لأنه سيقدم لى الحل السحرى لمشكلتى ومشكلة أسرتى . لقد مضى على زواجنا الآن ثلاث سنوات ، وأصبح عمرى ٢٥ عاما وعمره ٤٩ سنة وأشعر بأننى وحيدة فى معظم أوقاتى وزوجى دائما مع أولاده وزوجته يقضى الأعياد معهم ويسافر بصحبتهم وأنا على الهامش فى حياته ويشترط علىّ عدم الإنجاب فهل يكون ضميرى قد استيقظ فأصبح يفسد علىّ حياتى التى سعيت إليها بإرادتى ؟

إننى أشعر بأننى لو أنجبت منه طفلا ، فسوف أصبح فى أمان ، فهل أحمل منه وأخفى عنه حملى إلى أن تمضى أربعة شهور ثم أصارحه به وأتحمل ثورته ؟ وهل أطلب منه الطلاق وأتركه لزوجته وأولاده أم أستمر فى « العز والمال » وأنسى موضوع الإنجاب هذا إلى الأبد ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من يعرف قواعد اللعبة قبل المشاركة فيها لا يحق له الشكوى من قسوتها فيما بعد وإلا فلماذا شارك فيها من الأصل وقبِل بقواعدها ؟

وأنت يا سيدتى حين « انتابك الفرح » وأنت تتلقين عرض صاحب العمل عليك بالزواج منه والتخلص من خطيبك الذى تستعدين للزفاف إليه بعد شهر واحد كنت تعرفين جيدا أن الرجل الذى ابتهجت برغبته فى الزواج منك زوج وأب ورب أسرة أخرى ، وأنك سوف تصبحين إن عاجلا أو أجلا وبغض النظر عن الصيغة الشرعية للعلاقة الزوجية بينكما امرأة أخرى على هامش حياته يتسلل إليها فى جنح الظلام ويقضى معها بعض الأوقات البهيجة ثم يرجع من عندها إلى حياته العائلية المقبولة من المجتمع وعالمه المرتبط بهما .

ولأن من يدفع أجر العازف يحق له أن يختار اللحن الذى يعزفه ، كما يقول الكاتب والمؤرخ الأنجليزى الدوس هكسلى ، فلقد اختار لك زوجك وضع زوجة الظل التى يقضى منها وطره حين

يشـاء ، ولا يرغب فى أن ينجب منهـا مراعـاة لأوضاعـه العـائليـة والاجتماعـية ولكيلا تصبح روابطها به أبدية ، فيـتعذر عليه فض « الشركة » معها بغير خسائر نفسية وتربوية وإنسانية جسيمة إذا جاءت النهاية أو تعقدت الأمور بينهما .

وإذا كانت السـرية فى الزواج مما يتعارض أصـلا مع طبيعـته المشـروعة التى تـشتـرط العلانـية والإشـهار فـإن اشـتراط عـدم الإنجاب على الزوجة الشابة لغير أسباب صحية ضرورية ، يتدنى بهـذا الزواج خطـوات أخـرى فى الطريق الهـابـط به من قـداسـة الشرعية إلى ما يشـبـه علاقة العشق السرية مهمـا كان اسمها على الورق ولأنك تدركين ذلك فى تصورى بشكل أو بآخـر وتعرفين أن علاقة العشق الجـسدى قصيرة مهما طالت . فـأنت تشعرين بعدم الأمان ، وقـد تأكد لديك هذا الشعـور منذ تجربة اجـهاضك المؤلمة ، وحين ترغبين الآن فى هذا الحـمل فإنك تربطين بينه وبين رغبتك فى الأمـان والاطمـئنان إلى استـمـرار الزواج أو استـمـرار « الحل السحرى » الذى قبلت به لمشاكلك المادية والاجـتماعية ولا تربطين بينه وبين تطلعك إلى الأمومة أو رغبتك المشروعة فى أن تمارسيها كأى زوجة أخرى ، ولهذا فإن الخـواطر كلها تتفاعل عندك فى بوتقة حسابات الأمـان والضمان ، وليس فى بوتقة المشاعـر الإنسانية أو العـاطفية .

وأنت محـقة فى مـخـاوفك وعـدم إحساسك بـالأمان لأن الحلول السحرية لمشـاكل الحياة كالبرق الذى يلمع بشـدة فى السماء .. ثم يختفى باسرع من لمح البصر على عكس الحلول الطبيعية للمشاكل التى يتوصل إليها الإنسان عبر كفاح السنين « فتبقى فى الأرض » ولا تذهب جفاء مع أى عارض من عوارض الحياة .

وأنت قد فضلت هذا الحل السحرى البـراق الذى يـختصر الزمان ويقرب المسافات بغير عناء ولا صبر ولا كفاح ، وضحيت من أجله بشاب مكافح ارتبط بك ورضـى بظروفك الاجتماعـية وعقـد قرانه عليك ، وجاهد بضع سنوات لكى يوفر متطلبات الزواج منك وكان

يستعد لزفافك إليه بعد شهر واحد حين اعترضه هذا المنافس الخطير الذى لا يقوى على الصمود أمامه ، فسلم بالهزيمة وانسحب كسيرا محسورا ، والحق أنه لم ينهزم أمام هذا المنافس فى حد ذاته وإنما انهزم فى الحقيقة أمام تطلعاتك المادية التى رحبت بالمنافس وسلمت له بلا أى مقاومة ولو كان الأمر على غير ذلك لما استطاع قارون نفسه بأمواله أن ينتزع فتاة ممن تحبه وترغب فى الحياة إلى جواره مهما كانت ظروفها العائلية أو الاجتماعية قاسية ، لهذا لم أعجب كثيرا لتخليك عن خطيبك لكنى عجبت كثيرا لشىء واحد هو أنك لم تترددى لحظة واحدة فى التضحية به حين اتيحت لك فرصة هذا الحل السحرى حتى ولو من باب التجمل أمام الغازى الجديد ولم يدر داخلك أى صراع من أى نوع ولو لبضع دقائق قليلة بين إحساسك بالواجب الأخلاقى تجاه خطيبك الذى تستعدين للزواج منه وبين تطلعاتك المادية لحياة أفضل مع رجل متزوج وأب لأطفال صغار وإنما قبلت بعرض الرجل المتزوج وأنت فى حكم الزوجة لرجل آخر بلا أدنى تردد أو « محاورة » داخلية ولو قصيرة عندك بين نداء الواجب وبين نداء الطمع والتطلعات المادية .

وأقدمت على ما أقدمت عليه دون أدنى إحساس بالذنب تجاه « زوجك » الذى ستزفين إليه بعد أيام ناهيك بالطبع عن أى احساس بالذنب تجاه زوجة صاحب المعرض وأبنائه .

فبماذا تفسرين هذه « الحالة » يا سيدتى ؟ وماذا جرى للبعض حتى لم يعد الإقدام على ما يخجل منه الحر يتطلب منهم حتى ولو بضع دقائق من الرفض أو المقاومة أو حتى التحسب والتخوف من نظرة الآخرين إليهم حين يستجيبون للإغراء ؟

ثم ماذا كنت تنتظرين من زواج هذا شانه منذ البداية وهذا هو « الثمن » المدفوع فيه إلا أن يكون نوعا من العشق السرى يخف إليه صاحبه كلما وجد الفرصة أو الرغبة فى ذلك ولا يحق للطرف

الآخر فيـه أن يطالبه بغير مـا تسمح به ظروفه أو بغيـر ما يرغب فيه ؟

لقد دفع الرجل « الثمن » كاملا ووفى بعـهوده كلها فحل مشكلة أسرتك ونقـلها من مسـاكن الإيواء إلى شقـة مناسبـة ، وتولى أمر مشكـلة خطيبك السـابق وتكفل بدفع ما تكلفـه الشاب البـائس فى الاستعداد لزواجك ، وقـدم إليك شبكة قيمة وملابس كـثيرة وينفق عليك وعلى أسـرتك ويتحـمل مسئـوليتكم المادية وهـذه هى حدود عطائه لك وليسـت لديه الرغبة أو النيـة لأن يقدم إليك ما هو أكـثر من ذلك وهو فى النهـاية تاجـر يتـعامل مع الأشـيـاء بمنطق المثل الأمريكى الذى يحسم المساومة والجدل حين ينطق به أحد فيقول : « خذها أو اتركهـا » وبهذا المنطق الصارم فإما أن تقـبلى بما يقدمه لك من عطاء فى الحدود التى يسمح بها وإما أن ترفضيه وتتحررى من تطلعاتك وتضحى « بالعز والمال » انتصارا لإنسانيتك المهدرة ، وتتـحملى تبـعات ذلك بشـجاعـة وتواجهى الحـياة والمسـتقبل بالحلول الطبيـعية المرهقـة التى تتطلب الكفاح والصـبر ولا تنقل الإنسان من حال إلى حال فى غمضة عين .

فهل أنت على استعداد لتقبل ذلك وتحمل تبعاته ؟

لا أظن ذلك ولست أتصـورك قادرة على هذا الاخـتيـار الآن على الأقل مع اشـتداد حـاجـتك المادية وحـاجة أسـرتك لاسـتمـرار هذا الزواج « النـاقص »

أما تساؤلك عـما إذا كان ضميـرك قد استيـقظ وهل هو المسئول عـمـا تشـعـرين به الآن من ضـيق يفـسـد عـليك بعض أوقـاتك ، وتسـاؤلك عمـا إذا كان الله سـبحـانه وتعـالى يعاقـبك على تركك لخطيبك الأول وتفضيلك عليه آخر ثريا .

فجوابى عليهما أن علم ذلـك عند ربى وهو وحده سبحانه علام الغيوب لـكنى أميل لأن اتصور أنه لا دخل « للضمـير » غالبا فـيما تعانين منه الآن من ضيق لأنك إنما تشكيـن الوحدة وغياب زوجك وانصـرافه عنك إلى زوجـته الأولى وأسـرته وأبنـائه وتشكين من

عدم إحـساسك بالأمان مع زوجك ومن تخـوفك من عدم الاستـقرار واستمرار هذا الحل السحرى فى حياتك وتفكرين فى توريط زوجك فى الانجـاب منه بدون علـمـه تعـمـيـقـا لروابطك به ، وضـمـانـا لاستمرارك فى حياته لأطول فترة ممكنة .

وكل ذلك من شكوى أو حـسابات لا مكـان لوخز الضـمـيـر فيـه ولا لعـذاب الإحسـاس بالذنب تجـاه من ظلمناهم وتجنينا عليـهم حين استجـبنا لتطلعاتنا ومطامعنا على حساب سـعادتهم وثقتهم فى أنفسهم ولو كان الأمر يتعلـق بالضمير فى أى وجه من الوجوه لكان أحرى بك أن تشـعرى بالذنب أولا لاسـتجابتك لرغـبة زوجك فى إجهاض حـملك ، أو لكنت قد تمسكت بهذا الحـمل المشروع على غـير إرادتـه وتحملت تبـعـات ذلك راضـيـة حـتى ولو أدى الأمـر لانفصـاله عنك وترميم حياتك من بعـد هذه التجربة ، ثم مـواجهة الحياة الحقيقية باختـيارك الحر لنفسك وكرامتك وطفلك وتفضيلك لكل ذلك على اخـتـيـار « العـز والمال » مع قـهـر الإرادة فى أبسط حقوق الزوجة فى الإنجاب والامـتثال الذليل لما يريده « دافع الأجر للعازف » مـهمـا كان ظالما ولا إنسـانيا بغيـر رضا منك ولا قـبول وإنما طلبـا فقط لاسـتمـرار الحال عـلى ما هو عليـه لأطول فتـرة ممكنة .

الحقيقة العارية !

قرأت رسالة « الشريد » عن السيدة التى لم ترض بقضاء الله عليها بأن يأتى طفلها إلى الحياة معاقا ، فأردت أن أروى لك قصتى مع الحياة واستشيرك فيها ، فأنا رجل فى الاربعين من عمرى وقد تزوجت منذ خمسة عشر عاما من ابنة خالى التى تمنيتها لنفسى ، وكانت حلم حياتى منذ تفتحت مداركي للحياة .. ولقد كان الحائل الوحيد بينى وبينها هو ضعف امكاناتى المادية ، لكنها قبلتنى بظروفى وضغطت على أهلها لكى يعينونى على إتمام الزواج منها .. وتزوجنا بالفعل ، وسعدت بها سعادة طاغية ، واكتملت سعادتنا بمجىء الطفل الأول للحياة ، وكان جميل الطلعة ، خفيف الظل فتمتعنا بمناغاته ، وسعدنا به حين درج على الأرض يحبو ، ثم فوجئنا بعد قليل بأن ظهرت عليه تلك العلامات التى سميتها فى بابك من قبل بالعلامات المخيفة ، وفى خلال أيام كان قد تحول إلى جثة عاجزة عن الحركة ولا يتحرك فيها سوى عينيه وأنفاس صدره ، وبعد رحلة يائسة بين الأطباء سلمنا أمرنا إلى الله ، وكررنا محاولة الإنجاب مرة أخرى وأنجبنا طفلا آخر ليعوضنا مأساة أخيه ، فبدأت رحلته مع الحياة مبشرة وواعدة ، ثم لم تلبث أن ظهرت عليه هو الآخر العلامات المخيفة نفسها لكنه لم يطل شقاؤنا به كثيرا إذ استرده الله إلى جواره بعد قليل وبكيناه طويلا والتمسنا فى طفلنا الأكبر السلوى والعزاء .. وبعد هذه المحنة المؤلمة قررنا عدم الإنجاب مرة ثالثة لكيلا تتكرر المأساة واكتفينا بالسعادة الزوجية والوفاق القائم بيننا وتحملت زوجتى بالرغم من

حزنها على الطفل المفقود كل واجباتها المنزلية والعائلية بصبر جميل فكانت تعهد بطفلنا العاجز إلى جليسة ترعاه خلال فترة عملها وترجع من العمل لتقوم بأعبائها المنزلية وترعى طفلنا واعتدت أنا أن أحملها وحدها كل مسئولياته باعتبارها الأم ، وقررت بينى وبين نفسى أن هذا حق لى ، لكن أهلى بدأوا يذكروننى من وقت لآخر بانه يجب أن تكون لى ذرية سليمة تحمل اسمى ، وبأن الشرع يعطينى هذا الحق نظرا لظروف زوجتى مع أنها ظروفنا معا وليست ظروفها وحدها ، ورغم رفضى للفكرة فى البداية إلا أننى بدأت أتأثر بها ، ولم يمض وقت طويل حتى كنت قد اقتنعت بمنطق أهلى فى أنه من الأفضل لى أن أحيا مع زوجة لا أحبها وأبناء أصحاء ، من أن أعيش مع زوجة أحبها وتحبنى ، ولكن بغير أطفال ، أو بطفل فى حكم غير الموجود اللهم إلا من أعبائه ، فبدأت افتعل بطريقة لا شعورية المشاكل مع زوجتى وأتصيد الأخطاء لها وبدأت سلسلة المشاكل بأن أعلنت أن كرامتى لا تسمح لى بالاستمرار فى الحياة فى شقة مؤجرة باسمها هى وليس باسمى ، لأن العمارة مملوكة لوالدها ، مع إننى أدفع الإيجار بانتظام ، وكحل لهذه المشكلة قررت زوجتى أن تسدد هى الإيجار بدلا منى ما دام عقد الشقة باسمها ، لكنى لم أتوقف عن اصطياد الأخطاء وافتعال المشاكل ، واتهمتها هى بأنها تفتعل المشاكل معى لكى أطلقها وتتزوج رجلا آخر تنجب منه طفلا سليما ، فبكت طويلا وأكدت لى أنه لو كانت لها رغبة فى طفل جديد لأنجبته منى أنا ، لكنها قد اكتفت بى زوجا وابنا وحبيبا . ولم يرق لها قلبى يا سيدى بالرغم من ذلك، وبدأت بإيعاز من أهلى فى إدخار معظم مرتبى وحوافزى وكل إيراد خارجى أحصل عليه بغير علم زوجتى ، إلى أن تجمع لدى ما يؤهلنى للزواج مرة أخرى وشراء شقة جديدة ، وتحينت الفرصة لتنفيذ ما عقدت عزمى عليه فى السر ، إلى أن جاءت الفرصة مع مشكلة بسيطة يمكن أن تقع بين أى زوجين فاسمعت زوجتى خلالها ما لا ترضاه لنفسها وكرامتها ، وبكت هى طويلا وقالت لى من بين دموعها إنه ما دام الحال قد وصل بيننا إلى هذا الحد فإنه من الأفضل لكل منا

أن يمضى فى طريق آخر ، فكانت الفرصة التى اترقبها بلهفة وسارعت فقلت لها إنها ما دامت هى التى تطلب الطلاق ، فلا حقوق لها عندى ، ثم جمعت متعلقاتى وغادرت البيت وهى ذاهلة لا تصدق أن عبارة طائشة كهذه العبارة التى قد لا يخلو منها حديث بين زوجين فى حالة الخلاف العابر يمكن أن تقوض كل ما بيننا فى لحظة واحدة .. لكنى تمسكت بالفرصة للنهاية وتماديت فيها ولم أقبل أى وساطة للصلح بيننا وطلقتها بالفعل ، واعتمدت على « طلبها » للطلاق فى حرمانها من حقوقها المادية فيما عدا مبلغا بسيطا للإنفاق على طفلى المسكين ، ومع ذلك فلقد حزنت عليها فى أعماقى رغم رفضى للصلح معها من قبل ، وحاولت الانشغال بعملى وبمن يعرضهن علىّ أهلى لأختار منهن من أرتبط بها ، إلى أن استقر الاختيار على إنسانة من معارفنا من مستوى اجتماعى لامع ، انبهرت بها كثيرا وتم الزواج منها ، وتغاضيت عن أشياء كثيرة من جانبها وبررتها بأنها صغيرة السن ومدللة ، ومضى العام الأول من زواجنا ثم وضعت طفلنا الأول فكان طفلا صحيحا معافى ، والحمد لله وفرحت به فرحة طاغية ، ونسيت فى غمار فرحتى وانشغالى به طفلى الآخر المسكين فلم أعد أراه أو اسأل عنه ، وكأنما لم يعد له أى وجود فى الحياة وأدركت زوجتى الجديدة ذلك فشعرت بأنها قد تملكتنى للأبد بعد أن أصبحت لا أرفض لها طلبا وبدأت تتمرد علىّ ، وأصبح دخلى المناسب جدا لا يكفى مطالبها . ولا يوفر لها الحياة التى تليق بها .. وأصبحت ساخطة على كل شىء ولا يرضيها شىء ، ناهيك عن عدم اهتمامها بشئونى وشئون البيت ، ووجدت نفسى فجأة أمام الحقيقة العارية وتذكرت منطق أهلى فى أن الحياة مع زوجة لا وفاق معها وسط أطفال ، أفضل منها مع زوجة محبة بغير أطفال ، وبدأت أتشكك فيه ، وأراه منطقا خاطئا وجهولا .

ثم انجبت طفلة جميلة ، فازداد مع مولدها تمرد زوجتى وترفعها علىّ وإهاناتها لى أمام أهلى وأهلها على السواء . وأنا أحاول الصمود والاستمرار ثم شاءت إرادة الله أن ترتفع حرارة طفلى الصحيح المعافى الذى أنجبته من زوجتى الجديدة ذات يوم فلا يمضى إلا سواد الليل

فقط إلا ويكون الله سبحانه وتعالى قد استرد وديعته الغالية بغير مقدمات وغرقت فى احزانى العميقة وتذكرت طفلى الآخر الذى أودعته التراب قبل سنوات وطفلى الأكبر المعاق الذى نسيته تماما وأهملت امره ، وزوجتى الأولى التى اختارتنى زوجا وأبا وابنا لها واغدقت على من حبها وعطفها ، فتنكرت لها .

وضاعف من حزنى ومعاناتى أن حزن زوجتى الثانية على طفلها قد تحول عندها إلى شراسة مضاعفة ، ومبالغة فى التمرد والسخط على كل شىء ، فتحملت شراستها وتمردها صابرا وبررته بظروفها النفسية المؤلمة لكن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد ، فقد هجرت البيت بعد قليل مصطحبة معها طفلتى واشترطت لعودتها أن اتنازل لها عن ملكية الشقة التى تقيم بها ، وفى محاولة من جانبى لاحتواء الموقف وافقت على شرطها ونقلت ملكية الشقة إليها بالفعل ورجعت زوجتى إلى بيتها ، لكن المشاكل لم تتوقف من جانبها بعد ذلك ابدا وحاولت جاهدا الصبر والتحمل .. وبدأت أشعر بأعراض مرضية معينة بسبب الضغط العصبى الذى أتعرض له وشكوت لزوجتى من ذلك ورجوتها أن نحيا حياتنا فى سلام بعد كل ما جرى فلم تعبأ بما قلته ولم تتغير ، ووجدت نفسى استجمع شجاعتى فجأة واتخذ قرارى بترك زوجتى هذه غير نادم عليها بعد أن عشت معها بضع سنوات طاردت خلالها سراب السعادة بغير أن أنالها .. ووجدتنى أيضا أتذكر زوجتى الأولى واستعيد ذكرياتى ومشاعر الحب والعطف والحنان التى عشتها معها ، ومساندتها لى قبل الزواج .. وبعده .. فأرسلت إليها بعض الأهل والاقارب ليتوسطوا لى فى العودة إليها مرة أخرى بعد أن تلقيت درسا قاسيا من دروس الحياة المؤلمة ، لكنها رفضت ذلك قائلة أنه لم تشف بعد جراح ظلمى لها وغدرى بها وهى من ضحت بأمومتها فى سبيل حياتنا معا ، ورجع إلىّ الوسطاء برفضها فظننتها تأبى لنفسها وضع الزوجة الثانية فى حياتى ، مع إننى لم اكن أفكر فى ذلك وكنت قد عقدت العزم على طلاق زوجتى الثانية .. فقررت أن أنفذ هذه الخطوة أولا قبل أن أجدد مساعى الصلح معها وطلقت زوجتى الثانية..

ولم يعد لدى بعد الطلاق سوى مرتبى .. وجددت مساعى الصلح مع زوجتى الأولى .. فإذا بها متمسكة بالرفض وإذا بى أعرف أن هناك من يطرق بابها وأنها تفكر جديا فى الزواج منه خاصة بعد أن ابدى استعداده لرعاية طفلى المعاق .

إننى أثق فى أن زوجتى مازالت تحبنى لكن كرامتها تأبى عليها الرجوع إلىّ بعد ما فعلت معها ، لهذا فإنى أرجوك أن توجه لها كلمة بأنه من الأفضل لطفلنا المسكين أن يكون بيننا بدلا من أن يكون له أب بديل وأبوه الطبيعى على قيد الحياة ، نعم لقد ظلمتها وظلمت ابنى معها ، إذ لم أقبل بقضاء الله فيه وحاولت تغييره لكنى نادم على ما فعلت وأرجوك مناشدتها القبول برجوعى إليها لأننى أحتاج إليها أضعاف ما تحتاج إلى ، ولست أريد بذلك التكفير فقط عن ذنبى معها ومع ابنى وإنما أريد أيضا أن أعيد السعادة إليها وإلى حياتها ، والاستقرار إلى حياة طفلى المسكين الذى حرم منى وأنا على قيد الحياة ، كما أرجوك أيضا أن توجه كلمة لكل من ابتلاه الله سبحانه وتعالى فى نفسه أو فى طفله أن يتقبل قضاء الله فيما قضى عليه به ، وألا يتمرد على قدره أو يرفضه لأن تدبير الله أفضل وأحسن ولأن انتقامه أيضا أكبر من أن يتحمله أى إنسان ، والسلام .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

الندم المتأخر .. كالعدل البطىء الذى يجىء بعد فوات الآوان ، لا يشفى الغليل ولا يداوى الجراح ، ولا يعوض الإنسان عما فقده من سنوات العمر الثمينة فى التعاسة والمعاناة والإحساس المرير بالظلم الإنسانى.

فإذا كان لمثل هذا الندم أيضا بواعثه الشخصية التى تتعلق بظروف النادم وليس بظروف ضحيته ، كان يتجرع مرارة الغدر من الآخرين فيعرف لنا إخلاصنا أو يفقد كل شىء مع غيرنا ، فيرجع إلينا نادما وباحثا فى نفس الوقت عن تعويض لما فقده مع الآخرين لدينا ، فإن فاعلية هذا الندم فى تذويب المرارات القديمة

تصبح ضعيفة للغاية ، وقد تثير الشك لدى الضحية فى أن دوافعه ربما كانت اضطرارية أكثر منها اختيارية .

والندم الاضطرارى الذى لا يختاره صاحبه بملء إرادته وقدرته الكاملة على الاختيار ، ندم غير نبيل ، ولا قيمة له ولا كرامة فى كثير من الأحيان .

وفى تقديرى فإن مطلقتك الأولى تتشكك فى تجرد ندمك على أخطائك البشعة معها من الدوافع الشخصية والمصلحية التى تتعلق بك أنت ، وليس بندمك على غدرك بها ورغبتك المخلصة فى التكفير عنه وإعادة السعادة إليها وإلى طفلك المعاق منها ، ولها كل الحق فى هذا التشكك يا صديقى ، فلقد فقدت ، كل شىء فى تجربتك الثانية ، فخسرتَ الشقة التى ادخرت ثمنها وأنت تشارك زوجتك الأولى الحياة تحت سقف واحد ، لكى تتزوج من غيرها وتنجب أطفالا أصحاء كما تقول ! واقتطعت منك مطلقتك الثانية حين تعذر عليك احتمال الحياة معها « رطل اللحم كاملا » من جسمك كما أراد أن يفعل المرابى اليهودى مع مَدينه فى مسرحية تاجر البندقية لشكسبير العظيم ، وحصلت منك على كل حقوقها المادية وخلفتك وراءها لا تملك شيئا سوى مرتبك ، فى حين تعللت أنت بادعاء أن الأولى التى أحسنت عشرتك ، وكانت تدفع عنك إيجار مسكنك وتتحمل فيما يبدو معظم نفقات الأسرة ، هى التى طلبت الطلاق لكى تحرمها من حقوقها المشروعة عند الانفصال .

فإذا تشككت الأولى الآن فى صدق دوافعك للعودة إليها وتصورت أنك لا ترجع إليها نادما لاستشعارك جسامة غدرك بها وإنما لاحتياجك إلى المأوى والأسرة والحياة العائلية التى فقدتها فلا يستطيع أحد أن يتهمها بسوء الظن فيك أو بتغليب عامل الشك على عامل الثقة فى حسن نيتك تجاهها ، كما أنك على الناحية الأخرى لم تقدم إليها من سلوكك وأفعالك خلال السنوات الماضية ما يرجح لديها حسن الظن فيك على الشك فى « ذاتيتك » وسعيك الدائم لما تراه محققا لاعتباراتك الشخصية وحدها بغض النظر عن

اعتبارات الآخرين ، فانت لم تتوقف مثلا عند أية اعتبارات إنسانية وعاطفية خاصة بها حين « عقدت العزم » كما تقول فى رسالتك على طلاقها والزواج من غيرها ، ولم تتوقف أيضا أمام مسئوليتك الإنسانية عن طفلك المعاق هذا ، وأنت تدبر للإنفصال عن أمه وتخطط له ، ولم تهتم بامره بعد الانفصال ولم تؤد إليه حقوقه فى الرعاية والعطف والاهتمام الإنسانى ، وإنما نسيت أمره تماما ولم تره .. « ولم تتذكره » إلا بعد ان تجهمت سماء حياتك الزوجية الجديدة ، وعجزت عن مواصلة الاحتمال والاستمرار ، وكل ذلك لا يرجح دوافع الثقة فيك من جانبها على بواعث الشك والارتياب فيك ، ولا شك فى ان الوضع الأمثل والأفضل لكل طفل فى الوجود هو أن ينشا بين ابويه الطبيعيين ، وليس بين أب بديل وأم طبيعية ، ولو قبلت هى بعودتك إليها بهذا الدافع وحده ، لما لامها أحد على اختيارها ، لكنه لا يستطيع أحد كذلك على الناحية الأخرى أن ينكر عليها حقها فى أن تتطلع لطلب سعادتها مع غيرك إذا تحمل مسئولية طفلها المعاق هذا وقبل بها راضيا ، بعد أن ضجرت من غدرك بها وتخليك عن واجبك الإنسانى تجاه طفلك منها ، ولعلها إذا ناقشت وضع طفلها المعاق من أحلامها فى السعادة مع غيرك تستطيع أن تقبل بغير عناء التنازل عن الوضع الأمثل له بين أبوين طبيعيين وترضى له بالوضع الأقل تفضيلا إذا كان كفيلا بأن يحقق لها سعادتها التى افتقدتها معك ، ولا يحرم طفلها فى الوقت نفسه من حقوقه العادلة فى الرعاية والأمان . وقد يغريها بذلك إلى جانب عدم استشعارها للأمان معك ، إنك لم تكن هذا « الأب الطبيعى » لابنها المعذب خلال السنوات الماضية ، إذ لم تقبل به منذ اللحظة الأولى ولم ترض بقضاء الله فيه ، ولم تتحمل مسئولية رعايته أو العطف عليه واعتبرت ذلك من واجبات أمه وحدها تجاهه ، ثم هدمت سقف الأسرة التى كان يستظل بها ، ولم تعوضه عنه حبا ولا عطفا ولا رعاية طوال سنوات الانفصال . ففيم يحتاج إليك هذا الطفل الآن وأى زوج أمين

لامه يعرف حقوق ربه عليه يستطيع أن يشاركها تحمل مسئوليته الإنسانية ، ويرعاه معها بإخلاص ؟

ولا عجب فى ذلك إذا فكرت زوجتك فى أمر طفلها بهذا المنطق لأن احتياجاته محدودة للأسف بسبب ظروفه الإنسانية المؤلمة بحدود الاحتياجات الغريزية البدائية كالمأوى والمشرب والمأكل والملبس ، فإذا قدرت ذلك ورجحت على أساسه حقها فى أن تطلب سعادتها الشخصية مع غيرك ، مع التضحية بدور الأب الطبيعى الذى لم يقدم له الكثير من قبل ، فلا لوم عليها ولا تثريب ، وحقوق الأبوة فى النهاية لا تتعلق فقط بالعوامل البيولوجية وإنما أيضا بنهوض الآباء بمسئولياتهم تجاه ابنائهم وبما يقدمونه إليهم من حب وعطف ورعاية .

لقد اعتمدت يا سيدى فى سعيك للعودة إليها على ثقتك فى إنها مازالت تحبك لكن كرامتها تابى عليها الرجوع إليك بعد ما نالها منك من غدر وإنكار ، لكن الأمر لا يبدو لى على نفس هذه الدرجة من الثقة واليقين فلقد غاب عنك فى غمار همك بمشكلتك الشخصية بعد إنفصالك عن الثانية ، أن الحب ليس رصيدا أبديا يصمد إلى ما لا نهاية مهما نال المحب من جفاء المحبوب وجموده وإنكاره له على مر السنين ، وإنما هو رصيد إنسانى حى وليس جامدا يقبل الخصم والإضافة ، وينفد على مر السنين إذا تكرر السحب منه بغير إيداع أو إضافة إليه .

والواضح هو أنك قد اسرفت فى السحب من هذا الرصيد القديم لديها دون أية محاولة للإضافة إليه ، فكانت النتيجة أن نفد منذ فترة غير قصيرة ووجدت زوجتك فى نفسها القدرة والرغبة فى أن تتطلع لغيرك وتبحث عن سعادتها معه ، ولهذا لست استطيع مناشدتها قبول عودتك إليها إذا كانت هى الأخرى قد « عقدت العزم » على الارتباط بغيرك ووجدت لديه ما يعوضها عن تعاستها السابقة معك .

إن تصحيح الأخطاء حين يترتب عليه ارتكاب أخطاء جديدة قد

يصبح في بعض الأحيان ضربا من التخبط ومضاعفة الخطايا ، وأنت في محاولتك المتأخرة لاصلاح خطئك الجسيم تجاه زوجتك وطفلك المعاق ، إنما ترتكب خطأ لا يقل جسامة عنه في حق طفلتك الصغيرة التي انجبتها من الثانية ، وربما كانت أكثر احتياجا الآن إليك من الناحية التربوية والعاطفية من طفلك المعذب بأقداره هذا ، لكنك فيما يبدو لي لست مؤهلا لاحتمال ما لا يرضيك طلبا لسعادة أعزائك ، وما زلت تنظر للأمور كلها من زاوية اعتباراتك الشخصية وحدها بغض النظر عن اعتبارات أبناء وحقهم في الاستقرار والأمان ، ولو انصفت لاعتبرت رفض الأولى عودتك إليها مبررا عادلا لكيلا تظلم هذه الطفلة الصغيرة بعد أن ظلمت طفلك المعاق من قبل ، ولتحملت عناء الحياة مع الثانية التي سعيت إليها بإقدامك وقبلت بها .. كعقابك في الدنيا ، كما قبل صاحب الحوت يونس عليه السلام بزوجته كعقوبة له في الدنيا حين سأل ربه إن كان معاقبا له بشيء في الآخرة أن يعجله له في الدنيا ، فقال له ربه سبحانه وتعالى كما روى الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه عن « النكاح » : عقوبتك فلانة ابنة فلان فتزوجها ، فتزوجها وتحمل أذاها صابرا .

فحاول إصلاح الأمور بينك وبين الثانية طلبا لمصلحة الطفلة الصغيرة التي انجبتها منها ، ودع الأولى لنفسها وحياتها ما دامت قد وجدت طريقها مع غيرك وعقدت النية على المضي فيه للنهاية ، واقبل بما لا يرضيك من حياتك مع الثانية ولا تضف إلى رصيد أخطائك خطأ جديدا .

التساؤلات المريبة !

أنا سيدة شابة من أسرة طيبة ، منذ سنوات تقدم إلى شاب وسيم أنيق يعمل فى نفس مجالى المهنى ، ومن أسرة لائقة اجتماعيا وماديا ، فأعجبت به على الفور وشجعته على التقدم لأبى .. وتقدم إليه فرحب به بلا تردد وتحمس لارتباطى به لأننى صغرى ابنتيه ويتيمة الأم منذ طفولتى المبكرة ويريد أن يطمئن علىّ كما اطمأن من قبل على أختى الكبرى .

ولأن أبى لم يتزوج بعد رحيل أمنا عن الحياة ، فقد تفرغ لتربيتنا ورعايتنا والعطف علينا وخصنا بحبه الغامر ووفر لنا حياة طيبة كريمة ، فتعلمنا فى المدارس الراقية وتخرجت أختى فى كلية مرموقة وتزوجت رجلا مرموقا ، والتحقت أنا أيضا بكلية مرموقة وتخرجت فيها ، ثم جاء هذا الشاب ليطرق بابى وتمت الخطبة وأبى واختى سعيدان من أجلى .

وبعد فترة قصيرة من الخطبة بدأ خطيبى يوجه إلى أسئلة مريبة عن ثروة أبى وكم يبلغ نصيبى منها ، وكم دفع لأختى حين تزوجت ، وكم سيعطينى من مال لكى أتزوج فكنت أجيبه على كل هذه الأسئلة بأننى لا أعرف إجابة لما يسألنى عنه ، وكنت صادقة فى ذلك بالفعل ، فلقد كنت أعرف أن أبى بالمعاش ويملك بعض الأملاك والأموال التى ورثها عن أبويه لكننى لا أعرف تفاصيلها ولم اهتم يوما بأن أعرف ذلك ، وبالرغم من إحساسى بما وراء هذه الأسئلة من نية الطمع لدى خطيبى إلا أننى تجاهلتها وتجاوزت عنها لأننى كنت قد أحببته وأردته

لنفسي ، كما تكتمت هذه التساؤلات المريبة أيضا عن أبى وأختى وزوجها لكيلا يتشككوا فيه ، وبدأنا الاستعداد للزواج فراح خطيبى يتحدث عن أن أباه قد تعرض لخسارة مادية كبيرة فى تجارته ، وأنه قد لا يستطيع توفير الشقة التى سنتزوج بها قبل بضع سنوات واكتأبت لذلك ولم يحتمل أبى حزنى واكتئابى ، فقام بشراء شقة مناسبة لى وتأثيثها بأثاث فاخر دون أن يعرف حتى ماذا سيدفع خطيبى من مهر لكى يسعدنى بعد أن لاحظ تعلقى به ، واقترب موعد الزفاف وتوقع أبى أن يتكفل خطيبى بنفقات الحفل ، كما هو المفروض ، وخاصة أنه لم يدفع مهرا ولم يتكلف سوى قيمة الشبكة التى قدمها لى ، لكن خطيبى راح من جديد يتعلل بالخسارة المادية الفادحة التى تعرض لها والده والتى غلت يده عن أن يقدم لابنه ما كان ينبغى أن يقدمه له فى هذه الظروف ، وبدا واضحا أنه لا يريد أو لا يستطيع تحمل تكاليف الزفاف ، واكتأبت مرة أخرى لذلك فإذا بأبى يفاجئنى بأنه قد أعد كل شىء لإتمام حفل زفافنا فى فندق كبير ، وأنه قد تكفل بكل نفقاته وطرت فرحا بذلك وقبلت أبى شاكرة وممتنة وازددت حبا وإعجابا بأبى العظيم الحنون ، فإذا بزوج شقيقتى يجيئنى بأخبار مزعجة تكدر صفوى ، فلقد قال لى ولأبى إنه قد تحرى أحوال أسرة خطيبى ، وتأكد من أن والده لم يواجه أية كارثة مالية ، كما يزعم خطيبى ، بل إن أحواله المادية جيدة للغاية ويملك أموالا طائلة ، لكن كل من سأله عنه أكد له أن هذه الأسرة تتميز بالطمع الشديد .. والبخل الأشد ، فثرت عليه ثورة عنيفة واتهمته بالحقد على خطيبى والغيرة منه ، وتحمل الرجل ثورتى وغضبى فى صمت ثم غادرنا وهو يقول لى إنه يتمنى أن أكون على حق فيما أقول عن خطيبى وأن يكون هو المخطىء ، لكن أبى بدأ يفكر فيما قاله زوج أختى ويراجع تصرفات خطيبى معى منذ عرفته ويتشكك فيه ، ولم أدع له الفرصة للتراجع وإنما ضغطت عليه بشدة بدموعى ورجائى له ألا يأبه لما قاله زوج أختى ، وواصلت ضغطى عليه ، فلم يملك فى النهاية سوى الاستجابة لدموعى والموافقة على استكمال المشوار لكيلا يشعر بأنه قد أرغمنى

على ترك خطيبى ، الذى أردته لنفسى ، وتم عقد القران والزفاف وتوقعت أن يقاطع الحفل زوج شقيقتى بعد ما جرى بيننا ، لكننى فوجئت بالرجل يحضر الزفاف ويهنئنى ويطلب منى ألا أتردد فى الاتصال به إذا احتجت إليه فى أى لحظة لأننى بمثابة الأخت الصغيرة له .

وانتقلت للعيش مع زوجى فى الشقة التى اشتراها لى أبى .

وبعد أسابيع قليلة راح يسألنى من جديد عن أموال أبى ويطلب منى الانفصال المادى عنه ، كما بدأ أيضا يستولى على مرتبى كاملا كل أول شهر ، وتكتمت هذه المشاكل المادية عن أبى وأختى ، وبدوت أمامهما سعيدة بحياتى مع زوجى ، الذى تمسكت به وفرضته على أبى ، لكنه تمادى أكثر وأكثر فى طريقته المادية المقززة هذه ، حتى بلغت به الجرأة أن يتحدث إلى أبى مباشرة أمامى ويطلب منه أن يقسم ماله بينى وبين أختى لكيلا يشاركنا أحد فيه بعد وفاته ، ورغم إيلام الموقف لأبى ، فقد تمالك نفسه واعتذر له بلطف وأدب عن عدم تلبية هذه الرغبة لأسباب يراها ، ولم يرض زوجى بالطبع عن ذلك ، لكنه لم يكتم مشاعره ، كما فعل أبى وإنما انصرف غاضبا وهو يتوعدنى بأننى سوف أدفع ثمنا غاليا لرفضى تحقيق رغبته .

وبدا واضحا أمام أبى وأختى أن زوجى يهددنى بالطلاق إن لم يعطنى أبى نصيبى فى ماله لكى يوضع تحت يده هو .

وشعرت بما يتفاعل فى نفس أبى من إحساس بالألم والمرارة والضيق وشاركته مشاعره هذه ، ووجدتنى لأول مرة لا أرغب فى التأثير عليه لكى يرضخ تحت ضغط دموعى لمطلب من مطالب زوجى ، وفوجئت به وهو يقول لى إنه مستعد لأن يفعل ما يطلبه زوجى إيثارا لسعادتى معه وتجنبا للمشاكل معه ، فرفضت ذلك بإصرار وأكدت له أننى لا أريده أن يحقق رغبة زوجى مهما كانت الأسباب والنتائج .

وتمسكت بعدم تنفيذ رغبة زوجى هذه ، فبدأ يثور علىّ ويضربنى ويعاملنى باحتقار شديد حتى أمام زملائى فى العمل ، وتمادى فى ذلك حتى بلغ به الأمر أن ضربنى أمام الجيران لأننى تجاسرت على اقتطاع

جزء من مـرتبى لشراء أشياء كنت فى حـاجة إليها ، ثم تعـددت مرات الضـرب المبرح لى مـنه وتكرر حضـور أختى وزوجهـا إلى مـسكنى لانقـاذى من بين براثن هذا الوحش ، وفـشلت مـحـاولاتهمـا المضنية للصلح بيننا ، وأبى يتعذب بالحسرة من أجلى وبـإحساسه بالعجز عن انقاذى وهو الشيـخ الضعيف ، ولم يجد ما يفـعله مع زوجى سوى أن يعرض عليـه مبلغا من المال مـقابل أن يطلقنى ويدعنى لحال سـبيلى ، لكن زوجى رفض هذا العـرض ، الذى لا يشـبع نهـمـه إلى مـال أبى ، وطلبت من والدى أن يكف عن تقديم العروض إليه ويكـفيه ما فعله من أجلى ، بسـبب تـدليله الزائد لى ولولا ذلك لما كـان لمـثل هذا الرجل أن يتزوجنى بعد أن خدعنا بالأكاذيب من اليوم الأول .

وتوقفت العروض ومحـاولات الصلح ولم يجد زوجى ما يفعله لكى يشدد من ضغوطه علىّ سـوى أن يبلغنى أنه سوف يتزوج من أخرى ، لأننى لا أنجب بدليل مرور عامين علينا بغير إنجاب .

وبدأ يخـرج بالفعل مع امـرأة مطلقة من أقـاربه ، وبدأت هذه المرأة تقول للجـميع إن زوجى سيـتزوجهـا لأن زوجته « عـاقر » ولم يكتف بذلك ، بل جاء إلىّ مـعها فى عـملى لكى يذلنى أمام زملائى ويجـبرنى على قبول شروطه للطلاق وإعطائه ما يريد من مال .

وازدادت المشـاحنات بيننا إلى أن جـاء يوم تصـادمنا فيـه بالبيت فطردنى بملابسى التى كنت أرتديها وضـربنى ورفض دخولى للبيت ، وهرولت إلى أبى فذهب مع زوج أختى إلى البيت فوجداه قد غير كالون الشقـة وأغلقها واختـفى ، وبحـثا عنه لدى أهله فلم يجـدا منهم سوى الجفاء والإهانة ، وانهـار أبى صحيا ، ولم يعـد قادرا سوى على البكاء من أجل ابنته التى قدم لها كل ما يستطيع لإسعادها بلا جدوى ، أما أنا فلقد غضـبت من نفسى لإضاعتى هذه السنوات الثمـينة من عمرى مع هذا الرجل ، الذى لم يكن يسـتـحق أن ارتبط به ، ولا أن أضعف أمام مطالبـه ، واسودت الدنـيا فى وجـهى وبدأ زوجى يسـتعـد للزواج فى المسكن الذى اشتراه لى أبى وأثثه من مـاله ، ولا تسألنى كيف والشقة ملكى ، فهذا هو ما حدث ، فقد وضع يده على الشقة والأثاث ، ولم يكن

هناك من سبيل أمامنا لاستردادهما إلا الشرطة والنزاعات الطويلة ، وزوجى مستعد للمشاكسة والتهرب وتقديم الاعتراضات التى تحتاج إلى سنين للفصل فيها ، ونحن قوم مسالمون ونريد التفاهم الودى بغير نزاعات .

وخلال فترة الأمل فى التفاهم حول الانفصال بطريقة ودية فوجئت بالسيدة التى سيتزوجها زوجى ترسل إلىّ ملابسى ملفوفة فى ملاءات السرير القديمة لأن زوجى قد بخل حتى بشراء حقيبة رخيصة ليرسل إلىّ فيها ملابسى ، وازداد إحساسى بالقهر والمرارة ، وتعجبت لسوء اختيارى لهذا الزوج البشع ، الذى حولنى من طفلة مدللة فى بيت أبى إلى خادمة ذليلة ينعتها زوجها بأبشع الصفات لمجرد أنها لم تدفع له ما يريد .

ثم حدث فجأة شىء غريب زلزل كيانى .. فلقد ذهب زوجى قبل زواجه بأسبوع واحد إلى زيارة قريب له يقطن بعمارة عالية ، فإذا بمصعد العمارة يسقط به من ارتفاع شاهق ويلقى مصرعه فيه على الفور!

هل تصدق ذلك ؟

لقد تسبب عجزى أنا عن تصديقه فى حينه فى إصابتى بصدمة عصبية شديدة ورقدت طريحة الفراش بالمستشفى لبعض الوقت ، عولجت خلاله نفسيا وعصبيا وغادرت المستشفى كالعليلة .. فلقد تخيلت أن يحدث أى شىء .. لكنه لم يخطر لى ببال أن تكون هذه النهاية المفجعة هى خاتمة القصة معه أو طريق خلاصى منه غفر الله له.

ولقد شاءت إرادة الله أن استرد كل ما عجزت من قبل عن استرداده بالحسنى وتقديم العروض والتنازلات ، فاستردت شقتى المسلوبة وأثاثى بلا مشاكل وشاركت أيضا أهل زوجى الراحل فى ميراثه باعتبارى زوجته ، وورثت من حيث لم أرغب من أراد أن يرثنى حية ويرث أبى معى فى حياته ، ولم يكن زوجى معدما ولا محتاجا لكنه طمع الدنيا لعنة الله عليه فماذا تقول عن ذلك سوى أن الظالم لا يظلم فى النهاية سوى نفسه .

إننى ، وأرجو أن تصدقنى فى ذلك ، لم أشعر بالشماتة فيمن أذلنى وأهاننى واستغلنى واستولى على مـالى ، لكنى لن أخدع نفسى فأقول لك إننى قـد شعرت بالحـزن عليه ، لأننى قـد شعرت فـقط بالأسف له ولكل من يعـميـه غروره وقـوته وقدرته عن أن قـدرة الله فوق قـدرته فيظلم غيره ويتمادى فى الظلم والاغترار بالقوة الزائلة . إنك لن تصدق لو قلت لك أن « المرأة » التى كان زوجى سيتزوجها لكى يذلنى ويكسر أنفى بهـا كمـا كان يـقول قـد تزوجت بعد رحـيله عن الحـياة بثلاثة شهور ، وحين أفكر الآن فى مأساتى بعد أن ذهب كل شىء إلى سبيله أجدنى قد تعرضت لهـذه التجربة القاسية بسبب التسـرع فى الاختيار وعـدم التريث والتـروى فـيه ، وبسـبب تدليل أبى الزائد لى وضـعفـه العاطـفى أمام دموعى ورغـباتـى ، فـإذا كنت لا أستطيع أن ألومـه على حبـه وحنانه الزائد بى ، فإنى ألوم نفـسى آلاف المرات على استـغلالى لهذا الحب فـيمـا أضر بى وعرضنى للذل والمهـانة ، وأنصح كل الآباء والأمهـات بعدم تدليل أبنائهم ، وعـدم الاستجـابة لكل رغبـاتهم لمجرد ارضـائهم إذا عـرفـوا أنهـا ليـست فى مـصـلحـتـهم . وأطالبـهم بأن ينصحوهم ويرشدوهم للطريق السليم ويحـموهم حتى من أنفسهم إذا ضعفت أمام الأهواء . والسلام .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

كان الإمـام أبو حامد الغـزالى يقول : ليس المشكل النصيـحة .. وإنما المشكل قبولها !

وهذا صحيح لأننا نستطيع بلا عناء كبير أن ننصح أبناءنا بما فيه خـيرهم وصلاحهم ، ونستطيع كـذلك أن نرشدهم إلى الطريق الصحـيح الذى يتجنبـون فيه العـثرات والزلات وأن نحمـيهم عند الضرورة من شر أنفسهم وأهوائهم واندفاعهم لكن قليلين منهم هم الذين « يقـبلون » النصـيحـة ويعمـلون بها ، ويرون وجـه الحق والعدل والخير فيها .

بل إن كـثـيـرين من الأبناء لا يرون فى هذه « الحـمـاية » التى

تطالبين بها الآن بعد أن تعلمت الحكمة بدروس الأيام ، إلا محاولة من الآباء والأمهات للاستمرار فى التحكم فى حياتهم بعد أن بلغوا سن الاستقلال . وهم يفضلون أن يأخذوا بزمام حياتهم بأيديهم ويخوضوا اختبار الحياة معتمدين فى ذلك على خبرتهم القليلة بالبشر والحياة ، ولا يسلمون غالبا بوجاهة رأى الآباء والأمهات إلا حين يتعثرون فى الطريق ويدفعون ثمنا غاليا لرفضهم نصح الناصحين من حياتهم وسعادتهم بعد فوات الأوان ، ولسنا ننكر على الأبناء حقهم العادل فى أن يأخذوا زمام حياتهم بأيديهم فى الوقت الملائم لذلك لكننا ننكر عليهم فقط تحسسهم من أية محاولة من جانب الآباء والأمهات لإعانتهم على أمرهم بما اكتسبوه من خبرة السنين الطويلة وتجارب الحياة ، وتفسيرهم لهذه المعونة الصادقة لهم بأنها مجرد رغبة أبوية فى التسلط على حياتهم ، مع أنهم يملكون ، أن يتفكروا بعقل مفتوح فيما يقال لهم ، ويعملوا إذا أرادوا بما يستشعرون فيه الحق والعدل وصدق الرغبة فى سعادتهم ، بل لعل السعداء منهم هم الذين إذا ترددوا بين أمرين اختاروا أبعدهما عن هوى نفوسهم ، وأقربهما للتوافق مع أحكام العقل وحكمة الشيوخ ونظرتهم الخبيرة بالحياة ، ولا تعارض بالرغم من ذلك بين استقلالية الأبناء بحياتهم وبين حمايتهم هم أنفسهم لهذه الحياة بالاستعانة بخبرة الشيوخ وتجربتهم مع الحياة ومن عجب أننا نجد أكثر الأبناء تمسكا برأيهم ورفضا لنصيحة الأهل .. هم أكثرهم لوما فيما بعد لهؤلاء الأهل أنفسهم لأنهم على حد تعبيرهم الذى أقرأه كثيرا فى رسائل بعض الشباب ، لم « يرغموهم » فى الوقت المناسب على الاستماع لصوت العقل والعمل بنصيحتهم حين تمسكوا باختياراتهم الخاطئة فى وجه معارضة الأهل واشفاقهم عليهم ، مما يسيرون إليه فى طريق الشقاء .

ولست أعرف كيف يستطيع الآباء والأمهات « إرغام » شباب يتمسكون بما اختاروه من اختيارات وفشلت معهم كل الحيل

لإثنائهم عنها فى الوقت المناسب ، ومع ذلك فهم يتهمون الآباء والأمهات بعد أن زالت الغشاوة عن أعينهم بأنهم لم يكونوا « بالحزم الواجب » معهم حين كان من الممكن انقاذهم من سوء المصير .

وحتى حين يعترفون بأخطائهم وسوء اختيارهم بعد فوات الأوان فإنهم لا يعدمون الحيلة النفسية التى يخففون بها من إحساسهم بالذنب عما جنوه على أنفسهم ، فيلقون ببعض المسئولية على الأهل ويشركونهم معهم فى الجناية فإن عدموا الحجة على اتهام الآباء والأمهات بعدم الحزم الواجب معهم فى الوقت المناسب ، رغم معارضتهم الصارمة لهم فى حينها ، لم يعدموا الحجة الأخرى على اتهامهم بالضعف العاطفى معهم مما أضر بهم وعرضهم للمهانة والهوان فيما توسلوا هم أنفسهم لدى آبائهم بالدموع لكيلا يعترضوا طريقهم إليه ، تماما كما تفعلين أنت الآن يا سيدتى بتركيزك على الحديث عن أثر تدليل أبيك الزائد لك وضعفه العاطفى معك ، فى اكتمال فصول قصتك مع زوجك رغم بداياتها المنذرة بالتعاسة .

وهى مشكلة قديمة وأزلية عبر عنها الشاعر العربى تعبيرا معجزا فى إيجازه حين قال :

أوّاه لو عرف الشباب ... وآه لو قدر المشيب

لأن الشباب « يقدر » على الفعل لكنه لا يعرف للأسف ، والمشيب « يعرف » لكنه لا يقدر على الفعل ولا على أن يرغم أحدا على الاستفادة بحكمته وخبرته ومعرفته . ولست أدرى كيف تعاميت يا سيدتى عن هذه النذر الصارخة التى نبهتك منذ البدايات المبكرة إلى ما تقدمين عليه وبالرغم من ذلك فلقد واصلت السير على الطريق المنحدر إلى الهاوية الواضحة لكل ذى عينين .

لقد تكتمت تساؤلات زوجك المريبة وأنتما فى مرحلة الخطبة ، لكيلا تثير شكوك الأهل فيه ، ويتعاونوا على اقناعك بسوء نيته ومطالبتك بفسخ ارتباطك به ، ولا تفسير لديك لذلك سوى أنك

كنت قد أحببته وأردته لنفسك فهل يغير تجاهل الحقيقة شيئا من طبيعتها ؟

بل إنك أكثر من ذلك قد مارست ضغطك العاطفى على أبيك لكى يستجيب لما لا يقبله العقل والعدل من مطالب زوجك القادر والطامع ماديا فى مال أبيك ، فكيف كنت تتصورين أن تنشأ علاقة زوجية سليمة بينك وبينه وهو لا يجهد نفسه حتى فى إخفاء مطامعه المادية فيك وفى أبيك .

إن الطمع كالكراهية ، حين يبدأ فإنه لا يعرف حدودا .. ولا يعرف الإرتواء . وحين يكون أحد طرفى العلاقة الزوجية طامعا فى مال الطرف الآخر وراغبا فى الاستفادة المادية منه ، فليس هناك من سبيل لإحلال السلام والوئام بينهما سوى إشباع رغبات الطرف الطامع المادية على حساب مصلحة الطرف الآخر ، إذ لا يرضيه سوى ذلك مهما أجهد الطرف الضحية نفسه فى إقناعه بغيره ولهذا فليس هناك حل وسط أبدا بين إشباع أطماع الطرف المتطلع لمال شريكه ، وبين الإنفصال عنه فى هدوء وبدء حياة أخرى مع غيره ، إذا كان ذلك متاحا بغير أن يدفع الأبناء ثمن الإنفصال الغالى من سعادتهم ، ولا أمل أبدا فى حياة وادعة مستقرة بين طرفين يتطلع أحدهما لمال شريكه ويقبض الآخر يده عنه ، إذ تصبح العلاقة بينهما علاقة صراع مكتوم أو صريح ، يسعى كل منهما فيه لتحقيق هدفه الذى يتعارض مع هدف الطرف الآخر والنتيجة المحتومة لذلك هى استمرار التوتر وتفجر الخلافات إلى ما لا نهاية .

على أية حال يا سيدتى فلقد انتهت تجربتك المريرة مع هذا الزواج الخاطى منذ البداية وشاءت الألطاف الإلهية لك ألا تضيف إلى ما خسرت فيه من سعادتك وصحتك وعمرك وكرامتك وبراءة مشاعرك .. المزيد من الخسائر التى لا يمكن تعويضها كخسائر الأبناء النفسية عند انفصال أبوين أساء أحدهما اختيار شريكه .

واستردت بمعجزة إلهية تنبه الغافلين عما يغفلون عنه فى

حماة صراعهم على عرض الدنيا التافه ، كل ما كان قد استولى عليه زوجك الراحل عنوة واغتصابا وتجبرا على زوجة ضعيفة وصهر شيخ ، وآن الأوان لأن تطوى هذه الصفحة الدامية بذكرياتها المريرة ونهايتها المأساوية البشعة من حياتك ، وأن تواصلي الطريق إلى الأمام بقلب يتطلع إلى نيل نصيبه العادل من السعادة والأمان ، ففى أعقاب مثل هذه التجارب المريرة لا يملك الإنسان إلا أن يتطلع إلى الغد بقلب يأمل فى السعادة والتعويض الإلهى العادل له عن سنوات الشقاء ، ولا يملك إلا أن يقول مع الشاعر :

وكان ما كان مما لست أذكره
فظُن خيرا ولا تسأل عن الخبر

نعم.. يا سيدتى ، « فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر » لكيلا يعيدنا « الخبر » إلى أجواء الماضى الذى تجرعنا فيه التعاسة والشقاء بغير ذنب جنيناه سوى أن طلبنا السعادة من أبوابها المشروعة ، ولكيلا نظل أسرى لهذه التجارب المريرة بعد أن استوفينا كاسنا فيها من الشقاء ، فيمتد بذلك أثرها على حياتنا إلى ما لا نهاية . ونشقى باجترار مرارتها فى حاضرنا كما شقينا بتجرع آلامها فى ماضينا .

وليست هناك تجربة مريرة يشقى بها الإنسان ولا يستفيد بها بالرغم من آلامها .. ولا يضيف منها إلى خبرته بالحياة ما يجنبه تكرار الأخطاء .. والوقوع فى نفس الشراك الخادعة .. بإذن الله .

القلب الخالى !

انا شابة فى التاسعة والعشرين من عمرى .. نشأت فى أسرة طيبة متدينة بين أبوين متفاهمين وشقيقين يصغراننى ، وعشت طفولتى وصباى فى جو عائلى ترفرف عليه ظلال الحب والأمان ، والتحقت بدراستى الجامعية وأنا أحمل أمالى العريضة فى النجاح والسعادة والإلتقاء بمن يخفق له قلبى وارتبط به وأكمل معه رحلة الحياة ، فمضت سنوات الجامعة دون أن يلفت نظرى أحد من زملائى ودون أن أقترب من أحد أو يقترب منى أحد ، وحصلت على شهادتى ، وبدأت أتطلع لبدء حياتى العملية ، ونجحت بعد فترة قصيرة من الانتظار فى العمل كمدرسة بمدرسة ابتدائية راقية ، وسعدت بهذا العمل الذى يلائم طبيعتى ويشبع حبى للأطفال ، وراودنى مرة أخرى حلم الالتقاء بفارس الأحلام الذى يشغل قلبى الخالى ، وتأملت زملائى بالمدرسة .. فلم يستوقف أحد منهم اهتمامى ، ومن وجدته منهم يصلح للارتباط به كان مرتبطا بالفعل أو على وشك الارتباط فتأجل حلمى السعيد مرة أخرى ، وبدأت أمى تشعر بالقلق تجاهى بعد بلوغى سن الخامسة والعشرين وبدأت تحث قريباتها على ترشيحى لشاب ملائم من شباب العائلة ، وتتحدث معى فى هذا الأمر بلا حرج وكأننا صديقتان أو زميلتان بالكلية ولسنا أما وابنتها .. وتقول لى أنها تتمنى لى فلانا ابن فلانة ، وتفتعل المناسبات لزيارة أسرته وتصر على اصطحابى معها إليها ، وتهتم بزينتى وملابسى قبل الزيارة وترقبنى بحب وإعجاب فى المرآة ، وهى تمصمص شفتيها وتقول : جميلة .. وطيبة وربة بيت

ممتازة .. فكيف عمي عنك العرسان حتى الآن ؟!

وكنت أشعـر بالخجل من الموقف وبالاشفاق عليـها واتمنى ان يضع الله فى طريقى من يعـفـيهـا من هذا القلق على مـسـتقـبلى ، ثم نقـوم بالزيارة الموعـودة ، فتظل أمى طوالـها تدير الحـديث عن شطارتى فى البيت ومحافظـتى على الصيام والصلاة ، وذكائى .. وجمـالى ، فيخفق قلبى لها بالعطف والرثاء ، وفى طريق العودة اعاتبـها على إسرافها فى الحديث عنى كأنما تعرضنى بطريقة مكشوفة على الآخرين ، واقول لها إننى لا أرضى لها بأن تهـين نفسها مـن أجلى ، فتجيـبنى بأنه لا عيب فى أن تسعى إلى سـتر ابنتها وأن السـيدة خديجة رضى الله عنـها قد عرضت نفسها على سيد الخلق أجمعيـن ورجته لنفسها ، فماذا يمنعها هى من أن ترجـو لى من تراه جديرا بإسـعاد قلبى وقلبـها ، فـلا املك حين أسمع منها ذلك إلا أن يفـيض قلبى لها بالحب والامتنان ، ومضت حياتنا على هذا النحو ولا شاغل لأمى سـوى تزويجى ومتابعة دراسة شقيـقىَّ الصغيرين ورعـاية أبى الذى لا يتحفظ فى إعلان حـبه فى كل حين لأبنائه وزوجته .. ويقـول لنا فى كل مناسبة أنه يحبنا ويحب امنا ويدين لها بالـفضل فى إسعاده ورعاية أبنائه واسـرته وفى هذا الجو العائلى الجـميل عشت أيام حـياتى .. ولولا انشغـال أمى بالقلق بشان زواجى لما وجـدت شيـئا أشكو منه ، وبسـبب هذا القلق وحده رحـبت برجل فى الرابعة والاربعـين من عمره حـين تقدم على استحـياء لأبى طالبـا يدى وعرضت على أمى الأمـر من باب العلم بالشىء ليس أكثر وصارحتنى بعدم قبـولها له لانه أرمل ويكبرنى بـ ١٥ عاما ولديه ولد وبنت من زوجـته الـراحلة ، لكنى فاجـات أمى بقـبـولى له وحمـاسى للزواج منه ! وكـان هذا الرجل من أقـارب الأسـرة البـعيـدين ويعـمل محاسبا ، وكنت أعرف قصة زوجـته التى رحلت عن الحياة قبل عامين بالمرض اللعـين ، وأتعاطف معـه على البعـد ، وحين ناقشـتنى امى فى قبولى لهذا الزواج قلت لها بنفس الصراحة التى تحدثنى بها دائما أننى قد بلغت السابعة والعشرين من الـعمر ، ولم يتقدم لى إنسـان مناسب ، وكان كل من تقدموا لى إما غير جاهزين للزواج وإما مطلقين لزوجاتهم

ولديهم أبناء ، والعمر يتقدم بى ونحن أسرة محدودة الصلات الاجتماعية ولا جاه لنا يغرى بنا الآخرين ، كما إننى لست « ماهرة » فى اجتذاب اهتمام الشبان إلىّ فإذا لم يكن هناك بديل آخر فإننى أفضل « الأرمل » على المطلق لأنه لم يختر لنفسه هذه النهاية لعلاقة الزواج .

ونجحت بعد جهد جهيد فى إقناع أمى بقبول هذا العريس ، ووافق أبى هو الآخر بعد مجهود كبير من أمى ، فتقدم الرجل لخطبتى ، وما أن وضع خاتم الخطبة فى إصبعى حتى انفجر ينبوع الحب والحرمان فى قلبى تجاهه كالطوفان ، وذهل الرجل لهذا الحب المكتوم وسعد به كثيرا ، وكذلك سعدت أمى وأبى وفاض الطوفان فشمل طفليه الصغيرين منذ رأيتهما لأول مرة ووجدت فيهما طفلين خائفين حائرين.

وتمت خطوات الزواج بغير عناء ، ولم يتشدد أبى مع خطيبى فى أية مطالب مادية ، ولم يحدث أى خلاف بيننا سوى خلاف بسيط حول حفل الزواج ، فلقد أصر خطيبى على ألا يقيم فرحا لزواجه بسبب ظروفه العائلية ومراعاة لمشاعر أسرة زوجته الراحلة ، وتمسكت أمى بأن من حقها أن تفرح بابنتها الوحيدة ، وأن تقام لى حفلة زفاف بسيطة ، واشتد الخلاف حتى كاد يفسد الارتباط كله ففوجئت أمى بى أتنازل عن هذا الشرط ، وأقبل بعشاء صغير لعشرة أشخاص فى أحد الفنادق الكبرى .. وحزنت أمى لذلك لكنى هونت عليها الأمر ولم أخف عنها إننى قد أحببت خطيبى ولا أريد أن أفقده لمثل هذا الأمر ، وإننى أيضا قد أحببت الطفلين وخاصة الطفلة الصغرى الجميلة ولا أريد أن أصدمهما بالتخلى عنهما بعد أن أصبحا يتصلان بى كل يوم .

وانتهى الخلاف بسلام وقدم لى خطيبى خاتما ثمينا عوضا لى عن حفل الزفاف وتم عقد قرانى فى بيت الأسرة ، واجهدت أمى نفسها فى الزغاريد والتعبير عن السعادة حتى طفرت عينى بالدمع حبا لها وأنا أجلس بالفستان الأبيض إلى جوار عريسى وإلى يمينى طفلة زوجى الصغيرة تلتصق بى وبين قدمى يجلس طفله الآخر.. وفى المساء

تناولنا العشاء فى أحد الفنادق واصطحبنى زوجى إلى مسكن الزوجية الذى لم يتغير فيه شىء سوى تجديد غرفة النوم وطلاء الجدران .

ومضت ليلة الزفاف بسلام .. لكنى لاحظت فى الأيام التالية أن زوجى مشغول البال وليس سعيدا بى كسعادتى به ، وحاولت أن أعرف منه أسباب انشغاله فلم يجبنى بشىء يشفى غليلى ، وشكوت لأمى ما ألاحظه عليه من قلق وشرود وفتور ، فنصحتنى بالصبر عليه حتى يتعود على هذا التغيير الجديد فى حياته .. وقالت لى أنه ربما قد تذكر زوجته الراحلة وتجددت أحزانه عليها ، وكان المفروض أن نقضى الأسبوعين الأولين من زواجنا وحدنا فى الشقة وأن نخرج كل مساء إلى المسرح أو السينما أو زيارة الأهل ، ولهذا أودع زوجى الطفلين لدى جدتهما لأمهما ليتفرغ لى ، فتصورت أنه ربما يكون قد افتقد أولاده أو يشعر بالاشفاق عليهما لبعدهما عنه فطلبت منه إعادتهما إلى البيت بعد الأسبوع الأول ، وألححت عليه فى ذلك حتى استجاب ورجع الأبناء واستقبلتهما استقبالا حارا .

لكن زوجى بالرغم من ذلك لم يتخلص من شروده وانشغال خاطره بل ازداد حزنه الغامض وفتور روحه ، ثم فوجئت به بعد يومين يصطحبنى إلى طبيب لأمراض النساء والولادة ويعرضنى عليه بغير أن أشكو من شىء أو أطلب العلاج من شىء ، وفوجئت بالطبيب يحيلنى للمستشفى ويجرى علىّ بعض الفحوص والأشعات ثم يدخلنى بعد ذلك غرفة العمليات استعدادا لاجراء جراحة !

وسألت زوجى عما يجرى فإذا به يقول لى باضطراب وخجل أنه قد لاحظ منذ ليلة الزفاف وجود ورم لدى بجوار الرحم ، وأنه قد لاحظه أو تشكك فيه رغم أنه محاسب وليس طبيبا لسابق تجربته مع زوجته الراحلة التى كانت تشكو من ورم مماثل وخاض معها رحلة الفحص والعلاج الطويلة من قبل ، وأنه قد أسر بشكوكه لنفس الطبيب الذى كان يعالج زوجته الأولى فطلب منه عرضها عليه ، وأسفر الفحص عن وجود الورم بالفعل لكنه ورم ليفى وليس خبيثا والحمد لله ، غير أنه لابد من استئصاله على الفور .. واستسلمت لإرادة الله ودخلت غرفة

الجـراحة ، وأفـقت من البنج فوجـدت أمى وأبى وشقـيقى بجـوارى .. وخرجت من المستشفى إلى البيت وتماثلت للشـفاء ، لكن شيئا جوهريا كان قد تغير فى روح زوجى تجاهى ، ولم تفلح محاولاتى معه لإعادته إلى طبيعـته السابقة .. فلقد ابتـعد عنى تماما بعقله وأفكاره ومـشاعره وبدأ يتعامل مـعى بتحفظ وبرود ويضيق بتوددى إليـه ورغبتى فى أن أشعـر بحبـه وحنانه ، وتألمت لذلك كثـيرا ، وحـاولت أن أفهم أسـباب ابتعـاده وجفائه ، وبكيت طالبـة منه أن يعفينى مـن هذا القلق الغامض الذى أعانيه منذ تزوجنا ، وتردد هو بعض الوقت ثم قال لى إن مخاوفه قـد تجددت حـين لاحظ ذلك الورم عندى ، وأكـدها لى الطبـيب ، وأنه يشعـر بأنه « موعود » بالـعذاب مع زوجة أخـرى سوف تمرض نفس المرض اللعين ويعيش معها رحلة العذاب التى عاشها مع زوجته الراحلة لحظة بلحظة حتى فـارقت الحياة بين يديه ، وأنه لا يعـرف إذا كان من الأفضل لنا أن نستمر فى حياتنا معا مع ما ينطوى هو عليه من شكوك ومخـاوف تجاهـى أم أنه من الأفضل لنا أن ننفـصل بسلام وقـبل أن يتعلق كل منا بالآخر أكثر من ذى قبل ويبحث عن حظه فى طريق آخر!

وبكيت بالدمع الغزير وأنا أطلب منه ألا يتـخلى عنى ويهدم أحلامى وهو الرجل الوحيد الذى أحببتـه ، وطلبت منه أن يسأل الأطباء عما إذا كان لمخـاوفه هذه أى أســاس من الصحة قـبل أن يظلمنى ويشـقينى ، وقال لى أن الطبيب قد أكد له أنه ليس هناك ما يشير إلى احتمال تجدد هذا الورم أو تحوله فيما بعـد إلى ورم خبيث لكنه لا يستطيع رغم ذلك أن يبعد عن ذهنه هذا الاحتمال ، ولا صورة زوجته الراحلة وهى تعانى من ذلك المرض اللعين فى مراحله الأخيرة المؤلمة .

وانتهت جلسة المصـارحة بيننا بغير نتيجة حـاسمة ، وظل هو على فـتوره وشـروده وظللت أنا على حـيرتى وقلقى .. وذات يوم قـال لى أننى لن أسـتطيع الإنجـاب بعد الجـراحـة وأن الطبـيب لم ينف له هذا الاحتمال فقلت له إنـنى سأكتفى بطفليه اللذين أحبهمـا وأشعر بسعادة الدنيا حين ينادينى أحدهما بالكلمة الحبيبة « ماما » .. لكنه لم يهدأ رغم ذلك ولم يسترح، وحين اشتد بى الهم والحيرة صارحت أمى بما أعانيه

وحزنتْ كثيرا من أجلى ولكنها « بجـرأتها » المعهودة تحدثـت معه فى الأمر طويلا وذكرته بإيمانه بربه وقالت له كل ما يمكن أن يقال فى هذا الشـأن ، وزادت على ذلك أن قـالـت له إنه حـتى لو حـدث لا قـدر الله ما يـخشى منه ، فلن تدعـه يتحـمل عناء مرحلة العـلاج والمرض وإنما سوف « تسترد » ابنتها منه وترعـاها وسوف ينفق أبوها على علاجها من مرضـها .. وغضب زوجى من إشـارة أمى إلى أعبـاء العلاج المادية غضبا شديدا حتى كان يرتجف من الانفـعال أمامها وقال لها بأدب إنه لم يكن يقصد ذلك فى حديثه عن معاناته مع المرض وإنما يقصد المعاناة النفـسيـة ونظرة التشـاؤم التى ظللت حيـاته ويريد أن يخرج منـها .. ومازال زوجى شاردا وحزينا ومبتعدا عنى يا سيدى .

وهو إنسان طيب وشهم ومحبوب من أفراد أسرته وأصدقائه ، وكل من حولى من أفراد أسـرته يطالبوننى بالصبر عليـه إلى أن يتغلب على هواجسـه وشكوكه واكتـئابه .. ولقد صبـرت حتى مضت شـهور على زواجنا وهو مـازال عـلى نفس الحـال .. وأشـعـر أنه يكاد يـطلب منى العـودة إلى بيت أمى ، لكنه يخـجل من مصـارحـتى .. وأنا أحس بذلك وأتألم ويشـحـب لون وجهى ويهـزل جسمى .. وهو لا يرق ولا يـترفق بى .. إننى أحبـه يا سيدى ولا أريد مفـارقته .. ولا أستطيع الاسـتغناء عنه ولا عن الطفلين اللذين اعتبرهمـا من أولادى ، ولا أعرف ماذا أفعل لكى أبدد مخاوف زوجى من احتمال اصابتى بالمرض الذى أودى بحياة زوجته الأولى .. وشعرت بالمهانة والذل أكثر من مرة وأنا أطلب منه أن يعـرضنى على « كـونصلتو » من الأطبـاء ليـعرف منهـم اننى سليمـة واحتمال اصابتى بالمرض كاحتمال اصابة أى شخص آخر به .

ثم تطور المـوقف بيننـا فجـأة ودعتنى أمى لقـضاء ليلة بين أفـراد أسرتى واستأذنت زوجى فى ذلك ففوجئت به يقول لى ساهما إنه ربما كـان من الأفـضل أن أقـضى بعض الوقت مع أسـرتى .. لعل كـلا منا يراجع نفـسه خلال هذه الفـترة ويقـرر ما يصنع بحيـاته .. وفى هذه اللحظة شعـرت بالرثاء لنفسى والحزن وغـادرت بيتى حزينة دامـعة .. وقـبلت الطفلين ورفضت أن يوصـلنى زوجى إلى بيت أسرتى وركبت

سيارة أجرة إليه ومعى حقيبة ملابس صغيرة، ومنذ ذلك الحين قبل أسبوعين وأنا مقيمة ببيت أسرتى .. لا يربطنى بزوجى سوى الاتصال التليفونى وخاصة من جانب الأطفال حتى بعد انتقالهم لبيت جدتهم .. وزوجى لا يزورنى فى بيت أسرتى ولا يدعونى للعودة .. ولا يجيب على تساؤلاتى عن المستقبل سوى بهمهمة غير مفهومة ولا توضح مقصده .. إن أمى تقترح على العودة للبيت وتبرر لى ذلك بأن زوجى حائر ومتردد ولن يحسم أمره قبل فترة طويلة وأن وجودى إلى جواره سيساعده على اختيارى بدلا من التخلى عنى وأنا أريد العودة إليه .. وإلى الأطفال الذين افتقدهم بشدة لكن هل أعود إليه بلا دعوة منه لكى « أورطه » فى الاستمرار معى وهو لا يريد ذلك ، إننى أريد منه أن يريدنى كما أريده وليس أن نعيش معا حرجا من إيلامى أو إيذائى بالطلاق .. وهذا لن يتحقق إلا إذا تخلص من مخاوفه وهواجسه .. فهل تكتب إليه كلمة تناقش فيها موقفه منى ومن هذه المخاوف والهواجس ، إنه يقرأ لك ويتأثر بآرائك وقد قال لى إنه قد كتب إليك عقب رحيل زوجته وأنك رددت عليه برسالة شخصية تواسيه وتخفف عنه .. وتدعوه لأن يتماسك لكى يستطيع أداء رسالته مع طفليه ، كما نصحته بأن يتزوج ليجد أما بديلة لأطفاله .. فهل تكتب له كلمة ثانية ترجوه فيها ألا يحرمنى منه ومن الحب الوحيد الذى نبض به قلبى .. ومن الأطفال الصغار الذين أحبهم ويحبوننى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لو كانت أقدار الإنسان بيده لما اختار أحد لنفسه المرض أو التعاسة أو فراق الأعزاء .. لكننا نعرف جميعا أن أقدارنا ليست فى النهاية رهينة بإرادتنا الحرة وحدها ، وإننا لا نختار لأنفسنا ما تشاء الحكمة الإلهية التى تجل عن الإفهام أن تمتحننا به من محن الحياة ونعرف أيضا أننا لا نملك إزاءها إلا أن نهتف صامتين بما هتف به من قبل نبى الله داوود عليه السلام حين قال : لله الحكمة .. ولنا الألم !

ولأن الأمر كـذلك فليس علينا إلا القبول بما اخـتارته لنا الإرادة الإلهـية وأن نحـاول التخـفيف من خـسائرنا النفـسيـة والمعنوية بالتـواؤم مع ظروفنا .. والتـمـاس العـزاء فى الجـوانب الأخـرى المضيئة من حياتنا .

والواضح يا سيدتى هو أن زوجك لم يقبل بعـد بما امتحنته به الإرادة الإلهية فى محنة مرض زوجته ورحيلها عن الحياة يرحمها الله .. وأنه مازال أسير نظرته التشاؤمـية للحياة التى أورثته إياها هذه المحنة ، ثم شـاءت له أقـداره وأقدارك مـعـه أن يواجه شـبح الخـوف من تكرار نفس المحنة معـك فاضطربت أفكاره ومـشاعـره واستـسلم للتشاؤم فـاثر كل ذلك على حسن تقـديره للأمور وعلى تجاوبه مع حياته الجديدة وشريكته فيها .

إن كل إنسان فى الوجـود لا يخلو من الخوف من المرض بنسب متفاوتة ، بل لعله الخوف الوحيـد فى منظومة المخاوف الإنسانية الذى يشتـرك فيه كل البشـر بلا استثناء ، وعلى حين قـد تتخلص القلة من البشـر من خوفها الإنسـانى الدائم من الموت فتسـعى إليه إراديا أو تقدم على الانتحار ، فـإن أحدا لا يسـعى إلى المرض أبدا بإرادته أو يرجوه لنفـسه أو لأعزائه أو حتى لأعدائه وخـصومه .. ومع أن الأصل فى المخاوف المـرضية هو أن تنحـصر فى مـخاوف الإنســان الذاتيـة من المرض أساسـا ثم تتـدرج إلى مـخاوفـه على أعزائه ، فإنها فى حالة زوجك لا تخالف كثيرا هذه القاعدة لأنه فى الحقـيقـة إنما يشفق على نفـسه هو من أن يعايـش تجربة المرض الأليمة لشريكـة الحياة التى عايشها من قبل ، وقـد ساعدته نظرته التشاؤمية التى أكسبته إياها المحنة السابقة على الميل لتوقع أسوأ الاحتـمالات بدلا من الأمل فى أفضلهـا ، ويبدو أن تجربته السـابقة مع الألم قد طبـعت روحه بطابع تشاؤمى لـم تنجح الأيام بعد فى مـحـوه أو إزالته عنـها ، لكن الأمـل قائم وكـبـيـر رغم ذلك فى أن يتـخلص من هذه الروح التشـاؤميـة ويقـتنع تدريجيـا بانه ليس « مـستـهدفـا » من الأقدار بحـيث تخـصه وحـده من دون البشـر أجمعين بتكرار نفس المحنة مرتين .

ولابد له من أن يعين نفسه على الشفاء من هذه المخاوف المرضية بالحوار المنطقى مع النفس وبالتسليم بإرادة الله ، وأن يؤمن مع الجميع بأنه لا أحد يستطيع أن يضمن الصحة أو يؤكد لغيره أنها ستظل على ما يرام إلى نهاية الرحلة ، لكن ذلك لا يمنعنا من أن نحيا حياتنا ونتفاءل بالغد ونأمل فى أرحم الراحمين سبحانه وتعالى أن تكون رحلتنا فى الحياة رحلة آمنة هادئة محتملة الآلام، ولو أمعن زوجك النظر فيما واجهه فى حياته من اختبارات لأدرك أن الله سبحانه وتعالى لم يؤخر عنه جوائز الصابرين والمبتلين ، بل سارع إليه بها .. لكنه يكاد بقنوط روحه أن يرفضها أو يبددها من بين يديه فلقد بدله بزوجته الراحلة يرحمها الله ، زوجة محبة فاض عليه ينبوع حبها المحروم فغمره وغمر طفليه المحرومين معه ، وقبلت بأن تتنازل عن حقها المشروع فى الاحتفال بزواجها كما تحتفل به كل فتاة فى مثل ظروفها ، تمسكا به وأملا فيه كما تنازلت عن حقها فى اختيار أثاث عشها الصغير وقبلت بأن تبدأ حياتها الزوجية فى نفس المسكن الذى شهد ذكريات الزوجة الأولى وارتبط بها ، وبادرت باستعادة أطفال زوجها بعد أسبوع واحد من زواجها لتسترضيه وتدخل البهجة إلى قلبه وتحملت بعد ذلك فتوره وشروده وبعده عنها .. ثم وجدت نفسها أخيرا « تُحاكَم » على شىء عجيب ومؤلم لم تجنه يداها وهو أنها قد تكرر محنة المرض الذى أودى بحياة الزوجة السابقة .. وبالرغم من أن مجرد الإشارة إلى هذا الأمر تجرح المشاعر والأحاسيس جرحا غائرا ، فلقد طُرح الموضوع للبحث معها وكان من يناقشونه لا يتحدثون عن زوجة لها كرامتها الإنسانية وأحاسيسها التى تتأذى أبلغ الأذى لمجرد استشعارها تخوف زوجها من أن تمرض فى المستقبل ويشاركها محنة مرضها ، ثم بلغت المأساة قمتها ووالدتك تعرض عليه أن تعفيه ـ إذا حل القضاء ـ لا قدر الله ـ من تحمل تبعات المحنة ومعايشتها فما هذا الهوان يا سيدتى ؟

وكـيف تقـبلين على نفـسك وأنت الحـرة الأبيـة أن تطلبى منه عرضك علـى « كونصلتو » مـن الأطباء ليؤكـدوا له « براءتك » من شبـهة المرض فى المسـتقبل بالداء اللعين أو بغـيره من الأدواء ؟.. إننا نحترم الحب الطاهر البرىء الذى يدفع شـابة جميلة مثلك لأن تحـرص على اسـترضـاء زوجـهـا بكل الطرق المشـروعـة .. لكننا لا نقبل فى نفس الوقت لأحد أن يمتـهن نفسه على هذا النحو المؤلم دفـاعـا عن هذا الحب ، ولا نرضـى لأحـد بهـذا الإحـسـاس الذليل « بالدونية » تجـاه شريك الحياة أو تجاه أى إنسـان فى الوجود ، فلكل إنسان كرامته الإنسانية فى النهاية مهما كان وضعه وقدره ، ومن حقه بل ومن واجبه تجاه نفسه ألا يفرط فى هذه الكرامة التى غـرسـهـا الله فيـه حين نفخ فـى روح الإنسان من ذاته العليـة جل شانه .

إن تحليل والدتك لشخـصية زوجك سليم إلى حد كـبير .. لكنى لا أرى لك رغم ذلك أن ترجعى إليه على غير إرادته ، أو بغير دعوة صريحة بل وحـارة من جانبه بهدف أن يكـون وجودك إلى جواره عـاملا ضـاغطا عليـه يرجح كفـة الاسـتـمـرار بدلا من الانفصـال ، وأفـضل لك أن يحـسـم هو اختـيـاره لك أو للاسـتـسـلام لمخاوفـه المرضيـة ونظرته التشاؤميـة بعيدا عن مؤثرات الحـرج الإنسانى منك وأنت تقيـمين فى الجـوار . وليس يعنى ذلك أن تنقطع صلتك به أو أن يحل الجفاء والخصام بينكما خـلال فترة حسم الاختيار ، ذلك أن هذه القطيعة نفسها قد تصبح عاملا آخر من عوامل الضغط عليه قد توجه اختياره إلى ما لا يريده فى أعماق نفسه ، وإنما أرى لك أن تستمر صلتك الإنسانية به عن طريق التليفون ، وعن طريق زياراته لك فى بيت أسرتك مع استمرار صلتك بطفليه كذلك إلى أن يحسم هو مخاوفه وشكوكـه منفردا وبملء إرادته الحرة واقتناعه ثم يأتى إليك طالبـا عودتك إليه وتبدآن معا الصـفحة الحـقيقيـة الأولى فى حياتـكما الزوجية .. فإذا حـدث ذلك خلال فترة مـقبولة وتخلص من كل هواجسـه ومخاوفه تجـاهك فلقد كسبت سـعادتك

واعـتزازك باخـتـيار زوجـك الحر لك وتمسكه بـك ، أما إذا مـضت الأمور فى الاتجاه الآخر وهو احتمـال ضعيف فى تقديرى ، فيكيفك أنك قد حاولت بإخـلاص استعادة زوجك دون التفـريط فى كرامتك ودون اسـتــجدائه العــودة إليكَ ، أو توريطه فى ذلـك ولسـوف تواجهين الحـياة بعد ذلك مزودة بخـبرة ثمينة اضافـتها إليك هذه التجربة المؤلمة فى حياتك كما أن خسـائرك فيها لن تكون مضاعفة بالانجاب والإشفاق على أطفالك من التمزق بين أبويهما .. ولسوف تعوضك الحياة عن هذه التجربة التعيسة بخير منها بإذن الله .

فليـحسـم إذن زوجك أمره وأمـر هواجـسه المرضـيـة ونظرته التـشاؤمـيـة للحـيـاة بغـير تدخـل منك بعـد أن بذلت أنت كـل ما تستطيع زوجة فى مثل ظروفك أن تبذله للحفاظ على زوجها .. وليستعن هو بمن يشاء الاستعانه بهم من الأطباء المتخصصين أو الاستـشاريين النفسـيين فى حسم مخـاوفه وموقـفه منك ، ولتكن عودته إليك حين يعود بإذن الله ليـست لأن الأطباء قد أكدوا له أنك لن تصـابى بالمرض الـلعـين بإذن الله وإنما لأنه قـد راجع نفـسـه وتبين له خطأ مـوقفه منك ولا انسانيتـه وامتحن مشـاعره تجاهك بعـد انقشـاع سحـابة المخاوف التى تضـل النظر وتفسـد التفكيـر فاكتـشف عمق مشاعـره تجاهك وعمق حبك له ولأطفـاله .. وعمق حب هؤلاء الأطفـال لك ، فجـاء إليك سـاعيـا وراجـيا ألا تحـرميـه وتحـرمـيهم منـك .. وألا تحرمى نفسك أيضـا من السـعـادة التى تستحقينها فى ظلال هذه الأسرة الصغيرة .. وليتذكر زوجك خلال فـترة المراجـعـة والحـوار المنطقى الهـادىء مع النفس ذلك الدرس القديم الذى يتعلمـه التعساء دائما بعـد فوات الأوان ، والذى أشار إليـه المفكر الفرنسى مـونتسـكيو حـين قال إنه ليس هناك إنسـان لم يعبر الحظ السعـيد ببابه ذات يوم ، لكن قليلين منا للأسف هم الذين يدركون فى الوقت المناسب حقـيقته ، ويتمسكون بفـرصتهم معـه ويفوزون بالسعـادة والأمان قبل أن يغـادر بابهم يائسا إلى شخص آخر .

شجاعة الحياة !

أرجو أن أجد لديك مكانا « أصرخ » فيه كما يصرخ الآخرون وتسمع لهم لأنني « أصرخ » هنا وحدى فى الغربة ولا أجد من يسمعنى ، فأنا سيدة عمرى ٢٦ عاما ، وقد بدأت مشكلتى عقب وفاة والدى ، فلقد كانت لأبى شخصية قوية وجبروت ، ولم يكن أحد من اخوتى ـ وهم ستة من الذكور يكبروننى جميعا ـ يجرؤ على مناقشته فى أمر من الأمور ، أو الاعتراض على شىء وكذلك كانت أمى معه ، إلى أن تزوج أخوتى الذكور جميعا ، وبقيت وحدى مع أمى وأبى ، ثم رحل أبى عن الدنيا ووجدت أمى نفسها فى مواجهة الحياة لأول مرة ، وخلال هذه الفترة ظهر فى حياتى شاب حاصل على مؤهل عال ويعمل بوظيفة مناسبة ، فأحببته وأحبنى وتعاهدنا على الزواج وتقدم لخطبتى فانقسم اخوتى الرجال بين معترض وموافق ، والمعترض لا يذكر أسباب اعتراضه سوى بالقول إن هذا الشاب أفاك وكاذب ويخدعنى ويستغلنى ويريد أن يتزوج « على الجاهز » ومن يوافق لا يبرر موافقته سوى بأن هذا هو اختيارى وأننى وحدى الذى أتحمل مسئوليته ، فكان فى صف الرافضين أربعة من إخوتى وكان فى جانب الموافقين اثنان فقط ، وكنت أنا صغيرة السن وأحب هذا الشاب حبا يعمينى ويصم آذانى عن كل شىء ، ولا ألمس فيه ما يؤيد اعتراض المعترضين عليه فتزوجته ، وخاصمنى لذلك أخوتى الأربعة الرافضون وقاطعوا زواجى ، ووقف معى فى زواجى اثنان من اخوتى فقط ليس اقتناعا باختيارى وإنما حرصا منهم على عدم تركى وحيدة فى زواجى

وبدأت حياتى الزوجية معه ، فإذا بى أجد فيه ومنذ الأيام الأولى إنسانا قاسـيا وغليظا وشـديد الكسل والاتكاليـة ولا يريد أن يتعب نفـسه فى شىء ، فضلا عن أنه متقوقع حول ذاته ولا يعنيه من الحياة سوى أمر نفسـه ، فإذا صـحا من النوم وشـعر ببـعض الصداع ، فإنـه لا يغادر الفراش ولا يذهب إلى العـمل ويريد أن يقول له ألف إنسان سـلامتك ، كما أنه أيضـا نكدى للغاية ولا تعرف الابتسـامة طريقها إلى شفـتيه ، وبعد زواجى مـنه بشهر واحـد حصلت على عـقد عمـل بإحدى الدول العربية وحـصل زوجى على إجازة بدون مرتب من عمله وسـافر معى كمرافق على مضض منه فاسـتطعت أنا أن أثبت جدارتى وامتيازى فى عـملى ، أما هـو فلم يستطع الـعمل ليس لانعـدام الفـرص ، وإنما لأنه لا يريد أن يتعلم أى شـىء ولا أن يكافح أو يتحمل شيئا ، وإنما يريد أن يعمل « مـديرا » يجلس إلى مكتب فى الصبـاح لعدة سـاعات ثم يرجع للبيت فى الظهـر ويتقاضى مرتبا كـبيرا ، وكلما اسـتطعت الحصول له على فـرصة عـمل عن طريق زميـلاتى ذهب إلى العـمل ثم رجع يسب رؤساءه ويقـول إنهم لا يفهـمون شيـئا ولا يقـدرونه وتضيع فـرصة العـمل ، وكنت فى البـداية أصـدق كل مـا يقوله إلى أن سـألت إحـدى زميلاتى توسط زوجها له فى إحدى المرات فأخبرتنى برأى زوجها فيه وهو أنه ليس متـحمسـا للعمل ولا مجـتهدا مـثلى ، وكانت النتيـجة أن مضى عـامان حتى الآن وأنـا أعمل فى الغربة وهو يجلـس فى البيت ، ولو توقف الأمـر عند هذا الحد لهـان ولما شكوت منه ، لكن المشكلة هى أنه يسىء معاملتى دائما ويضربنى ويهيننى ويشك فى سلوكى مع أنى - يعلم الله - أحفظ نفسى فى السر والعلن ، كما يريد أيضا أن يستولى على كل مرتبى مقابل أن يعطينى مصروفـا شهريا للنثريات فقط ، وقد رفضت ذلك وخـيرته بين أن يعمل هنا أو نرجع مـعا إلى مصر ليـعمل بوظيفته وأجلس أنا فى البيت كغيرى من الزوجات ، فرفض ذلك بشدة وأقسـم على يمين الطلاق وكـانت أزمة شـديدة بيننا تدخل الأصـدقاء لإنهائها ثم عرف بالمصادفة أننى أرسلت لأمى مبلغـا صغيرا كهدية لها بمناسبة عيد الأم الأخير فـغضب لذلك غضبا شديدا وضربنى وأهاننى

واقسم على مرة اخرى بيمين الطلاق إن لم أعطه كل مرتبى ليتولى هو الإنفاق على البيت .

والآن يا سـيـدى فلقد مـضى عـامـان ونحن على هذا الحـال ، هو ينهض من نومه عند الظهـر ولا عمل له إلا مشاهدة التليـفزيون وقراءة الصحـيفة والتنكيـد علىّ باستمرار ، فـهل من الممكن أن تتحول عـلاقة رجل بزوجتـه إلى علاقة مـادية فقط ؟ إننى الآن اتذكر كل مـا قاله لى عنه أخوتى الأربعة وأبكى دمعا ودما على سنتين من عمرى ضاعتا فى العناء والمعاناة ، وزوجى يستمـتع بالكسل والفراغ وأنا أشقى وأعمل ، ولو كانت هذه هى مشكلتى وحدها لما شكوت ، فالحمد لله الذى أعطانى الصحة للعمل والكفاح . لكن المشكة الحقـيقية فى أنه لا يعاملنى معاملة طيبة ولا يضـحك فى وجهى أبدا ، فهل من العدل أن أعـمل وأشقى فى الغربة ثم أضـرب وأهان فى النهاية ويقسم على زوجى بيـمين الطلاق عند كل خلاف ؟

إننى أريد أن أتركـه لكن مـاذا أفعل واخـوتى الأربعـة يقاطعـوننى بسببـه والشقيقـان الآخران ليس عندهما وقت لمشاكلـى ، وأمى سيدة مسنـة ولا تستطيع أن تقف مـعى وحدها فى مـسألة مـهمـة كمـسألة الطلاق ؟

لقد تعبت من العمل وأريد الراحة من الأشغال الشاقة التى أمارسها هنا فى الغربة ، كما أريد أن أسعد بحياتى ، حيث لم أعد أستطيع تحمل الإهانات والضرب وسـوء المعاملة ، وفى بعض الأحـيان تلح على فكرة الانفصال عنه وفى أحيان أخرى أقول لنفسى « إن ظل رجل أفضل من ظل حائط » لكن كـيف استطيع مواصلة الحيـاة مع زوج لا أراجعه فى شىء إلا وأقـسم على بالطـلاق ، إننى اسـألك المشـورة هل تنصـحنى بالاسـتمـرار والتحـمل أم تنصحنى بالانـفصـال عنه ، مع العلم بأننى لو فعلت ذلك فلن يكون لى الحق فى الحصول على شىء لأن كل شىء باسمه ، حيث إنه « الرجل » كما قـال لى ، كما أننى لن أجد أيضا مكانا أذهب إليه بعـد زواج كل أشقائى ولأن أمى تعيش الآن مع أخى الأكبر وزوجته وأولاده .

فاشر علىَّ بما افعل يا سيدى .. وقل لزوجى كلمة تنصحه فيها بالا يقسم على بيمين الطلاق مرة أخرى وأنا لا أحد لى سواه وليست عندى الشجاعة لمواجهة الحياة وحدى ومواجهة لوم الجميع لى على اقترانى بمثل هذا الإنسان ، إننى أريد من يصرخ فى وجه زوجى ويقول له إن ما يفعله خطأ وحرام ولا يرضى الله ، وأريد من يكون لى بمثابة الأب فيأخذ لى حقى من هذا الإنسان الذى أهدر كرامتى وإنسانيتى ، فلعل كلماتك تكون هى البلسم الذى يفك طلاسم زوجى وتوقظ ضميره ونخوة الرجولة فيه ليعاملنى معاملة الإسلام ، ويخشى الله فىَّ ويضحك فى وجهى ويتوقف عن هذا النكد معى « آمين يا رب العالمين».

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا يعدل ضعف الإنسان فى بعض الأحيان إلا عناده وقصر نظره وتعاميه عن رؤية ما يراه الجميع واضحا كالشمس فى كبد السماء .. فيما عداه .

يا سيدتى الشابة المعذبة المهانة كل أخوتك الرجال وليس « معظمهم » كما تقولين اعترضوا على ارتباطك بهذا الشاب ولمسوا فيه خداعه لك ونيته الظاهرة لاستغلالك واستغلال ظروفك الافضل من اللحظة الأولى واشفقوا عليك من الوقوع فى براثنه منذ البداية وتمادى اربعة منهم فى الرفض والاستنكار إلى حد القطيعة التامة لك ولزواجك تمسكا بموقفهم ، ومن لم يقاطعك منهم لم يؤيد اختيارك علانية ولم يزكه وإنما أشفق عليك فقط من الزواج وحيدة بلا أهل ولك العصبة من الأخوة الرجال ولعلهما لم يفعلا ذلك إلا بالإلحاح العاطفى عليهما من جانب أمك إرضاء لها وليس لك، فلا ترين رغم كل ذلك وجه الحكمة فى اعتراض ستة من الرجال الراشدين بلغوا كلهم من العمر انضجه ، وتنساقين وراء هوى نفسك وحده وأنت صغيرة السن وعديمة الخبرة بالحياة والرجال وبغير مراجعة للنفس ولا محاولة للاستفادة من آراء من حولك ؟

يا إلهى .. ماذا كنت تنتظرين إذن وقد ضربت عرض الحائط

بخبرة السنين ، وصلات الرحم ، وصوت العقل ، إلا أن تنكشف لك التجربة عن سوء الاختيار من الوهلة الأولى ؟ إن اختيار الإنسان هو أصدق شهادة عليه وعلى رؤيته للحياة ، واختيارك لزوجك هذا فى وجه الاجماع العائلى على رفضه والتشكك فى نياته تجاهه ، لا يكشف إلا عن الاندفاع والتسرع وعدم الاحتفاء بآراء الآخرين حتى ولو كانوا احرص الناس عليك .. وقديما قال الشاعر العربى :

قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلا على المرء اختياره

فهل يكون غريبا أن تثبت لك الأيام بأسرع مما ظننت خطا هذا الاختيار ؟ ثم ما هذا الضعف المهين الذى ينحدر إلى مستوى ذل العبودية الذى تتعاملين به مع زوجك ، وما من شىء يجبرك على احتمال الهوان منه إلا ذلك « الخائن الصغير » .. الذى ينطوى عليه صدرك ومازال ينبض له بالحب ، رغم ما تلقينه منه من هوان ؟

إنك لم تنجبى منه أطفالا يربطون بينك وبينه برباط أبدى .. وليس لديك ما يدفعك لاحتمال الهوان من زوج كسول يعيش عالة عليك ويصادر كل ما تكسبين بكدك وعرقك ويكتب كل ممتلكاتكما باسمه لأنه « الرجل » كما يقول ، ثم لا يكتفى بكل ذلك بل ويسومك أيضا سوء العذاب بالضرب والإهانة والتهديد بالطلاق والنكد الأزلى المقيم فى كل لحظة .

فماذا يدعوك إذن لاحتمال هذا العناء ؟

إنك للأسف يا سيدتى لا تملكين « شجاعة الحياة » .. وشجاعة الاعتراف بالخطا .. والإقدام على تصحيحه ، ولو تحملت فى سبيل ذلك أبسط التبعات ... وهو لوم الجميع لك على سوء الاختيار ، وكل مبرراتك للاستمرار فى هذا الهوان ليست مبررات جادة ولا حقيقية وليست سوى خداع آخر للنفس لحملها على الاستمرار فى هذه الحياة استجابة لنداء ذلك « الخائن الصغير » بين حنايا الضلوع ، فانت لست فى النهاية بلا أهل حتى ولو كان أربعة من اشقائك قد قاطعوك استنكارا لعنادك ورفضك الاستماع لنصيحتهم ، وهؤلاء الأخوة الأربعة هم أول من يبادرون إلى

نجدتك إذا امتلكت أنت شجاعة الاعتراف بالخطا وشجاعة الاعتذار لهم عن تعاميك السابق عن مشورتهم الأمينة لك ، ثم طلبت بعد ذلك نجدتهم وتحملت لومهم ، وهو ضريبة هينة لن يكون اداؤها أشد مضاضة عليك من تحمل الهوان كل يوم مع من لا يحفظ عليك كرامتك وإنسانيتك حتى فى الغربة .

أما أنه لا بيت لك تلجئين إليه إذا انتهى أمرك مع زوجك بالانفصال ، فهذه حيلة نفسية أخرى تبررين بها لنفسك هذا الميل « المازوكى » لديك للقبول بتجرع الإهانة والضرب والاستغلال من زوجك ، ففضلا عن أن بيت الأسرة القديم مازال قائما كما فهمت من سطور رسالتك ، وفضلا أيضا عن أنه ما أسهل أن ترجع إليك والدتك لتقيم معك وهى التى لم تغادره إلا حين أصبحت وحيدة تماما بعد زواجك وسفرك ، فلن يضيق بك أحد بيوت أشقائك الستة لفترة مؤقتة تدبرين فيها أمرك وتكتسبين فيها بعض الجرأة على مواجهة الحياة إذا أردت الانفصال عن زوجك .

وليس معنى كلامى هذا أنه لا حل لمشكلتك مع زوجك الآن سوى الانفصال ، وإنما معناه فقط هو أن الإنسان إذا قدر أسوأ العواقب.. واستعد نفسيا لمواجهتها فإن تسليمه باسوأ الاحتمالات هذا سوف يحرر طاقته النفسية من الخوف الذى يشل إرادته ، ويمنعه من اتخاذ ما يراه عادلا وضروريا فى حياته من خطوات .

فإذا تحررت بينك وبين نفسك من هذا العجز النفسى الذى يصور لك الانفصال عن زوجك وكانه نهاية الكون ، فلسوف تتحرر طاقتك النفسية وإرادتك وتتعاملين مع زوجك المعاملة العادلة التى لا تقبل الهوان ولا تجترىء فى الوقت نفسه على الآخرين .

وقديما قال أحد الحكماء : لو لم تكونوا وعولا لما استباحتكم السباع الضارية .

ومع إنى لا أؤمن بسياسة المناطحة بين الزوجين إلا أننى لا أقبل أيضا أن يستبيح أحد الزوجين حقوق الآخر وكرامته وإنسانيته اعتمادا على حبه له أو اعتمادا على ضعفه معه وقلة

حيلته وعجزه عن إيجاد البديل الكريم لحياته معه .

أما قوامة الرجل على المرأة فهى ليست حقا إلهيا مطلقا بلا حدود ولا قيود ، وإنما هى قوامة مشروطة بنهوض الرجل بمسئولياته المادية والأدبية والإنسانية عن زوجته ، فمن عجب إذن أن تتحول أسباب الضعف فى موقف زوجك بالنسبة إليك وهو الذى يعيش فى كنفك ومن عائد عرقك وكدك إلى أسباب « للقوة » معك والافتراء عليك ، فإذا تجاوزنا حتى عن تأثيرات مركب النقص الذى يشعر به عادة الرجل فى مثل هذا الوضع تجاه زوجته ، وتداعيات ذلك من محاولته لافتعال القوة والصرامة فى معاملتها أحيانا لتعويض إحساسه العميق بالضعف والنقص تجاهها وهو يرى حياة الأسرة تدور حول محور آخر غير محوره ، أقول إننا حتى إذا تجاوزنا عن ذلك وتفهمناه فإنه لا يبرر له أبدا الاستيلاء على كل دخلك ولا إهانتك وضربك وتهديدك بالطلاق فى كل حين ، والحق أنك لو واجهته مرة واحدة بتقبلك لاحتمال الطلاق والاستعداد النفسى للقبول له لنزعت منه هذا السلاح الوهمى الذى يهددك به وهو أعلم الناس بانه لن يستخدمه أبدا معك . وبان احتياجه إليك أكبر من احتياجك إليه ولسوف يقاتل حتى الرمق الأخير ، لكيلا تتحررى من إساره .

يا سيدتى بادرى باتخاذ الخطوة الأولى لتصحيح ما سلف من اخطائك وهى استعادة صلتك العائلية باشقائك المغاضبين لك ، واعتذرى لهم جميعا عن سابق موقفك منهم ولا تطلبى منهم الآن التدخل بينك وبين زوجك ، وإنما فقط لا تحرمى نفسك من هذا السند العائلى المتين كاحتياطى استراتيجى ضرورى ومهم فى اختبارات الحياة المختلفة ولسوف تتغير موازين القوى تلقائيا فى علاقتك بزوجك حين يتبين له بالتدريج إنك لست ـ كما تقولين ـ بلا سند فى الحياة سواه ، وإنما لك من أخوتك وأهلك أيضا ما تعتز به كل أخت مثلك من تأييد أشقائها واستعدادهم لحمايتها والدفاع عنها ضد السباع الضارية .

أما زوجك فلن أناشده ولن أستثير فيه نخوة الرجولة ولا صحوة الضمير ، وإنما سوف أقول له فقط ما قاله استاذنا الراحل مصطفى صادق الرافعي فى كتابه الجميل السحاب الأحمر :

« لم يخلق الله أحدا مكروها قط ، وإنما نبغض الناس من الصور التى يحدثوننا ، فعملك هو شخصك الحقيقى » .

فلا يعتمدن طويلا على ما يتصوره من تمكن حبه من قلبك ، واستعدادك اللانهائى للتمسك به وعدم التفريط فيه ، فنبع الحب سريع الجفاف إذا اسرفنا نحن فى نزح مائه دون أن نمد إليه من جانب آخر روافد العطف والحنان والعدل والعطاء والحرص على الطرف الآخر .. ولا يلومن أحدا إلا نفسه إذا تمادى فى « إحداث الصور » التى تجفف ينابيع الحب فى قلوب من كانوا يتيهون به على العالمين .. ولن يندم أحد سواه فى النهاية إذا قدم هو كل يوم لأخوتك الدليل تلو الدليل على صدق حكمهم عليه من البداية ثم افاق ذات يوم فلم يجدك إلى جواره .. وشكرا .

النظرات اللائمة !

أنا رجل فى الخمسين من عمرى أعطتنى الحياة وأخذت منى .. بدأت رحلتى مع الحياة حين توفى أبى تاركا خلفه أسرتين هما أمى وأنا وحيدها ، وزوجة أبى الأخرى وأربعة أخوة غير أشقاء ، وكانت لأمى السطوة فى حياة أبى لأنها من أسرة عريقة ، فكاد ذلك يؤدى إلى انفرادها بمعظم الميراث دون زوجة أبى وأخوتى ، لولا أن تصدى لها رجل من أسرة أبى وأصر على أن يقسم ميراث أبى حسب الشرع فنالت زوجة أبى وأبناؤها حقوقهم ، وانخفض بذلك نصيبنا من الميراث إلى أدنى حد ممكن فاسخط ذلك أمى على كل أفراد أسرة أبى وعلى ذلك الرجل على وجه الخصوص ، وقاطعت الأسرة كلها واتجهت بى إلى عالم أسرتها ، فنشأت بينهم لا أعرف سواهم ، ولا أكاد أعرف أحدا من أسرة أبى ، ولا أسمع عنهم إلا ما يبغضنى فيهم وفى هذا الرجل الذى وقف ضد أمى ، وظل الحال على هذا النحو حتى تخرجت فى كليتى العسكرية وتزوجت بدون أن يشهد زواجى أحد من أسرة أبى الذين لم ندعهم للحضور والمشاركة ، وكانت والدتى تذكرنى من حين لآخر بهذا الرجل الذى ضيع « حقوقنا » وجعل أسرة أبى تقاطعنا وفرق بينى وبين أخوتى ولم يكتف بذلك بل راح يساعدهم فى حياتهم ليصبحوا أفضل منى ! فعشنا وأمى وزوجتى منعزلين عن أسرة أبى ، وحين مرضت أمى مرضها الأخير رفضت أن يعودها أحد منهم وأوصتنى بألا يشارك أحدهم فى وداعها الأخير ، ورحلت أمى - يرحمها الله ويغفر لها - عن الحياة ، وخلت الدنيا بعدها إلا من

زوجتى التى عايشت موقفنا من عائلة أبى ومن ابنتى الوحيدة التى رزقت بها وأصبحت محور حياتنا ، وتفرغت لعملى وحياتى وابنتى وراقبتها وهى تكبر وتتقدم من مرحلة إلى مرحلة من العمر حتى استوت آية فى الخلق والجمال .. ولأنها كانت تعتبرنى وأمها صديقين لها فقد كانت تفتح قلبها وعقلها لنا باستمرار وتحدثنا عن كل شىء فى حياتها وعن زملائها فى كليتها ومن تستريح إليه منهم ومن لا تستريح الخ ، حتى شعرت باهتمامها الخاص بأحد زملائها بالكلية ، وجاء عيد ميلادها فأقمنا لها كعادتنا السنوية حفلا عائليا فى البيت دعت إليه صديقاتها وزملاءها ، وجاء معهم هذا الشاب وقدم نفسه إلى فإذا به يفاجئنى بأنه يعرفنى من قبل جيدا لأنه فلان ابن فلان !

وإذا به أصغر أبناء ذلك الرجل الذى اعتبرته أمى المسئول الأول عن حرمانها مما رأته حقا لها فى ميراث أبى والذى أفسد ما بينها وبين الأسرة ، وفرق بينى وبين أخوتى لأبى ، وشعرت بالضيق والارتباك وكأن مخزون الكراهية الذى تجمع فى أعماقى طوال رحلة السنين يكاد ينفجر فى وجهه ، وهممت بطرده بالفعل من البيت ، لكنى تمالكت نفسى لكيلا أحرج ابنتى بين زملائها ، وانتهى الحفل وأنا فى أسوأ حال ، وانفردت بزوجتى بعده فإذا بى ألمس إعجابها وتعاطفها مع هذا الشاب ، فغضبت لذلك وطلبت منها أن تقنع ابنتى بالبعد عنه وتجنب الإشارة إليه أمامى .. ووعدتنى زوجتى بأن تحاول ذلك .. لكن الشاب لم يخرج من حياتنا بعدها وتردد اسمه أمامى كثيرا على لسان ابنتى المعجبة بأخلاقه ورجولته وكفاحه فى الجمع بين الدراسة والعمل ، بل وعلى لسان زوجتى أيضا ، وكظمت غيظى الشديد من ذلك مؤملا أن يتغير كل شىء حين تتخرج ابنتى فى كليتها ويتفرق زملاء الكلية كل منهم فى طريق ، لكنى فوجئت فى حفل تخرج الابنة وزملائها بهذا الشاب يقترب منى ويطلب منى موعدا لزيارتى فى البيت ، وفوجئت أكثر بإشارات زوجتى لى بألا أرفض ذلك فضربت له موعدا وجاء ليزورنى ويفاتحنى بنيته فى الارتباط بابنتى فلم استطع كبح جماح ثورتى وانفعلت انفعالا صاخبا .. وتوعدته بضياع مستقبله إن هو فكر

فى ذلك ، وخرج الشاب من بيتى طريدا كسير النفس ، وتحملت السخط الصامت من ابنتى على أمل أن تنشغل بعد قليل بحياتها العملية وبمن يتقدمون لطلب يدها .. وتقدم إليها بالفعل أكثر من خاطب فقوبلوا جميعا منها بالرفض وأدركت أن هذا الشاب مازال يقف بينى وبينها فتقصيت أخباره وساعدنى منصبى الكبير على ذلك فعرفت أنه قد عمل بشركة فى المجال نفسه الذى تعمل فيه ابنتى وهو مجال الإرشاد السياحى ، وإن فرص اللقاء لن تكون منعدمة بينهما ، فاتصلت بصاحب الشركة التى يعمل بها سرا وطلبت منه فصل هذا الشاب ، لإبعاده عن ابنتى وضحى به الرجل إكراما لى أو قل لمركزى بالرغم من أنه قد أثنى عليه وعلى أخلاقه وكفاءته .

واتصل أحد زملاء الكلية بى وكنت أعرف إعجابه بابنتى ورغبته فى الارتباط بها فشجعته على التقدم لها وأغريته بأننى سأذلل كل الصعاب أمامه ، ففوجئت بهذا الشاب يسألنى سؤالا محيرا هو : ألا يعتبر ذلك مؤامرة لا إنسانية ضد فلان ؟!

وشعرت أننى محاصر بهذا الشاب وبأصدقائه وزملائه المتعاطفين معه وزاد كرهى له ولاحقته فى أكثر من عمل التحق به ، وتسببت فى فصله أكثر من مرة .. وكلما تقدم لابنتى خاطب آخر رفضته بإصرار ، إلى أن علمت بالصدفة أن هذا الشاب قد قرر السفر إلى فرنسا واللحاق ببعض أقاربه الذين يعملون هناك ولاحظت خلال هذه الفترة انكسار ابنتى واكتئابها وفقدها للحماس للحياة ، وفسرت ذلك بحزنها لانتهاء القصة ، وفى هذه الظروف تقدم إليها خاطب تتوافر فيه كل المقومات ومن أسرة عريقة ففوجئت بها تقبله بلا حماس ، وتم عقد قرانها عليه بالفعل وسافر الشاب إياه إلى فرنسا واختفى من مسرح حياتنا واسترحت لذلك كثيرا ولمست عدم سعادة ابنتى بخطيبها لكنى هونت الأمر على نفسى بأنها لن تلبث أن تندمج فى حياتها الزوجية المقبلة وتسعد بها وتنسى كل شىء آخر ، لكن الأيام مضت وابنتى تزداد هزالا وذبولا إلى أن سقطت غائبة عن الوعى بين أيدينا ذات مرة فهلعنا لما أصابها ، وحملناها إلى الطبيب فلم يقطع بتشخيص محدد وطلب منا

اجراء فحوصات عديدة ، وتنقلنا بها بعد ذلك بين عدد كبير من الأطباء ، فإذا بآخرهم يصدمنا صدمة العمر الهائلة بأن ابنتنا الحبيبة مصابة بورم خبيث في المخ .. ثم يشير علينا بعرضها على أطباء مستشفى متخصص فى فرنسا ، واستسلمنا لأقدارنا مذهولين ، وبدأنا نعد عدتنا للسفر إلى هناك وقبل أن نبدأ الرحلة بأيام فوجئت بآخر ما كنت أتوقعه ونحن فى هذه الظروف المؤلمة .. وهو ورقة طلاق ابنتى ممن كنت أظن أنه سيكون ابنى الذى لم أنجبه من صلبى والذى سوف يقف إلى جوارها ويرعاها معنا فى محنتها الصحية .. وكتمت الخبر عن ابنتى وزفرت هاتفا : حسبى الله ونعم الوكيل ، وأكملنا استعدادنا للسفر ، وأنا وزوجتى كالسكارى نتطوح من الحزن والخوف والذهول ، وكنت قد كلفت صديقا لى يعيش بباريس بأن يؤجر لنا مكانا نقيم فيه هناك ، فاستأجر لنا « ستوديو » صغيرا أى غرفة بمرافقها فى حى بأطراف باريس اسمه « بورت لاشابل » وسافرنا إلى العاصمة الفرنسية مع بداية الصيف الماضى وغادرنا المطار ففوجئنا بالشاب الذى أراد الارتباط بابنتى وعاملته من قبل أسوأ معاملة يقف خارج الدائرة الجمركية فى انتظارنا ، وعرفت أنه قد علم من صديقى بمجيئنا وبما أعده لنا من سكن فى أطراف باريس ، وتقدم منا يرحب بنا فى أدب ويبلغنا بأنه قد حجز لنا مكانا أفضل وأقرب للمستشفى فى الحى السادس عشر وقادنا إليه وأشرف على راحتنا حتى استقررنا فيه ، وغادرنا فى المساء عائدا إلى المكان الذى يعمل ويقيم فيه خارج المدينة ، ثم تفرغ لنا بعد ذلك تاركا عمله وراح يأتى إلينا كل صباح حاملا معه الإفطار ثم يصطحبنا إلى المستشفى ويقضى معنا معظم اليوم ويصطحبنا إلى المزارات المختلفة دون أن يشير أية إشارة إلى ما جرى من قبل بينى وبينه ، أما ابنتى فقد تحسنت حالتها النفسية بعض الشىء لكنى لاحظت أنه يتفادى الانفراد بها أو الحديث معها بشكل شخصى ، كما لاحظت أيضا على ابنتى أنها عاتبة على هذا الشاب عتابا صامتا لأمر لا أعرفه وتمنيت لو عرفته لأجد تفسيرا لنظراتها اللائمة له والتى يتفاداها دائما ، وجاء موعد دخولها

للمستشفى فإذا بابنتى تصارحنى أمامه بأنها قد قبلت بالزواج من الآخر احتجاجا منها على هذا الشاب لأنه قد رفض ما عرضته عليه هى من أن يتزوجها سرا لكى يضعنى أمام الأمر الواقع ، لكنه اشفق عليها من أن يعرضها لهذا الموقف معى ، وأكد لها أنه لا يريدها ولا يقبل بها إلا فى النور وبرضا الجميع ، ثم قرر السفر لفرنسا لهذا السبب !! وادركت فى هذه اللحظة معنى نظراتها اللائمة له وشعرت بالخجل منه وبالاحترام الشديد له ودخلت ابنتى المستشفى وأجريت لها الجراحة المقررة وخرج إلينا الأطباء وعلى وجوههم النتيجة المفجعة وانهرت انا وزوجتى انهيارا كاملا ، وفقدت الاحساس بالمكان والزمان حتى خيل إلى أننى أشاهد أحداث قصة غريبة لست طرفا فيها .. فى حين راح هذا الشاب الذى لم يبك ولم يتهاو على الأرض كأنما قد خلق لمواجهة الشدائد ، يتحرك هنا وهناك ويرتب لعودة الجثمان لمصر .. ويستدين من أصدقائه لتغطية النفقات ويتصل بأهلنا بمصر ليكونوا فى انتظارنا ويحجز لنا أماكن العودة ويقوم عنا بكل شىء ثم يرجع معنا على نفس الطائرة لاجد فى مطار القاهرة زحاما من الأهل الذين اتصل بهم ونسوا سنوات القطيعة والجفاء وجاءوا لاستقبالنا وشد أزرنا والتخفيف عنا ، والقيام عنا بكل شىء .

ومضت الامور فى طريقها المرسوم .. ولم يكن يخفف عنى وزوجتى بعض ما يعتصرنا من ألم سوى وجود هذا الشاب معنا ، وسوى ما أحسسنا به من صدق تعاطف هؤلاء الأهل وصدق مشاركتهم لنا فى مصابنا . وتوالت الأيام بعد ذلك ثقيلة وحزينة ، ورحت ذات يوم اقلب أوراق ابنتى لاجمع تذكاراتها واحتفظ بها فوجدتنى اقرأ ما كتبته عن احلامها للمستقبل مع هذا الشاب وكيف يحلمان بأن يعملا معا فى مجال الإرشاد السياحى ويتزوجا ويتمتعا بالحب والحياة واعتصر الألم قلبى لما حرمتها منه بموقفى من هذا الشاب ، وقتلت نفسى لوما وتعذيبا وتمنيت لو كنت قد حققت لها احلامها الموءودة هذه ، وجاء هذا الشاب لزيارتى فوجدتنى اعترف له بكل ما فعلته معه وتسببت له فيه من متاعب فى جهات عمله ، وأطلب

منه أن يسامحني فيما فعلت ، فأكد لي ذلك ثم استأذنني في الانقطاع عن زيارتي لأنه سيسافر إلى قريته ويقضي بها بعض الوقت وصافحته مودعا وشاكرا وعلمت من بعض الأهل أنه قد اعتذر عن عدم العودة لعمله السابق كمرشد سياحي ومضت أسابيع لم يتصل بي خلالها ، وفي ثالث أيام عيد الأضحى الماضي شعرت برغبة قوية في زيارة مثوى ابنتي الأخير . فتوجهت إليه ففوجئت بهذا الشاب يجلس أمامه واجما وعاتبته لانقطاعه عني خلال الفترة الماضية وأنا من أعتبره الآن ابني الذي عوضني الله به عن فقيدتي ، كما لمته على زهده في العمل وجلوسه في قريته بلا عمل فبكى لأول مرة أمامي منذ وقعت الواقعة وقال لي أنه فقد ثقته في الحياة ولم يعد يستطيع جمع شتات نفسه ، ولا يقدر الآن على ممارسة عمل المرشد السياحي الذي يتطلب منه أن يكون حاضر الذهن وبشوشا ومبتسما في وجوه السياح ، ووجدتني أنا الذي فقد وحيدته وكل حياته أخفف عنه وأطالبه بالتجلد ثم أصررت على أن يصحبني إلى البيت وجاء معي وقضى معنا بعض الوقت ثم ودعني شاكرا ومعتذرا عن عدم قبول أي مساعدة من جانبي له في العودة لعمله ، واختفى منذ ذلك اليوم عني ولم أعد أراه ، ولقد سمعت أن يفكر في استكمال دراساته العليا في الكلية ، كما سمعت أيضا أنه قد استخرج جواز سفر بحريا ويفكر في العمل بالبحر .

ولأنني قد فقدت الاتصال به منذ ذلك الحين فلقد فكرت في أن اتصل به من خلالك ، وأن أرجوك أن تكتب إليه مناشدا إياه أن يتقبل أمر الله وأن يصفح بقلب صاف عما فعلت معه ، وأن يرجع لزيارتي من حين لآخر لأنني أرى في وجهه ملامح صورة ابنتي الغائبة وأتسمع في حديثه صدى حديثها معي ، كما أرجو أن تشجعه على استكمال دراسته العليا واستعادة رغبته في العمل وحبذا لو استطعت عن طريق قرائك مساعدته في العمل بالبحر كما يفكر ، وحبذا أيضا لو دعوته لمقابلتك وتفرغت له ساعة من وقتك لتخفف عنه وتشد من أزره وتعيد إليه إيمانه بالحياة فالحق إنني لم أعد أملك له شيئا الآن لكنك تملك له أنت الكثير ، أما آخر رجائي لك فهو أن تبلغه أنني قد تعلمت منه - رغم

صغر سنه ـ كيف يكون الرجال وأنه رجل حقيقى يفخر به أى أب وأى صهر ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

قد يعلمنا الأبناء أحـيانا بعض ما غـاب عنا وظننا نحن بغرور العمـر أنه لا يغيب . والحق أن هذا الشاب النبـيل لم يعلمك وحدك كيف يكون الرجـال ، وإنما علمنا نحن أيضا ذلك ، كمـا علمنا كذلك كيف يكون حب الرجـال شريفا وأمـينا .. وعفيـفا .. ومتعـاليا عن أهواء النفس وأكثر حرصا على صـالح الطرف الآخر وكرامته حتى من نفسه !

فلا عجب إذن فى أن يـكون هـذا الشـاب الأمين من سـلالة ذلك الرجل العـادل الـذى أصر على تقسـيم ميراث أبيـك بـالحق والعدل بين زوجـتيـه وابنائه حـتى ولو أسـخط عليـه بعض من لم يكن يرضيـهم ذلك ، ولا شك فى أن للعوامـل الوراثية أثرها فى انتـقال بعض الفضائل والسمات النفسية والخلقية من جيل لآخر ، فإن لم يكن ذلك بفضل هذه العـوامل الوراثية وحدها ، فـعلى الأقل بفضل التنشئـة الأخلاقية والقـيم المثالية التى تسـود البيئة العـائلية لمن يتسـمون بهذه المثـاليات والأخلاقـيات ، حتى لقـد حار بعض بنى أمية فى تفسير شدة خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز فى الحق والعدل ولو أسـخط عليه ذلك ذوى قربـاه ، فلم يجدوا تفسـيرا له سوى انتـسابه من جهة الأم إلى الخلـيفة العادل عـمر بن الخطاب فسخطوا على ابن الخطاب على بعد المدى كمـا سخطوا على حفيده العادل الذى أصر على رد المظالم من أموال بنى أمية ، والتزم العدل بين الرعية .

ولو تأملت يا سيدى ما جرى بين هذا الشاب الأمين وبين ابنتك الراحلة يرحمها الله ، للاحظت تشابها واضـحا فى السمات النفسية والأخلاقية بين الأب وابنه حين يتـصل الأمر بما يؤمن أحدهما أنه الحـق والعدل ، فلـقـد تصـدى الأب لرغبة والـدتك فى الاستئثار

بمعظم الميراث دون غيرها من الورثة ، وتحمل راضيا سخطها عليه ومقاطعتها له وللأسرة ، وتصدى الابن - مع اختلاف الظروف - لرغبة ابنتك المحبة في الارتباط به سرا لوضعك أمام الأمر الواقع ، وتحمل غضبها عليه راضيا أو كارها لأنه رأى فى موقفه أنه على حق فى ألا يعرض فتاته لما يكرهه لها حتى ولو أغضبها ذلك ، وهذه هى الشجاعة النفسية التى تملى على صاحبها تحمل تبعات ما يؤمن بانه الحق ولو لم يرض عنه أحب الناس إليه .. فاما كرهك لهذا الشاب حين ظهر فى أفق حياة ابنتك بعد كل هذه السنين فلقد كان أيضا امتدادا لمخزون الكراهية الذى أودعته والدتك فى صدرك تجاه أسرة أبيك وتجاه هذا الرجل العادل على وجه الخصوص . ولقد عاهدت نفسى بعد أن قرأت رسالتك هذه وتاثرت بفجيعتك المؤلمة فى ابنتك الوحيدة ، ألا يجرى قلمى باية كلمة لوم أو عتاب لك على سابق موقفك من رغبة ابنتك فى هذا الشاب ، أو موقفك السابق منه ، ليس لأننى لا أرى فيهما ما يستوجب اللوم وإنما لأن من آلام الحياة ما يعفى من يكابدها من كل لوم أو عتاب على سابق مواقفه ورؤاه . ولأنك أيضا قد عدلت عن موقفك السابق من هذا الشاب حتى من قبل أن تتردد فى الأفق انغام الرحيل الحزينة ، فعرفت له فضله وشهامته وأكبرت فيه رجولته وتعففه عن الاستجابة لنداء العاطفة وحده إشفاقا على ابنتك من غضبك عليها وإشفاقا عليك أنت من معاناة هذه المحنة المؤلمة لك كاب وكانما قد استشف بإلهام قدرى غريب أن الأقدار الحزينة تدخر لك حزنا كبيرا يعلو فوق كل الأحزان وأشفق من أن يتعجلها ويضاعف منها قبل حلول الأوان !

فإذا كنت يا سيدى قد احترقت بلسع الألم والندم وأنت تقرأ فى أوراق ابنتك القديمة عن أحلامها فى الارتباط بهذا الشاب وتمنيت لو كنت قد حققتها لها فى الوقت المناسب ، فلقد شعرت فى ذلك بما يشعر به الإنسان دائما بعد رحيل الأحباء وما يتمناه مما لو كان قد استطاع أن يحقق لهم كل ما أرادوا لأنفسهم قبل أن تنطوى

صفحتهم القصيرة من كتاب الأيام ، ولكي يرحلوا إلى السماء سعداء غير محرومين ، أما الرحيل فلم يكن ليتاخر لحظة عن موعده المقدور وما كان لأحد من سلطان عليه ، فخفف عن نفسك يا سيدى ما تشعر به من ألم لذلك ، وثق من أن ابنتك لم يغب عنها رغم احزانها أنك ما فعلت ما فعلت إلا طلبا لمصلحتها كما تصورتها أنت ، وثق أيضا انها قد لمست تغير موقفك تجاه هذا الشاب خلال رحلة العلاج المريرة في فرنسا وأدركت قبولك له وإعجابك به وباخلاقياته ، ورضيت عن ذلك كثيرا فإذا كانت قصتها معه لم تشهد ختامها السعيد فلأن الأقدار كانت أسبق إليها منك ومما أردته لها من سعادة ولأن الحياة للأسف لا ترد إلينا الأحباء لكي نحقق لهم ما تعلمنا بدرس الألم أن نسلم لهم به بعد فوات الأوان.. وقديماً قال المتنبى :

أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه   فما طلبي منها حبيبا ترده !

ولأن الأمر كذلك فلا عجب أيضا في أن تجد بعض العزاء فى قرب هذا الشاب الذى أحبته ابنتك منك وفى مشاعرك الأبوية تجاهه .. وبعد أن كنت تلاحقه بالأذى فى كل عمل يلتحق به ، أصبح يحزنك الآن زهده فى العمل وفقده للإيمان بالحياة ، واستسلامه للاكتئاب ، وأصبحت ترجو له صادقا أن يستعيد ثقته فى الحياة وإقباله عليها وحماسه للعمل ، كما ترجو له أن يواصل دراساته العليا ، ويحقق رغبته فى العمل بالبحر . والحق أن هذا الشاب يستحق ذلك منك وأكثر .. فهو ممن عناهم الأديب الراحل مصطفى صادق الرافعى حين تحدث عن أنواع البشر فقال إن منهم من تنقص بهم الأحزان .. ومنهم من تتم بهم الأحزان ! ولا شك أن هذا الشاب ممن تنقص بهم الأحزان ولا تزيد وأرجو أن يتفضل بزيارتى مساء الاثنين القادم لأتعرف به وأتحدث إليه وأسمع منه.. وأرجو الله أن يوفقنى إلى ما فيه خيره وصلاح أمره .. بإذن الله .

ألعاب الخريف !

أنا زوجة وأم لثلاثة أبناء .. وزوجى رجل أعمال محترم طيب وكريم ويحبنى ويشهد له الجميع بحسن أخلاقه وتدينه ، وقد عشنا معاً حياة جميلة هادئة كنت له خلالها نعم الزوجة المخلصة المحبة لزوجها التى تصونه فى ماله وعرضه وبيته وكان هو كذلك بالنسبة لى. ومنذ عامين رجع إلى زوجى و ألقى أمامى قنبلة شديدة الانفجار هى أن فتاة رائعة الجمال فى عمر ابنته قد ذهبت إليه فى مكتبه فى أمر خاص بالعمل ، وبعد عدة لقاءات معها فى المكتب جرى بينهما ما جرى، وانه سوف يتزوجها ليصلح خطأه لأنه رجل يخاف الله ولا يتحمل تأنيب الضمير ، وسوف يحضرها لتقيم بيننا وصعقت لما قاله لى زوجى ، وانهرت باكية وطلبت منه الطلاق فى هدوء فرفض بإصرار وأكد لى أنه يحبنى ولا يستطيع الاستغناء عنى أو عن أبنائنا لكنه لا يستطيع أيضا تحمل تأنيب الضمير ، ولهذا فهو يريد أن يصحح خطأه أمام ربه ونواصل حياتنا معا كما كانت قبل هذه السحابة العابرة. وكان فى هذه الفترة فى غاية الرقة معى ومع الأبناء فأشفقت عليه مما يعانيه ووافقت كارهة على أن يتزوج هذه الفتاة بشرط أن يطلقها على الفور لكى يحفظ لمن لم تحفظ كرامتها ماء وجهها أمام أسرتها ، وكتمت آلامى فى صدرى ولم أصارح بها أحدا لكى أحفظ لزوجى صورته وكرامته أمام الآخرين ، وخاصة أمام أبنائه الذين يحبونه ويعتبرونه مثلهم الأعلى . ومضت الأيام وأنا أنتظر أن يبلغنى زوجى بأنه قد فعل ما اتفقنا عليه وأنهى هذه الصفحة من حياتنا

وأسأله كل يوم عما تم فى أمر هذه الفتـاة فيستمهلنى بعض الوقت إلى أن رجع ذات يوم وأبلغنى بأن الفـتاة قد سافـرت إلى أختهـا التى تقيم بإحدى الدول العربيـة لمرض الأخت المفاجىء وحاجتـها لمن ترعاها فى مرضـها بالغربة ، واسـترحت لذلك بعض الشىء لكن قلبـى لم يطمئن إليـه تماما وبعـد أسبـوع آخر أبلغنى أنهـا قد اتصلت به تليـفونيـا من الخارج وأنه قـد سجل هذه المكالمة واسمعنى إياها فـإذا بها تقول فـيها إنها ستستقر فى تلك الدولة العربية وأن زوج شقيقتها سيبحث لها عن عمل هناك . فـاطمأن قلبى إلى أن هذه السـحابة العابرة قـد مضت من سـماء حـيـاتنا بسـلام ، وواصلت الرحلة مع زوجى بالرغم مما كـان يساورنى أحـيانا من قلق بشأنه ورجـعت كما كنت من قـبل لا يهدأ لى بال ، ولا أذوق النوم أو الطعام إلا إذا رجع زوجى إلى بيـته واطمأننت إلى وجوده إلى جوارى ، كما أننى أصبحت أذهـب إليه كثيرا فى مكتبه لأطمئن عليه فى أوقات غـير متوقعة وكلما راقبتـه خفية وجدته هادىء البال لا يعكر صـفوه شىء ، وفسـرت ذلك بأنه قد اسـتراح من العبء الذى كان يقلقـه ، وضاعفت من اهتـمامى به وحرصى عليـه ، ومضى عـام طويل ونحن على هذا الحـال ، وذات يوم رجع إلى زوجى ومعـه شريط تسـجيل قال لى إن الفتـاة إياها قد أرسلته إليـه من الخـارج مع أحـد القادمـين ، واسمـعنى إياه ، فـإذا بها تقـول فـيـه بلهجـة النـدم والإحساس بـالذنب ، إنها لا ترضى بأن تحرم أسرته منه ، وأنهـا لهذا قد تزوجت رجلا طيـبا صارحته بكل مـا جرى وغفر لها وأنها سـعيدة بحياتها معه وسوف تنسى زوجى إلى الأبد وتتركه لأبنائه وبيته .

ولم أملك بعـد أن سمعت هذا الـشريط إلا أن أطلب من الله أن يغـفر لها مـا كان من أمـرها ويبعـدها عن حيـاتى وحياة أسـرتى إلى الأبد ، ومضت بنـا الحياة بعـد ذلك هادئة وسعـيدة غـالبا ، ومن حـين لآخر يساورنى بعض الشك فى تصرفـاته ، وأشعر شعورا مبـهما بأن هناك إمرأة أخرى فى حيـاته ، لكنى أدفع هذا الخاطر الكريه عن ذهنى وأكره نفسى لأننى أظلم زوجى وحبيبى ووالد أبنائى .

إلى أن اتصلت بى إحـدى جـارات زوجى فى العمـارة التى يقع بهـا

مكتبه وهى سيدة فاضلة أحبها واحترمها كثيرا لتتبهنى إلى احتمال أن تكون هناك علاقة بين زوجى وبين سكرتيرته ، وهى فتاة تقيم بمساكن الإيواء بأحد الأحياء الشعبية وأنها تستغله لترتفع بمستواها الاجتماعى ولم احتمل ما سمعت .. وواجهت زوجى به بمجرد عودته ، ففوجئت به يطلق ضحكة عالية ، ويقول لى ساخرا : أهذا ظنك بذوقى ومستواى ؟

بمعنى أنه لا يمكن أن يهتم بمثل هذه الفتاة لأنها دون المستوى من الناحية الجمالية والاجتماعية وكل شيء .

وصدقته بالفعل لأنى أعرف زوجى جيدا ، كما أعرف هذه الفتاة أيضا واعرف أنها فتاة مسكينة كنت أتعامل معها بعطف ، وكانت تحاول كسب ود ابنتى وقد دخلت بيتى وأكلت معى ومع أولادى ، وحاولت أن أصرف ذهنى عن التفكير فى هذا الأمر .

ثم جاءنى زوجى منذ أسابيع ليصدمنى صدمة العمر ويعترف لى بأنه كان متزوجا من سكرتيرته هذه لمدة عامين وبضعة شهور ، وأنها هى الفتاة التى اعترف لى بأنه أخطأ معها ويريد أن يصحح خطأه ، وأنها لم تسافر إلى الدولة العربية ولم تتزوج ، كما أوهمنى ، وأنهما معا قد نسجا قصة سفرها للدولة العربية ، وقصة المكالمة التليفونية المسجلة ، وقصة الشريط الذى زعم لى أنها أرسلته من الخارج ، وأنهما قد خططا معا كل ذلك لكى تهدأ أعصابى وأكف عن زيارته فى المكتب وشكوكى فيه ، وأنه قد تزوجها ليصحح خطأه وهذا هو الجانب الوحيد الصحيح فى القصة كلها ، لكنه قد تخلص منها الآن وطلقها واستراح بعد معاناة دامت عامين وبضعة شهور .

وكدت أفقد عقلى حين عرفت ذلك وشعرت بعمق الإهانة التى أهانها لى زوجى هو وشريكته ، فلقد تلاعبا بى بقسوة وسخرا منى ، ورحت استرجع بعض المواقف السابقة واكتشف مدى سذاجتى وغبائى وسلامة نيتى ، فلقد كنت أشفق على هذه الفتاة وأحسن معاملتها وأسأل عنها حين تمرض فى حين كانت هى لا تطيق رؤيتى ، وتسخر منى فى غيابى أمامه ، كما علمت فيما بعد وبغير أن يرد أحد غيبتى .

أما قمة التلاعب بى فقد كانت حين سافرت مع زوجى لأداء العمرة

فطلبت منى هذه الفتاة أن أحضر لها بعض الملابس الداخلية لأنها على وشك الزواج ففعلت ذلك بكل ترحيب واشتريتها لها وشاركنى زوجى فى اختيارها ، وكنت فى ذلك الوقت أتصور أننى أقوم بعمل طيب لوجه الله فى حين كان زوجى يختار معى ملابس شريكته فى الهزء بى غفر الله له ولا غفر لها .

فهى فتاة بلا أخلاق أعجب كيف رضى زوجى بأن تكون زوجة له لمدة عامين أو أكثر وأعجب أكثر كيف رضى لى بهذه الإهانة وتلاعب بى على هذا النحو ؟

لقد كان يجمع بيننا ويجعلنا نتلاقى وهى زوجة له ، وأنا فى نظرها البلهاء التى لا تدرى بما يدور حولها ، ولست ألومه على زواجه منها فى حد ذاته ليصحح خطأه معها ، لكنى ألومه أكثر على غدره بى وكذبه على طوال هذين العامين ، وعلى « تأليفه » لهذه القصة العجيبة التى حبكها وأوهمنى بها ومازلت أعجب لها كلما تذكرتها .

لقد أقسم لى بأنه لم يحبها يوما واحدا وأنه كان ينتظر بفارغ الصبر خلاصه منها ؟ فهل تصدقه فى ذلك يا سيدى وهى التى دخلت المستشفى لإجراء جراحة الزائدة الدودية فكان إلى جوارها طوال الفترة ، فى حين دخلت أنا المستشفى ، وكذلك ابنته فلم يكن يأتى لزيارة كل منا إلا قليلا .

لقد طلبت منه هذه « الفتاة » أن يسجل فى وثيقة الطلاق أنه لم يدخل بها وأنها مازالت « آنسة » وحين تعجب لذلك « طمأنته » إلى أن الأمر ميسور وأن المغفلين كثيرون هذه الأيام ؟

فهل هذه فتاة يرتبط بها زوجى ويغدر بى من أجلها ؟

إنها مازالت فى نظر أهلها « آنسة » وهى سعيدة بذلك وأنا أكاد أجن وأفقد عقلى ، وقد فقدت احترامى لزوجى وإن كنت لم أفقد حبى له ! وقد دخل الشك قلبى وأصبحت أتشكك فى كل كلمة ينطق بها وفقدت ثقتى بالدنيا كلها وأرجو أن تشير على بما أفعل قبل أن أستسلم نهائيا للجنون وأن تساعدنى على أن أنجو بنفسى وبيتى من هذه الأزمة ، كما أرجو أن توجه كلماتك إلينا نحن الثلاثة أنا وزوجى وهى التى دخلت

بيتى وأكلت فيه خبزا وملحا ، فزوجى يرى أنه مظلوم وأنه كان يعيش معها على غير رضا منه وأنه قد اختارنى وصان حبى وجاء ليقول لى الحقيقة بنفسه ولو كان قد اخفاها للنهاية ما كنت عرفتها للأبد ، وإنه الآن يريد أن يتفرغ لعمله وبيته بغير منغصات أو اضطرابات فماذا افعل يا سيدى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

اخترت لرسالتك عنوان « ألعاب الخريف » لأرمز به إلى تلك المرحلة الحرجة من عمر الرجل التى قد يستشعر فيها بعض الضعف النفسى لانتهاء مرحلة الشباب فيحتاج لأن يؤكد لنفسه أنه مازال نفس الرجل الذى تتعلق به أحلام المرأة وقد يستجيب للإغراء فى ظل هذه الظروف ليس بدافع الحب كما يتوهم أحيانا وإنما بدافع الرغبة الباطنية فى إشعار النفس بأنها مازالت مرغوبة من الجنس الآخر رغم كل شىء .

وبعض البشر فى هذه المرحلة قد يقعون فى الخطا بدافع التعويض النفسى للإحساس المرضى بالعمر وبعضهم بدافع تعويض الحرمان العاطفى الذى يعانون منه فى حياتهم الخاصة ، وبعضهم قد يقعون فى الخطا لغير دافع سوى الرغبة فى خلق الإثارة العاطفية التى تحرك المياه الراكدة وتشيع فيها روح المغامرة ومتعة ممارسة « الجديد » من التجارب ! وبعضهم قد يقعون فيه كذلك بدافع البطر والرغبة فى الاستزادة من متع الحياة كأنما يسالون أنفسهم وقد تحقق لهم كل شىء : وماذا بعد .. أو ماذا بقى من المتع لكى نضيفه إلى ما لدينا منها ؟

وكل ذلك من أحوال هذه المرحلة الحرجة التى يسميها علماء النفس بأزمة منتصف العمر بالنسبة للرجل والمرأة على السواء ، ولا علاقة له بالحب الحقيقى الذى قد يصادفه المرء فى أية مرحلة من عمره فيغير مجرى حياته للأبد ويترك عليها بصمة لا تُمحى .

ولهذا فإنى أصدق زوجك حين يقول لك إنه لم يحب هذه الفتاة يوما واحدا وأنه كان يتطلع بصبر إلى الخلاص منها ومن آثار تجربته معها على حياته العائلية . إذ لو كان قد أحبها بصدق . أو

كانت هى « نصفه الصحيح » الذى ضل الطريق إليه منذ البداية ، لما أنهى تجربته معها دون ضغط من جانبك ، ولواصل حياته المزدوجة معها ومعك إلى أن تنفجر الأزمة على الأقل بل ولربما كان قد فضلها عليك فى لحظة الحسم والاختيار ، وأصر على الارتباط بها إلى النهاية رضيت بذلك أم أبيت !

ولم يفعل زوجك شيئا من ذلك والحمد لله ، وإنما أنهى تجربته بملء إرادته الحرة ودون أى ضغط من ناحيتك وعاد إليك ليصارحك بكل شىء طالبا منك الصفح عما كان ، وكل ذلك يؤكد أنها لم تكن تجربة حب حقيقية فى حياته حتى ولو خيل إليه ذلك فى البداية ، وأن الأمر لا يعد فى النهاية أن يكون ضعفا بشريا عابرا أو إغراء لم يستطع مقاومته من جانب فتاة لا روادع لديها تردها عن الاقتراب من أب وزوج ورجل فى عمر أبيها ! ولقد خاض التجربة معها وتجرع كاسها حتى الثمالة . فكشفت له عن أنه لا شىء فيها يستحق أن يغدر من أجله بشريكة حياته ولا أن يعرض بسببه اسرته وأبناءه للقلاقل والاضطرابات ، ولا أن يعانى هو من التمزق بين امرأتين أو يضطر إلى التحايل لإخفاء سره عن شريكة عمره والآخرين من حوله بمثل هذه الألاعيب التى لا تليق به وبوضعه العائلى والاجتماعى .. لقد عرف بذلك نفسه واختار لها ما يليق بها وهو الاخلاص لك ولأسرته « ومن عرف نفسه فلقد عرف الآخرين وعرف العالم وعرف الله » كما يقول غاندى فإذا كان قد بالغ بعض الشىء فى ألعاب الخريف هذه بما نسجه حوله من قصص درامية وحيل مبتكرة لإيهامك بانقطاع علاقته بتلك الفتاة ، فلقد ضاعف بذلك من حيث لا يدرى من إساءته إليك ومن مراراتك تجاهه ، لأنه بقدر الخداع يكون الحساب والعتاب ، ولأنه لو كان قد سلك الطريق المستقيم الذى بدأه حين صارحك بخطئه مع هذه الفتاة ورغبته فى تصحيحه ثم تزوجها كما أعلنك بذلك لفترة قصيرة وطلقها بعدها وتحمل خلال ذلك شكوكك فيه وملاحقتك له بل وتقريعك أيضا .. لو كان قد فعل ذلك إذن لأعفى نفسه من عناء التحايل والخداع معك ولأعفاك أنت أيضا

ممـا تشعـرين به الآن من مـرارة تجـاهه ولاحتـفظ على الرغم من خطئه مع هذه الفتـاة باحترامك له ، لأنه لم يتنصل من مسئـوليته عن الخطأ وإنما تحمل تبـعته ثم أنهى القـصة كلها نهاية واضـحة بلا التواء .

لكن هكذا شاء أن يعيش تجربته كاملة كما اختارها بنفسه وأن ينهيها فى الوقت الذى رآه ملائما وأن يرجع إليك معترفا بكل شىء دون أن تطلبى منه ذلك .

وهذا وحده هو ما ينبغى أن يدفعك لمراجعـة موقفك معه ! فلقد انهى علاقته بهذه الفتاة بملء إرادته وقبل أن تكتشفى حقيقة أمرها مما يوحى بأن قـراره هـذا نابع من نفـسه وليس اسـتجـابة لأى ضغط خارجى من جانبك أو من جانب أية ظروف أخرى .

ثم صارحك بحقـيقة الأمر كله ، ولو لم يفـعل لربما تأخر علمك به بعض الوقت وليس إلى الأبد كما يتصور ، لأن الأسرار لا يطول تكتمـها حتى النهـاية ، ولأن هذه الفتاة نفـسها لم تكن لتـتردد فى الوقت المناسب فى تهديده بتسريب الخبر إليك عند الضرورة أو إذا لم يكن كريما معها فى شروط الطلاق !

لكنه على أية حال قد اختار أن يكون أمينا معك فى النهاية وأن يعتـرف لك بكل شىء واعتراف المرء بخطئـه لا يعفيـه من تحمل تبعاته من الناحية القانونية لكنه يلتمس له فقط التخفيف عنه !

وعلى ضوء هذا المبدأ فإننى أدعوك إلى تصديق ما يؤكده لك من أن هذه التجـربة قد انتـهت بالفعل من حيـاته وإلى أنه راغب الآن حقا فى الاهتمام بأسرته وعملـه ، فإن كنت لا أعجب كثيرا لتورطه مع هذه الفتاة مع ما نشهده فى الحياة من تجارب فإن عجبى شديد لما تمثله هذه الفتـاة نفسها مـن نموذج غريب لبعض الفتـيات ممن لا يترددن كثـيرا فى الاستجـابة لرجل متزوج وأب لفتـاة فى مثل أعمـارهن بل وأحيانا فـى اغـرائه رغم علمهن من البـداية بحقيـقة أوضـاعه العـائليـة وقد يـجرى ذلك فى بعض الأحيـان فى مناخ لا يخلو من الضـعف الأخلاقى أو الانتهـازية والرغبـة فى اقتناص الفرص على حـساب الأسـرة الآمنة ، ومثل هذه الفـتاة هى الطرف

الفاعل غالبا فى هذا الخطأ لأن الرجل مهما بلغ من قدرة على التأثير والإغراء فإنه لن ينال من الفتاة أبدا ما لا رغبة لها فى أن تمنحه له ولا ما تردها قيمها الأخلاقية عن أن تعطيه للآخرين .
كما أن الرجل حتى لو لم يكن ملتزما من الناحية الأخلاقية فإنه يستطيع بعد سياحة قصيرة فى دنيا العبث والاستهتار أن يسترد نفسه ويواصل حياته العائلية بلا خسائر كبيرة فى بعض الأحيان، أما الفتاة فإنها بعبثها أو استجابتها له لا تهدد فقط أمان أسرة وزوجة وأبناء وإنما تهدد أيضا حياتها هى نفسها وتبعد بنفسها عن الطريق الصحيح لتحقيق السعادة والاستقرار .
ولا عائد لمثل هذه التجربة الطائشة فى حياتها غالبا سوى تأخير فرصها الحقيقية فى الزواج والأمان وربما ضياعها للأبد ، فما معنى هذا العبث إذن . وما معنى مثل هذه المغامرة الطائشة حتى لو اتخذت شكل الزواج المؤقت ؟

على أية حال فإن تجارب الحياة يا سيدتى قد علمتنا ألا نغلق باب الصفح والتسامح فى وجوه الآخرين ، وألا نجلدهم طوال العمر بأخطائهم خاصة إذا أقروا بها ورجعوا عنها ، كما علمتنا أيضا الإعجاب بعبقرية خالد بن الوليد العسكرية وهو الذى كان يحرص عند حصار قوات العدو من كل الجهات على أن يترك له ثغرة فى هذا الحصار يستطيع أن ينسحب منها بعد أن تقع عليه الهزيمة إنسحابا مشرفا يضمد به جراحه ويكون مستعدا بعده للتفاهم حول شروط التسليم ، وكان يتعمد ذلك لكيلا يضطر عدوه حين لا يجد له منفذا للإنسحاب لأن يقاتله قتال اليائسين من النجاة أو قتال من تستوى عنده الحياة والموت ولم يعد لديه ما يحرص عليه ، وهو قتال مدمر دائما حتى ولو انتهى بإبادة العدو ! وهذه الخطة الحكيمة هى ما ينبغى لنا أن نأخذ بها أيضا فى تعاملنا مع الجميع خاصة مع شركاء الحياة ، إذ لابد لنا أن نتيح لهم دائما « ثغرة » يستطيعون عبرها الإنسحاب الكريم من أخطائهم لكيلا يفقدوا الأمل فى أى إصلاح ويدمروا المعبد فوق رؤوس الجميع !

و « الثغرة » التى ينبغى أن تتيحيها لزوجك فى مثل هذه

الظروف هو إعلانك التجاوز من خداعه لك طوال الفترة الماضية مقابل قربان اعترافه لك بالحقيقة ، ثم أن تلجئى بعد ذلك إلى تدعيم ثقته هو نفسه فى قيمه الأخلاقية بتأكيدك له إنه لا يغيب عنك إنه لم يتورط فى الزواج من هذه الفتاة التى لا تلائمه من كل الجوانب إلا لأن أخلاقياته لم تكن لتسمح له بالتنصل من مسئوليته عن الخطأ معها ، وأن من كانت له مثل هذه القيم الأخلاقية والدينية ، إذا كان قد أخطأ ذات مرة فإنه لا يقيم على الخطأ ولا يكرره بعد ذلك أبدا .

ولا عجب فى ذلك فالإنسان كما يقول لنا الأديب والسياسى الإنجليزى لورد تشسترفيلد فى رسائله ونصائحه إلى ابنه : « يميل دائما لأن ينهض بالثقة التى نضعها فيه ، ولأن يتصف بالصفات التى لانفتأ نذكرها مقرونة به .

بل إنه ليلوم نفسه إذا لمس تناقضا فادحا بين ما نتوسمه فيه وما يفعله فى حياته » .

ولهذا فمن الأفضل لنا دائما يا سيدتى أن نستثير فى الآخرين عزمهم على أن يكونوا جديرين برأينا فيهم ، بدلا من أن نشعرهم باليأس من أن ينالوا ذات يوم ثقتنا فيهم فيدفعهم اليأس إلى التمادى فى الخطأ مادامت العواقب واحدة فى كلا الحالين وهى الشك فيهم وعدم الاطمئنان إليهم !

وهذا ما أعنيه دائما بالقول إننا نحتاج إلى أن نثق فى شركاء الحياة ثقة مبصرة وليست عمياء ، فلا نجرحهم بالتشكك الدائم فيهم ، ولا نستنيم إلى اطمئنان الغافلين عما يجرى حولهم فى كل الأحوال .

وهذا هو ما أطالبك به أنت أيضا يا سيدتى .. ولسوف تتخلصين تدريجيا من شكوكك فى زوجك مع تزايد اطمئنانك إلى أنه قد اختار نهائيا الحياة الفاضلة الآمنة ، ولسوف تتخلصين من مرارات الخداع تبعا لذلك . وبدواء الأيام الذى لا دواء لبعض المرارات والآلام سواه !

ثــورة البركــان !

أكـتب إليك لأنى فى حـاجـة لأن أتحـدث مـعـك .. فـأنا طبـيب فى الخـامـسة والأربعـين من العـمـر، تزوجت منذ ١٠ سنوات من فـتـاة تصغرنى بثمانى سنوات، كنت قد التقيت بها بالصدفة عند أحد الأقارب وأعجبت بها ولفت نظرى إليها جمالها الهادىء واتزانها وحديثها المرتب العاقل، وبعد شهـر واحد من تعرفى بها تقدمت لخطبـتها وتمت الخطبة وتزوجتها بعد عـام آخر، ومنذ اليوم الأول لزواجنا عرفت زوجتى عنى أننى لا أحب أن تعـمل زوجـتى ، ولا أفـضل اتسـاع دائرة العـلاقـات الاجتـماعيـة من حولنـا لأنهـا فى نظـرى لاتثمر إلا المـشكلات والقيل والقال، ووافقـتنى زوجتى على رغبتى وحصلت من عـملها على إجازة بدون مرتب بعـد أن انجبنا طفلتين وتفرغت تمامـا لرعايتهمـا، ومضت حياتنا هادئة وجميلة إلى أن بلغت الطفلتان سـن المدرسة، والتحقتا بها، وبدأت مشكلة الفـراغ فى حياة زوجتى فـأنا فى عملى بالمستـشفى فى الصبـاح، وفى عملى بالعـيادة فى المسـاء، والطفلتان تنامـان فى وقت مبكر لتـصحوا لـلمدرسة فى الصـباح الباكـر، ولم يعد هناك مـايشغل فـراغ زوجتى سـوى التليفـون، وبعد الانـتهـاء من أعمـال البيت تبدأ الاتصال بكـل من تعرفهم من أهـل وأصدقاء ومـعارف، وتبـدأ الثرثرة والتدخل فى مشكلات الصديقـات مع أزواجهن، ويستدعى ذلك بالطبع أن تشكو لهـا الصـديقـة .. وأن يتـدخل الزوج أو الخـطيب وتكون هى الحكم بين الطرفين !

ولم أكن أعرف ذلـك بالتفصـيل فى حينه، كـما لم أكن أعـرف أنها

تقوم بهذا الدور لصديقاتها وكان كل مـا أعرفه هو أنها تثرثر كثيراً فى التليفـون مـع مجمـوعة من الأهل والمعـارف، فلا أدقق فى موضـوعات الحـديث، وأثور قليلا كلمـا جاءت فـاتورة التليـفون الباهظة ثم أنسى الأمر بعد بضعة أيام وتمضى الحياة علـى طبيعتها، وكلما ثرت من أجل فاتورة التليـفون والثرثرة الطويـلة فيه كل يوم . قـالت لى زوجتى أنه الشىء الوحـيد الذى يخـفف عنهـا وحدتهـا . فـهى لاتعمل ولا تخـرج وليس لنا جيـران نتزاور معـهم وقد ملت مـشاهدة التليفـزيون وقراءة الكتب .. فماذا تفعل ؟ فلا أجد ما أجيبها به فاسكت على غير اقتناع .

ومضت حياتنا على هذا النحـو إلى أن بدأت ألاحظ منـذ عام تقريبا كثرة المعـاكسات التليفـونية فى منزلى .. وكثرة المرات التى يدق فـيها جرس التليـفون وأرفع السماعـة فلا يجيبنى أحـد، أو أسمع فى بعض الأحيان أغانى عاطفية أو أصواتا غريبة سخيفة، وبدأت أتشكك فى هذه المعـاكسات وأربط بينـها وبين مكـالمات زوجتى الـتليفـونيـة ، وبدأت أواجـهـهـا بذلك فـتـثـور وتقـول لى إنهـا هـى أيـضـا تشكو من هذه المعاكسات .

وبالرغم من أن كثيرين من أصدقائى كانوا يشكون مثلى من ظاهرة المعاكسات هذه إلا أننى نظرت إليـها من منظور آخر، وبدأ الشك يقتلنى أما زوجتى فلم تعبأ بثـورتى وشكوكى ونصحتنى فى هدوء وثقة بأن أضع التليفون تحت المراقبة لكى تتـوصل شرطة مباحث التليفونات إلى مرتكبيها وتضبطهم وتقدمهم للمحاكمة .

فإذا بهذا النصـيحة العابرة تفجر فى داخلى فكرة أخـرى، فقد كنت قد شاهدت فى أحد أسفارى للخارج جهازا لتسجيل المكالمات التليفونية داخل البيت بغير أن يشعر المتحدث فأرسلت إلى أحد أصدقائى المقيمين بالخـارج وطلبت منه إرسال جـهاز مـن هذا النوع على عنوان عيـادتى وتسلمت الجهـاز بالفعل وقمـت بتوصيله سـرا بتليفون البـيت لأعرف كيف وفيـم تتحدث زوجتى خلال غـيابى عنها، وطوال شهـر بعد ذلك رحت أسمع كل مسـاء حصيلة مكالمات اليوم الطويلة ومعظمـها يجرى خلال غيابى، فإذا بها أحاديث فى غاية الاحترام ! ليس فيها مايجرحنى

كرجل أو زوج .. بل إننى فى بعض الأحيان كنت أشعر بالرضا عن تناولها المنطقى العاقل لبعض مشكلات المعارف رجالا كانوا أم نساء .

واسترحت نسبيا لما سمعت لكنى لم اتخلص من إحساسى بعدم الارتياح لمجرد أن تجرى زوجتى كل هذه الأحاديث خلال غيابى عن البيت، وبدأت أثور من جديد عليها لكثرة أحاديثها التليفونية فى غيابى وأكدت لها أن مجرد حديثها مع أحد فى عدم وجودى لايرضينى ولا استطيع قبوله وازداد توترى معها فبدأت أنفعل عليها بشدة وأسمعها فى كل مناقشة حول هذا الامر سيلا من الشتائم فبدأت تقلل من هذه المكالمات كثيرا وبدأت شخصيتها تتغير من البساطة والمرح إلى التجهم والبكاء ونظرات العتاب، إلى ان اشتبكت معها فى جدال عنيف حول هذا الموضوع ذات يوم فبدأت فى إنكار انها كانت تتحدث مع احد فى غيابى من الأصل ! ولم أملك فى ثورتى وشدة انفعالى سوى أن اتهمها بالكذب وأروى لها نص المحادثة التى سمعتها من الجهاز، فانعقد لسانها من الدهشة وسألتنى كيف عرفت بأمرها، فلم اتردد فى ان أكشف لها عن سر جهاز التسجيل .. وانا فى قمة الغضب والانفعال!

وانتظرت أن تمتص زوجتى غضبى وانفعالى كعادتها كل مرة، فإذا بها تنفجر كالبركان غضبا وانفعالا وبكاء .. وتثور على ثورة عنيفة وهى تسألنى كيف اتشكك فى سلوكها بعد كل هذه السنين وانا من يعرفها جيدا ويعرف اخلاقياتها وهى التى لاتخرج من بيتها ولا يزورها أحد الخ .. ثم نهضت وهى فى قمة الانفعال فجمعت ملابسها واشياءها لتغادر البيت فهددتها بأننى لن اسمح لها باصطحاب الطفلتين معها، فلم تعبأ بتهديدى وغادرت البيت إلى بيت أهلها .

وتركتها تخرج من البيت وانا على ثقة بأنها لن تحتمل البعد عن طفلتيها وعنى اكثر من اسبوع فمضى الاسبوع ولم ترجع ولم تتصل بى ولم يأت إلى البيت احد من أهلها للتفاهم معى حول ماحدث . ومنعتنى كبريائى من أن اتصل بها لكننى ارسلت إليها أختى وهى قريبة نفسيا منها فوجدتها فى حالة اكتئاب شديدة ولا تريد أن تقابل احدا

ولم تجد لديها إلا الدموع .. ولم تصارحها بسبب المشكلة كما لم تصارح بها أحدا من أهلها وإن كانت قد منعتهم من الاتصال بى .

ورفضت زوجتى العودة إلى بيتها باصرار ورجعت أختى تنعى إلى فشلها فى إقناعها بالعودة .

أما الطفلتان فلقد نقلتهما إلى رعاية والدتى المسنة التى لا تستطيع رعايتهما ولا تكفان عن البكاء طلبا لأمهما .. وأما أنا فأعيش وحيدا منذ هجرت زوجتى بيت الزوجية وأشعر بالتمزق .. والضياع .. والعجز .. ادخل بيتى فى المساء فأجده مظلما وصامتا كالقبر، فلا أطيق البقاء فيه، واسترجع ما كانت تفعله لى زوجتى فى كل شىء من ترتيب مواعيدى واعمالى إلى اعداد ملابسى وحذائى .. إلى الحنان الدافق الذى كانت تغمر به طفلتيها .. وتغمرنى به فأشعر بغصة مؤلمة .. إننى اعترف لك انها اعظم زوجة واخلص حبيبة واريدها ان تعود إلى زوجها وبيتها وطفلتيها، فإذا كنت لم اذهب إليها حتى الآن فلم يكن ذلك عن استكبار أو مكابرة وإنما تجنبا لأن تتطور الأمور بيننا إلى الأسوأ وتفاديا للاحتكاك بينى وبين والدها خاصة أنه حاد الطبع مثلى .

ولقد ساءت أحوالى النفسية والمعنوية كثيرا خلال الفترة الماضية وازداد شرودى حتى بدأ يؤثر على عملى وحتى أخطأت تشخيص أكثر من حالة فى الفترة الأخيرة مما يهدد مستقبلى .. وإننى أرجوك أن تناشد زوجتى وحبيبتى وأم أطفالى العودة إلى بيتها الذى هجرته، كما أرجوك أيضا أن تتوجه بالنداء إلى هؤلاء العابثين المستهترين الذين يتلهون بآلة التليفون ومعاكسة الزوجات المحصنات والبنات، أن يراعوا الله فى البيوت الآمنة التى يزرعون فيها بذرة الشك ويقوضون أركانها بهذا العبث .. ويشردون أطفالها ويفرقون بين شركاء الحياة وشريكاتهم وليقل لى واحد منهم بشجاعة هل يرضى بأن يفعل أحد نفس هذا الشىء بزوجته أو ابنته أو شقيقته ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من مواقف الحياة ما لا يحتمل التردد طويلا أمامها ولا الإحجام عن مواجهتها وحسمها بغير تهيب للحظاتها العصيبة، وانت ياسيدى تواجه موقفا من هذا الموقف التى لا يجديك فيها الاحجام

عن أن تفعل ما ينبغى عليك فعله مهما كانت المبررات، فلقد أسات الظن بزوجتك وساورتك الشكوك فى صدق اخلاصها لك فاقدمت على خطوة خطيرة هى مراقبة اتصالاتها التليفونية والاستماع إليها خفية، وفى مثل هذه الحالة فإما أن تسفر المراقبة عن تاكيد الظنون، فلا يكون أمام شريك الحياة سوى أن يتصرف على ضوء ذلك متحملا تبعاته .. وإما أن تكشف خطا هذه الظنون فيطمئن قلبه إلى إخلاص من تشاركه الحياة، ويشعر بالخجل من نفسه أن سمح لجنون الغيرة والشك بان يفقده رشده .. وفى هذه الحالة عليه أيضا أن يتعامل مع شريكة الحياة على ضوء هذه الحقيقة .. ويرجع إلى الثقة فيها والاطمئنان إلى تصرفاتها.

ولأن أحدا لايسعده أبدا أن يقول له شريك حياته أنه كان يسىء الظن باخلاقياته إلى الحد الذى دفعه لأن يراقبه سرا حتى تاكدت له براءته فقد يكون من الأوفق لمن تورط فى سوء الظن بشريك حياته إلى حد مراقبته له سرا أن يتكتم عنه فعلته هذه حتى بعد ثبوت براءته لكيلا يثير عليه حفيظته، ويفجر ينابيع المرارة فى قلبه .. إذ ليس أقسى على الإنسان البرىء من أن يكتشف سوء ظن أقرب الناس فيه وهو الذى يعصم نفسه عن الخطا والغواية ويلتزم بالطريق القويم، وعلى عكس من يكون موضعا للشبهات بسلوكه المذبذب والذى قد يسعد كثيرا إذا ما شهد له الأقربون بالالتزام بعد طول المراقبة، فإن الإنسان المستقيم أصلا يشعر بجرح غائر لكرامته وجدارته لمجرد وضعه فى دائرة الظنون التى لا تليق به من الأصل .. ولا تعنيه شهادة المراقب له بانه قد اجتاز «الاختبار» بنجاح وتاكدت جدارته بالثقة، بقدر ما يؤلمه أن يضعه من ينبغى له أن يثق به فى دائرة الشبهات، وإذا غفر لمن أساء الظن به، سوء ظنه فيه بعد بعض الوقت، فإنه قد لا يغفر له بنفس السهولة وضعه إياه تحت المراقبة السرية وانتهاك حرمة خصوصيته، واستخدام أساليب التجسس الكريهة معه .. ليس فقط لما تمثله من عدوان على خصوصيته وإنما أيضا لأنها

تتناقض مع الثقة المفترضة فيه .. ومع ما يرى هو نفسه جديرا به من الاطمئنان إلى مبادئه وأخلاقياته .

ومشكلتك ياسيدى هى انك لم تتصرف مع زوجتك على ضوء إحدى هاتين النتيجتين المتوقعتين لمثل هذا «الاختبار» فلا أنت حسمت ظنك باليقين وتصرفت معها على ضوء ذلك، ولا أنت شعرت بخطأ وضعك لزوجتك تحت المراقبة وصارحتها بذلك واعتذرت لها عنه بحبك لها وغيرتك عليها، ورغبتك فى أن تنقذ نفسك من عذاب الشك الذى افقدك حسن التقدير .

ولو كنت قد فعلت ذلك فى حينه، ولم تواجهها بمراقبتك لها فى سياق الجدال معها حول مكالمة تنكرها، وتثبتها أنت بدليلك المستمد من تسجيلاتك السرية، لما تدهورت الأمور بينك وبينها إلى هذا الحد، ولانحصر لومها لك وغضبها منك فى اقدامك على مراقبتها سرا دون علمها .. ولالتمست أنت لنفسك بعض العذر وليس كله فيما فعلت فى حبك لها وغيرتك عليها، ولظل الأمر كله فى إطار خلاف الحب والغيرة والأسلوب الخاطىء لالتماس اطمئنان القلب، ولما انحدر إلى دائرة خلاف الشك فى الاخلاص، وسوء الظن بشريك الحياة .. ولاستطاع كل منكما ولو بعد فترة طبيعية من التوتر والغضب للإهانة ، أن يتوصل مع شريك حياته إلى صيغة ملائمة تدعم ثقة كلا الطرفين فى الآخر وتجنبه عذاب الشك والحيرة، فتكف زوجتك عن الحديث الطويل فى التليفون فى غيابك عن البيت مهما كانت براءته تجنبا للمشكلات والمتاعب وبعدا عن المظان ، وتكف أنت عن المغالاة فى سوء الظن والشك فى بعض هذه الاتصالات إذا اضطرتها إليه الضرورة الاجتماعية والعائلية، والحق أنها مشكلة شائعة فى عدد كبير من الأسر، وقد تنجم عنها خلافات كبيرة والبداية ، دائما متشابهة .. مكالمات طويلة ومتكررة بالساعات من جانب الزوجة، وضيق من الزوج بهذه المكالمات .. ثم يبدأ سوء الظن بها الذى يتزامن غالبا مع تكرار دق جرس التليفون دون أن يتكلم المتحدث إذا أجاب الزوج أحيانا، والزوجة فى أحيان

أخرى، ومهما اجهدت نفسى فى اختيار ابشع الكلمات فلن أجد تعبيرا يصور عمق خسة مثل هذا السلوك الذى يزرع به بعض العابثين بذور الشك فى نفس أحد الزوجين فى اخلاص الطرف الآخر، فهو أخس الجرائم واحقرها إذ يفسد به مرتكبها سلام أحد الزوجين النفسى واطمئنانه إلى شريك حياته ويعرضه لمحنة الشك والغيرة بلا ذنب جناه . ولأنه ليس من العار أن يخطىء الإنسان مرة، لكنه من العار حقا أن يفتقد الشجاعة الأدبية للاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه، فمن واجبك ياسيدى إذا كان ضميرك قد استراح إلى بعد زوجتك عن هذه الشكوك أن تصارحها بما قلته لى عنها فى رسالتك من أنها أعظم زوجة وأخلص حبيبة.. ليس فقط لأن هذا من أبسط حقوقها عليك، وإنما أيضا لأن الإنسان الشريف لايقر له قرار إلا إذا أبرأ ذمته مما رمى به غيره من سوء ظن ، لأنه واجب أخلاقى ودينى يتعلق بقيمه هو وعدله مع الآخرين قبل أى شىء آخر ، وبغض النظر عما ينتظره من الطرف الآخر بمثل هذا الإبراء، وسواء عفا عنه أو لم يعف إذ أن النكوص عن ذلك خيانة لروح العدل .. وكتمان للشهادة لا يطيقه أصحاب الضمائر، ولهذا كله فإنى لا أرى لك أن تظل متهيبا مواجهة الموقف مع زوجتك أو مع والدها مهما كانت النتائج، لأنه مهما كانت نتائج المواجهة فلن تكون أسوأ مما ترددت إليه الأحوال بينك وبين زوجتك الآن .. ولربما كانت افضل لكل الأطراف من هذا الوضع المزعج للجميع وزوجتك تنطوى على مراراتها بشان شكوكك السابقة فيها والتى لم تصارحها حتى الآن ببراءتها منها أو خلطت بين ذلك وبين غضبك عليها لإنكارها تلك المكالمة التى انكرتها واخطات هى بغير جدال فى انكارها ومن واجبها أن تضع خطاها هذا فى اعتبارها وهى تتالم لسوء ظنك بها ومراقبتك لها ، وطفلتاك مبعدتان لدى جدتهما وتفتقدان صدر أمهما وحنانها، وأنت تعيش فى بيت صامت مظلم تضطرب فيه أفكارك ويزداد شرود ذهنك حتى لتخطىء فى عملك أكثر من مرة . وتاخر المواجهة لا يعنى إلا

استمرار المعاناة لكل الأطراف ، ومواجهة أسوأ الاحتمالات قد يكون أفضل فى بعض الأحيان من استمرار العناء بسبب تهيب مواجهة الموقف التى نخشى تبعاتها أو نشفق على أنفسنا من لحظاتها العصيبة . وليس بالهروب من المشكلات يستطيع الإنسان أن يحسم خياراته ومشكلاته ويتخلص من معاناته، فلا تزد الأمر تعقيدا ياسيدى ولا تطل معاناتك ومعاناة طفلتيك وزوجتك .. وتوجه إليها ساعيا فى الإصلاح ومعتذرا عن خطأ وضعك لها تحت المراقبة، وتحمل بشجاعة الرجال المسئوليتهم عن أفعالهم التبعات النفسية والعصبية المحتومة لمثل هذه المواجهة .. ولسوف تتوصلان معا بإذن الله إلى صيغة مناسبة تعيد الثقة إلى نفس كل منكما وتسمح بعودة الحياة إلى طبيعتها بينكما بعد فورة البركان الضرورية فى مثل هذه الأحوال .. وبعد أن يقذف البركان الثائر كل حممه .. ويفرغ طاقته ويرجع إلى الخمود والهدوء من جديد .

صوت الموسيقى !

أنا من أكثر قرائك حرصا على قراءة بابكم الإنسانى الجميل ، وأنا رجل محترم جدا أبلغ من العمر ٦٨ عاما .. وبعد شهور قليلة سوف نحتفل بمرور ٤٠ عاما على زواجنا السعيد بإذن الله ، وقد أنجبت خلال هذا الزواج البنين والبنات ، وحصلوا جميعا على الشهادات الجامعية وعملوا .. وهاجر من هاجر منهم وتزوج الابن الأكبر .. وبقى معى أصغر الأبناء .. وأصبح لى بضعة أحفاد ، وفى الطريق غيرهم قريبا بإذن الله ، ولقد عملت ٣٣ عاما فى وظيفة حكومية مرموقة خارج مصر، كانت إغراءات الإنحراف فيها كبيرة ، وكان من الممكن أن أنزلق فيها إلى عالم الرشوة والعياذ بالله ، لكننى تساءلت وما ذنب أبنائى فى أن يطعموا من حرام أو أن يشير إليهم الناس ذات يوم ويقولوا إن أباهم مرتش ودخل السجن ؟.. فتعففت وقررت أن أعيش بمرتبى وحده، وكان كافيا جدا وساعدنى على ذلك زوجة مخلصة محبة عطوف ومدبرة لم تشعرنى بالعوز والحاجة ، فعشنا حياة فوق المتوسطة بيتنا مفتوح للضيوف ، و « الجودة فى الموجود » حتى استوفيت فترتى بهذا البلد وحضرت إلى مصر منذ أربع سنوات ولم أغير أسلوب حياتى ولم يتخل عنى ربى الرزاق الكريم والحمد لله على كل شىء .. ومنذ شهور سافرت زوجتى إلى الخارج لتقيم مع ابنتنا المهاجرة مع زوجها وتساعدها فى تربية أطفالها فخلا على البيت نهائيا وشعرت بالوحدة التامة رغم وجود ابنى الأصغر معى ، حيث يعمل ليلا وينام نهارا ونكاد لا نلتقى أو نجلس لنتحدث ونتسامر

بالايام الطويـلة ، وأصـبح البـيت الذى كـان يضـج بصـراخ الأطفـال ومشاحنات الكـبار وسمر الضيـوف ، صامتا إلا من صـوت الموسيقى التى تملأ أركان البيت ، فكنت أرقب أطفال الجـيران وارى فيهم صورة احفادى وأشـعر بالسرور حين ينادوننى بلقب « جـدو » وأغدق عليهم بالهدايا الصغيرة والحلوى بمناسبة وبدون مناسبة ، ثم جال فى فكرى « السـاذج البسيط » أن أقدم هدية لوالدتهم وأنا أعتبرها ابنة من بناتى ، فاحـترت ماذا أقـدم لها ، وربما أساء إليـها ذلك مع زوجهـا ففكرت أن أقدم لها بعض المال لتشـترى هى به ما تريد ، وقلت لها إننى فكرت أن أقدم لك هدية بمناسبة العيد لكنى لم أوفق فى الاختيار فخذى هذا المبلغ واشترى به الهدية التى ترغبينها !.. فانتفضت غاضبة وهرولت مبتعدة وهى تردد بعض الكلمات التـى لم أسمعهـا فتوجست شـرا ودعوت أن تكون العواقب سليمة ، ودهشت وأنا الذى فعل ذلك بتلقائية شديدة !

فلم تمض أيام حتى قابـلنى زوجها بثورة عارمـة ووجه لى الاتهام كيف أقدم مالا لزوجته ؟.. وأجبته : وماذا فى ذلك وأنا أقدم للأولاد كل يوم الهدايا وهى مثل ابنتى وأنا رجل كبيـر السن ومريض بالبروستاتا وليس لى مـآرب سوء فى زوجتك ؟!

لكنه لم يقـتنع ولم يهـدأ وقـال لى إننى وأنا أقـدم لأولاده الحلوى أرفع دائما وجهى وأنظر إلى حيث يقيمون !

فلم أجد مـا أقوله له سـوى إننى قد جـوزيت شرا على خـير اردته وانصرفت .. مرتبكا ومضطربا .. ومـنذ ذلك اليوم وأنا أخرج من البيت مبكرا جـدا وأعيش فى قلق شديد وقـد ارتفع ضغط الدم عندى وبدأت أشعـر بآلام شديدة فى ذراعى ولا أعرف لماذا فـعلت السيـدة الفاضلة ذلك ، وأنا الذى كنت أعاملها مثل بناتى ولم يصدر منى ما يسوؤها كما إننى لست مراهقا وإنما تمشى تصرفاتى بكل عقل وحكمة واحترام !!

والذى يشـغلنى اكـثـر هو ماذا لو وصل هـذا « الزعم » إلى أبنائى الذين أكن لهم كل حب واحـترام وأريد أن تظل صورة والدهم أمـامهم طاهرة نقية حتى النفس الأخير .. كما أريد أيضا أن تظل صورتى كذلك أمام زوجتى المخلصـة المحبة التى أكن لها كل حب واحـترام .. وأعجب

كيف تهدم هذه الصورة تلك السيـدة بتصرفها « الطائش » هذا ؟.. ربما يكون هذا نوعـا من الحقـد .. والحسـد والغيـرة ، لكنى أستـغفـر ربى وأترك له « القصاص » !

فهل أطلب مـنك أن توجه كلمة لهـذه السيـدة الفاضلة تصـحح بها ماأساءت فهمه ؟.. وهل توجه كلمة أخرى إلى من يتصرفون « بتلقائية» شـديدة لكى يحتـرسـوا فى تصرفـاتهم حـتى ولو كـانوا يظنون أنهم يفعلون الخير حتى لا يتعرضوا مثلى لمثل هذا الموقف المخزى المخجل ؟!

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لا شأن لى بهذ السيدة الفاضلة الـتى تصرفت التصرف الوحيد الذى ينبغى لها أن تفعله فى مثل هذه القـصة ، ولن أوجه إليها أية كلمة .. اللهم إلا كلمـة الإعجاب بأخلاقيـاتها وقيمهـا السليمة التى لم يفـسـدها الزمن الردىء ، وكـذلك « بحكمـتهـا » التى بفـضلهـا لم يغب عنهـا فهـم الموقف الفهم الصـحـيح والتصـرف ازاءه على أساس من هذا الفهم .

أما أنت يـا سيدى فلى مـعك كلمة وربما كلـمات .. وبادىء ذى بدء فإنى سـوف « افتـرض » إنك قد فعلت مـا فعلت « بتلقـائية » شديدة بهـدى من « تفكيرك » السـاذج البـسيط . لأنك ترى فى هذه السيـدة « ابنة » من بناتك وفى ابنائها صـورة أحفـادك ، ولسوف أقول لك بعد ذلك إنه حـتى لو كانت نيتك طيبـة وبريئة تجاه هذه السيـدة ، فإن حـسن النية وحـده لا يكفى فى بعض الأحيـان لكى يتجنب المرء الإسـاءة إلى نفسه وإلى الآخـرين ، فالإنسان يحـتاج لأن يتمتع إلى جانب حسن النية بحسن الإدراك والفهم لكى يتفادى الإساءة إلى الآخـرين .. وينجو مـن سوء الظن ، وانت يا سـيدى - مـع افتراض حسن النية فيما فعلت ـ قد غاب عنـك الإدراك السليم فاسـات بتـصرفك هذا إلى هـذه الزوجـة المحصنة ابلـغ الإساءة .. وأسـات إلى نفـسك وإلى صـورتك فى أعـين من حـولك بمثل ذلك وأكـثر ، إذ كـيف تقدم « مـالا » لزوجة وأم لا تربطك بهـا أى صلة

سوى صلة الجـوار البسيطة بدعوى إنك قـد « حرت » فيمـا تقدمه لها من هدية وقررت أن تعطيها مبلغـا من المال لتشترى به لنفسها ما تشاء؟!

إن مـجرد تفكيـرك فى أن تقدم إلـيهـا « مالا » وهى ليـست من عصبك ولا من أهلك ولا من دائرة الأصدقـاء المقربين يحـمل معنى « الإهانة » البالغة إلى شخصها وقيمها وأخلاقياتها ، ويعطيها كل الحق فى أن تفترض فيك أسـوأ النيات .. وأبشعها وهى إنك تسىء الظن بقيمهـا وأخلاقياتها حين تتصـور أنها يمكن أن تقبل مالا من رجل غريب .. ـ ولا عجـب فى ذلك ـ فالهدية فى حد ذاتهـا تفترض وجود الصلة الحميمة بين الطـرفين .. وإلا فقدت معناها ، وحملت معـانى أخرى كريهـة ، وأنت لا صلة لك بهذه السيـدة سوى صلة الجوار السطحية الـتى لا تبرر تقديم الهدايا ، فما مـعنى أن تقدمها لها ؟.. أمـا استبـدال الهدية بقيـمتهـا المادية .. وتقديم هذه القيـمة للمهدى إليه ليفعل بها ما يشاء ، فهو سلوك يعكس ما هو أعمق من مجرد الصلة الحميـمة .. ولا يقع أصلا إلا بين أقرب المقربين الذين زالت بينهم الكلفة والحواجز .. فهل كانت صلتك بهذه السيدة بمثل هذه الحميـمية والعمق .. لكى تفكـر مجرد تفكير فى أن تقـدم إليها مبلغا من المال بصفة هدية ؟!

وإذا كـان الأمر بعـيدا حـقا عن كل شـبهـة من البداية ، فلمـاذا خشـيت إذن إن أنت قدمت إليها هديـة اخترتها أن يسـىء إليـها ذلك مع زوجها ؟.. إننى احترامـا لسنك ووضعك العائلى لن أوجه إليك أى اتهام ، لكنى أتساءل فقط لماذا لا يشعر بعض الرجال بمثل هذه المشـاعر « الأبوية » « البـريئـة » إلا تجاه سيدات أو فـتيـات من الجنس الآخر ، مع أن لهؤلاء الرجال أبناء يفتقـدونهم كما يفتقدون بناتهم ، وفى الدنيا « شبـان » كثيرون قد تخفف مـثل هذه المشاعر « الأبوية » « التلقائية » عنهم بعض عناء حياتهم ؟

إن التبرير حيلة نفـسية دفاعية يلجا إليهـا الإنسان لا شعوريا حين يواجه ضغوطا واتهامـات يعجـز عن احتمالها .. وهـو شىء

مخـتلف عن إنكار المخطىء لارتكابه الخطـأ وقـد يكون أخطر منـه عاقبـة ، لأن المرء يسلم فيه بوقوع الخطأ الذى لا سـبيل لإنكاره .. لكنه يرفض لاشعوريا أن يعتبر الخطأ خطأ ويحاول بكل الجهد أن يفسـره تفسـيرا ضـلاليا يخـرج به من دائرة الفعل الخـاطىء إلى دائرة الفعل البرىء الذى أساء الآخرون فهمه ونسبوا له ما لم يكن فيـه ، وبالتالى فليس المخطىء هو من ارتكب ذلـك الفعل وإنما من أساء فهمه واعتبره خطأ ، وقد يلح الإنسان على نفسه بهذا التبرير كلمـا اشتد خـوفه من العـواقب حتى لـيصدقـه أو يخيل إليـه أنه يصدقه فـيعجب للآخرين كـيف لا يصدقونه .. ويتهمـهم بالتجنى عليه . وهذه هى خطورة التبرير كحيلة دفاعية قد تؤدى بالإنسان إلى اضطراب التـفكير .. لأنهـا تقلب الحقـائق وتحول الجـانى إلى ضـحـية .. والـضحـايا إلى جنـاة .. وتحرم الإنسـان من فـرصـة تصحيح الخطأ والإقلاع عنه . والاحتراس من عدم تكراره .

وعلماء النفس يقولون لنا إن أى إنسـان لا يخلو من قدر ضئيل من الميل للإنحراف عن السواء ، لكن الناس يختلفـون فى مقاومتهم له وقدرتهم على كبحه والسيطرة عليه ، ومنعه من أن يجرفهم فى لحظة ضعف عـابرة إلى التورط فى فعل أو سلوك أو موقـف مخز قد يهدم كل ما بناه الإنسان خلال رحلـة السنين من سمعة طيـبة وحياة فاضلة محترمة !

والحق إننى قد وجدت فى هذه المقولة النفسـية حين قرأتها منذ سنوات ، ما غاب عنى فهمه من قبل ، فى مضمون الحديث الشريف الذى يقول لنا إن المرء قد يقضى عـمره يعمل بعمل أهل الجنة ، ثم يتبعه بعمل من عمل أهل النار فيدخلها به ، وقد يقضى عمره يعمل بعمل أهل النار ثم يتبعه بعمل من عمل أهل الجنة فيدخلها به .

فلقد كـنت أفهم أن يغفـر الله سبـحانه وتعـالى لمن يشاء بغير حساب ويكفـر عنه سيئاته ﴿ إن الله لا يغفر أن يشـرك به ، ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النسـاء : ٤٨] .. ﴿ ومن يعمل سـوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ [النساء : ١١٠]

صدق الله العظيم ، لكنى لم أكن استوعب كيف يمكن أن يتورط من عاش حياته فى طاعة الله ، فى عمل من عمل أهل النار فى أخريات العمر فيدخل به النار حتى قرأت عن هذا القدر الضئيل من الميل للانحراف عن السواء الذى لا يخلو منه أى إنسان ، والذى قد يدفع المرء إذا لم يكبحه ويسيطر عليه ، لأن يفعل « فجاة » ما يتناقض تماما مع سيرته الجادة السابقة فى الحياة .. حتى ليرفض أقرب الناس إليه أن يصدقوا أنه هو نفس الشخص الذى أقدم على هذا الفعل الغريب !.. إلا من رحم ربك وحماه من شر نفسه واستعان هو عليها بالإرادة والعبادة وتجنب الإغراءات ومواطن الشبهات .

فإذا كان الأمر كذلك يا سيدى ، فإن أرجوك أن تعجل بدعوة زوجتك للعودة إلى بيتها وأن تلح عليها فى ذلك ويكفيها ما قدمت لابنتها وأطفالها حتى الآن من رعاية ، ولترجع إليك الآن لتؤنس وحشتك وتبعد عنك شرور الوحدة .. وتبعث النبض والحياة فى مسكنك الخالى الآن إلا من صوت الموسيقى .. وهواجس القلق والخوف على صورتك فى عيون الأهل والأحباء .

فانت يا سيدى فى حاجة نفسية وإنسانية شديدة إليها ومن حقك عليها أن ترجع إليك الآن لتواصلا معا رحلة الحياة فى أمان وسلام .

نقطة الانفجار!

منذ فترة طويلة تساورنى الرغبة فى أن أكتب إليك قصتى فيمنعنى كبريائى من ذلك ، فأنا طبيبة فى العقد الثالث من العمر تزوجت من إنسان محترم يعمل مهندسا ويكبرنى بعامين ولى منه ابنة فى الرابعة من عمرها ، وقد تزوجنا منذ ست سنوات بالطريقة التقليدية ، ولم يدخر زوجى وسعا فى تأثيث المسكن والاهتمام بأدق متطلبات الحياة الزوجية ، لكنه كان يعمل خارج القاهرة ولا يرجع من عمله إلا لبضعة أيام كل شهر فكنت كلما سافر للعمل ذهبت إلى بيت والدتى وأقمت فيه بلا مسئوليات ولا أعباء زوجية ومنزلية . وكان ذلك أمرا مألوفا فى حياتى لأننى وحيدة أبى وأمى ومازلت فى نظرهما الطفلة المدللة التى لم تكن أمى تسمح لها بالمشاركة فى الشئون المنزلية . وخلال غياب زوجى فى عمله كان يتصل بى بانتظام ويبثنى أشواقه الحارة من خلال التليفون وعبر الرسائل .

إلى أن نقل زوجى إلى القاهرة واستقر فيها بعد ثلاث سنوات من زواجنا وبدأت حياتنا الزوجية الفعلية ، ففوجئت « بالمسئوليات » التى لم أعط لها اهتماما من قبل ، وهى مسئوليات البيت والزوج والطفلة التى كانت قد أتمت عامها الأول فى ذلك الوقت ، وكل ذلك لم أعتد عليه فى بيت أسرتى ولم تدربنى أمى على تحمله ، ومع ذلك فقد راح زوجى يساعدنى فى تحمل أعباء البيت والطفلة ويواجه كل مشكلة بابتسامة ، فى حين أصبحت أنا دائمة العبوس فى وجهه ومتصلبة الرأى فى مطالبى ولا أقبل منه إلا تنفيذ رغباتى حرفيا كما تفننت أيضا فى

اختلاق الأسباب حتى استطعت مقاطعة أسرته تماما بالرغم من قرب مسكنها منا ، ولم يدخر زوجى جهدا للإصلاح بيننا ، لكنى سددت عليه كل الأبواب لكى استأثر به وحدى دون أسرته وليظل « تابعا » لى على الدوام كما تعلمت للأسف من أمى فى علاقتها بأبى ، ولقد حرصت على أن أتبع نفس « المنهج » الذى نشأت فوجدتها تتبعه معه وتقول عنه أنه المنهج الأصح فى معاملة الزوج لكيلا يتمرد على زوجته واعترف لك بأننى قد طبقت هذا المنهج مع زوجى بدقة .

وأنه على حين كان يحرص دائما على إرضائى ويشعرنى بالحب فى كل وقت حتى فى نبرات صوته ، كنت أنا أضن عليه بمشاعرى وأتمنع عليه حتى فى حقوقه الزوجية لكى يظل متأججا من ناحيتى باستمرار ، كما كنت لا أستجيب لرجاءاته لى باحترام أهله والسؤال عنهم إلى أن حلت القطيعة التامة بيننا . وحين كان يصطحب ابنته لزيارة أبيه وأمه وأخوته لبعض الوقت كانت تنتظره فى البيت دائما مشكلة كبرى افتعلها معه كأننى « أؤدبه » بها على اجترائه على اصطحاب طفلتى إلى جديها وعلى مودته لأهله ، إلى أن جاء يوم أراد فيه أن يصطحب طفلتنا إلى بيت أسرته ، وأصررت أنا على منعها من الذهاب ، وتماديت فى الخلاف معه ، فإذا به ينفجر فى وجهى انفجارا صاعقا ويصفعنى على وجهى ، فكانت الطامة الكبرى .. والحريق الذى أصررت على إشعاله وتأجج ناره حتى النهاية واستدعيت أهلى على الفور فجاءوا إلى مسرعين واصطحبونى معهم بعد أن وجهوا إليه سيلا من الإهانات .. ووقع الخلاف الكبير بيننا على غير توقع منى إذ ظننت أننى مهما فعلت معه فلن يصل أبدا إلى نقطة الانفجار هذه معى ، وبدأت سلسلة المحاضر فى أقسام الشرطة ضده بخصوص طردى من البيت والتعدى علىّ وعدم الانفاق ، وطلب تمكينى من منزل الزوجية بواسطة النيابة بالاضافة إلى قضايا أخرى خاصة بالنفقة وتبديد المنقولات وغير ذلك من سلاسل الحلقة الجهنمية المألوفة لدى محاميى الأحوال الشخصية الذين يتصيدون مثيلاتى ويرضين غرورهن بأنهم سوف يأتون لهن بالزوج راكعا أمامهن وطالبا الرحمة !

ومضت أربعة شهور ونحن في هذا المسلسل اللعين .. ومع ذلك فقد فوجئت بزوجي يطلب مني فتح صفحة جديدة بيننا ويصفح عن كل ما اتخذنا ضده من إجراءات ، وقبلت العودة إليه بعد تمنع طويل وامتهان كاف لكرامته ، ورجعت الحياة بيننا وعشنا في هدوء نسبي بضعة شهور ثم وجدتني أرجع تدريجيا لسابق عهدي معه من النكد والعبوس واختلاق المشاكل وتطبيق منهج أمي معه على الوجه الأكمل .. وحدث شجار آخر بيننا فلم أتردد في استدعاء أهلي من جديد . وفي هذه المرة قمنا بنقل كل متعلقاتي وما يخصني وما لا يخصني من أجهزة وأدوات ومفروشات حتى المناشف ومفارش السفرة فلم أترك في البيت سوى المنقولات الخشبية العارية وحدها ورجعت إلى بيت أسرتي ، وفي الصباح التالي كان المحامي يعمل بنشاط في استكمال الحلقة الجهنمية إياها من محاضر ودعاوى واتهامات وجهت فيها إلى زوجي كل ما من شأنه أن يصوره كوحش كاسر يعاملني معاملة العبيد ويقبض يده عن الانفاق عليّ وعلى طفلته ، ويضربني بانتظام وبقسوة ويضرب طفلته كذلك ، بل إنني قد اتهمته أيضا بتبديد المنقولات وعرضته لخطر الحبس فاسرع يطلب منا تسلم هذه المنقولات على الفور وذهبت إلى البيت مع أسرتي وانزلناها إلى عربة النقل وتركنا له المسكن على البلاط !

وخلال ذلك جاءني زوجي في عملي ثلاث مرات وأعطاني نقودا ، فاخذتها منه وأنا أتوعده أنني سأحصل على كل حقوقي منه عن طريق المحكمة ثم منعته بعد ذلك من رؤية طفلته . فأقام ضدي دعوى رؤية للطفلة وحكم له فيها وتقرر أن يراها بمقر الحزب الوطني لكنه لم يحضر لرؤيتها سوى ثلاث مرات وآثر بعدها الابتعاد لأن نفسية الطفلة تأثرت بذلك ثم حكمت لي المحكمة الابتدائية بالطلاق منه غيابيا ، فقدم هو معارضة في هذا الحكم واكتشفت أنا فجأة أنه قد مضت ثلاث سنوات وأنا في ساحات المحاكم والنيابات ومكتب المحامي الذي يستنزفني ماديا ، والقضايا والنزاعات تسرق عمري وقد تعديت الثانية والثلاثين وأوشكت ابنتي على الالتحاق بالمدرسة وهي بعيدة عن أبيها ،

والصورة من حولى قاتمة فلا أنا زوجة ولا أنا مطلقة ، كما أننى فى أعماقى لا أرغب فى أن أحمل لقب المطلقة البغيض ، لكن كبريائى يمنعنى من أن أعلن ذلك . ونشأتى فى أسرتى لم تساعدنى على الإقرار بالخطأ مهما كانت الظروف وحين نظرت إلى حياتى بعد ثلاث سنوات من الصراع والنزاع والقضايا وجدتنى قد أصبحت مطمعا لكل من تسول له نفسه أن يجرب الاقتراب من إنسانة يائسة سعت بإرادتها إلى تدمير حياتها .

وبعد مغالبة شديدة لكبريائى اللعين قررت أن أكتب إليك لسببين الأول أن تساعدنى على اتخاذ القرار السليم فى حياتى هذه ، والثانى لكى أرجو منك أن تكتب لزوجى وهو من قرائك المستديمين أن يصفح عما كان وأن يبدأ معى صفحة جديدة . ولعنة الله على « المنهج » الذى حاولت أن أطبقه مع زوجى تقليدا لأمى . ولعنة الله على كل زوجة لا تتقى الله فى زوجها وأطفالها .

إننى اعرف أننى قد ادركت ذلك بعد فوات الأوان لكنى أتمسك بالقشة التى قد يتعلق بها أمل الغريق . وأملى أن يصفح عنى زوجى هذه المرة أيضا كما صفح من قبل وأن تكون كلماتك له بمثابة نداء العقل من أجل ابنتنا الصغيرة ، أما أنا فإنى لا أنتظر منك إلا أقسى الكلمات ولن ألومك على ذلك والسلام .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

يُخيَّل إلى فى بعض الأحيان أن ما قاله الأديب الأمريكى الساخر مارك توين يجد ظلا من الحقيقة فى بعض البشر . فلقد قال ساخرا من ظلم الإنسان للإنسان : الإنسان حيوان ناطق .. لكنه لا يصل فى بعض الأحيان إلى المستوى الأخلاقى « الرفيع » للوحوش ! فالوحش يقتل بدافع الجوع . أما الإنسان فيقتل بدافع الحقد أو بدوافع أخرى ليست عادلة كدافع الجوع » !

فهل أكون قاسيا عليك كثيرا يا سيدتى إذا قلت لك إنك لم تنازعى زوجك أمام الشرطة والنيابة والقضاء طلبا لحق

ولا بدوافع عادلة وإنما بدافع الرغبة فى قهره وتطويعه وهزيمته وإذلاله ؟

وهل أتجاوز الحقيقة إذا قلت إنك انت المسئولة من البداية إلى النهاية عن هدم حياتك الزوجية وحرمان طفلتك من أبيها . وضياع فترات ثمينة من العمر فى دهاليز المحاكم ومكاتب المحامين حتى أوشكت طفلتك على الالتحاق بالمدرسة بعيدا عن أبيها ؟

لقد أقررت على نفسك بذلك .. لكن كبرياءك الأجوف يحول بينك وبين تدارك الأمر قبل أن يمضى إلى الهاوية السحيقة ، ولست أدرى فى الحقيقة كيف تجدين فى نفسك القدرة على الاعتراف بالخطا ثم تعزفين فى نفس الوقت عن مصارحة من أخطات فى حقه بذلك ؟ وكيف تسلمين بأن معظم إدعاءاتك على زوجك وإتهاماتك له كيدية وباطلة . ثم تقبلين رغم ذلك الاستمرار فى منازعته قضائيا على أساسها ؟

إن العدل مع الآخرين يا سيدتى فريضة دينية وأخلاقية كغيرها من الفرائض ، وظلم الإنسان لغيره جناية يهتز لها عرش الرحمن فى سماواته العلا وهو من حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرما كما يقول لنا الحق سبحانه وتعالى فى مضمون الحديث القدسى .

فإن عجبت لشىء بعد ذلك فلست أعجب لإنسياق البعض وراء الفجر فى الخصومة إلى حد الافتراء على الآخرين ورميهم بما ليس فيهم طلبا لقهرهم وإذلالهم والانتصار عليهم ، وإنما اعجب حقا وصدقا لمن يقدم على ذلك وهو عليم بما يفعله ثم يجد فى نفسه بعد ذلك القدرة على أن ينعم بنوم هادىء فى الليل ، ولذة طعام وشراب ، وإحساس غامر بالأمان والاطمئنان إلى الغد والمستقبل وقد علمنا منذ قديم الزمان بان خير ما نحتمى به من غوائل الأيام هو ألا نظلم أحدا عامدين لأن الحياة ديون ، ولسوف تقتص منا الحياة ذات يوم بما ظلمنا به الآخرين .

ولقد قلت مرارا من قبل إننى لا احترم زوجة تنازع زوجها امام

الشرطة والقضاء ولا أقبل منها هذا السلوك على مضض إلا فى حالة واحدة استثنائية هى أن يتكرر إيذاء زوجها لها وتفشل معه كل الوسائل السلمية والودية لردعه عما يفعل ، فلا يكون لجوء الزوجة هنا للشرطة إلا طلبا لحمايتها من زوجها ووالد أطفالها بعد أن خاب كل سعى آخر معه ، أما أن يكون أول ما تفكر فيه الزوجة وأهلها عند كل خلاف عابر من خلافات الحياة الزوجية هو اللجوء إلى الشرطة فلا معنى له إلا فساد القيم العائلية والأخلاقية التى تحكم هذه الزوجة وأسرتها .

لكنه لا عجب من ناحية أخرى فيما فعلت حين هرولت من أول صفعة إلى أقسام الشرطة بعد طول صبر واحتمال من زوجك ، فلقد كان ذلك منطقيا تماما مع « المنهج » الفاسد الذى حاولت اتباعه معه لترويضه والسيطرة عليه تقليدا لوالدتك ، لكنه قد فاتك فى ذلك للأسف أن ما يصلح مع إنسان قد لا يصلح مع غيره . وأن هذه المناهج الفاسدة لا تعنى نجاح الحياة الزوجية وإنما تعنى فقط العجز عن تغييرها فى بعض الأحيان .

كما فاتك أيضا أن لكل إنسان قدرته على الاحتمال التى لا يستطيع تجاوزها ثم تنفجر بعدها براكينه مهما بدا لنا هادئا وخانعا ومستكينا لأن الضغط يولد الانفجار ، فإذا كانت حياة والدتك لم تشهد مثل هذا الانفجار مع زوجها فلأنها كانت فيما يبدو تعرف متى تتوقف عن الضغط عليه فى الوقت المناسب وقبل أن تتهشم قشرة احتماله الرقيقة فى حين اندفعت أنت بجهلك بالطبيعة البشرية وبشخصية زوجك وبكبريائك غير المفهوم فى الضغط على زوجك حتى بلغت به نقطة انفجار المرجل وانطلاق بخاره المكتوم ، والزعيم السوفيتى الأسبق خروشوف يقول لنا أن الناس لا يساقون حتى إلى الجنة بالعصا وإننا لوسقناهم بها إلى رحابها لأبوا دخولها ، فكيف بهم إذا سقناهم بعصا التكبر والعناد وصلابة الرأى وجفاء المشاعر إلى ما لا يرضيهم ولا يشعرهم بكرامتهم ورجولتهم؟ هل يحق لنا فى هذه الحالة أن نتوقع منهم

أن يزدادوا رغبة فينا . وتمسكا بنا ؟

وهل يكون غريبا عليهم أن ينفجروا فينا ذات يوم ويفضلوا غيرنا حتى ولو بدوا لنا من قبل شديدى الحرص علينا ؟ أنه ليس خطأ المنهج الفاسد فى التعامل مع الزوج وحده ولا هو فقط خطأ النشأة المدللة التى أورثتك العناد والإنانية وإيثار الذات حتى على مصلحة طفلتك ، لكنه أيضا خطأ التكبر والاعتزاز الزائد بالنفس واعتبارها ذاتا « ملكية » فريدة ينبغى على الآخرين أن يطلبوا ودها دائما ويقربوا إليها القرابين فى كل حين وليس من حقهم أن ينتظروا منها بعد ذلك تجاوبا ولا إنصافا ولا تكريما ، وإنما يكفيهم فقط شرف الاستمرار فى « المعية » وشرف « حظوة » الحياة تحت سقف واحد معها !

وفى هذا الخيال وحده ما يكفى لتدمير أى علاقة إنسانية بين طرفين مهما كانت قوة مشاعر أحدهما تجاه الآخر ، وصدق من قال أنه ما هلك امرؤ عرف قدر نفسه وما سعد أمرؤ أعماه الكبر والغرور عن حقائق الحياة . يا سيدتى إننى آسف حقا لاضطرارى إلى توجيه هذه الكلمات القاسية لك . لكن عذرى فيها أنك قد عرفت من البداية إنك لن تجدى عندى سواها وعذرى أيضا إننى أرثى لحال طفلتك الصغيرة التى حرمت بلا مبرر من حقها فى الحياة الطبيعية الآمنة بين أبويها . لكنى على أية حال لا أستطيع أن أتجاهل نغمة مراجعة النفس والإقرار بالخطأ التى تسود رسالتك . فلا شك أن هذه النغمة تحول جديد فى شخصيتك وفى فهمك للموقف لكن الإقرار بالخطأ لا يكفى وحده لإصلاح ما أفسده العناد والكبرياء والافتراء على الغير ما لم يستتبعه الندم الصادق عليه . و « الفعل » الذى يكفر عن هذا الخطأ أو يقلل من أضراره « وكفارة الذنب الندامة » كما يقول لنا معلم البشرية صلوات الله وسلامه عليه ، وإصلاح ما أفسدت بينك وبين زوجك يتطلب منك أن تتنازلى على الفور عن كل ما أقمت ضده من دعاوى كيدية وظالمة ليس استرضاء له وإنما استرضاء لمن هو أكبر منا شانا وأعز قدرا

وهو العادل الذى حرم الظلم على نفسه سبحانه وتعالى واعتذارا إليه ، ورجاء لمغفرته وانتصارا للحق والعدل . واحتراما للنفس وكراهة لأن تقبلى لها بالافتراء على الآخرين .

ولا شك أنك حين تفعلين ذلك احقاقا للحق وليس جزءا من صفقة أو حل وسط بينك وبين زوجك ، فإنك تكونين قد فتحت بالفعل صفحة جديدة فى حياتك وتطهرت حقا من كل أخطاء الماضى . ووفيت بحق طفلتك عليك وأصبحت جدردة بأن يتمسك بك زوجك ويسعى إلى استئناف الحياة معك .

شاطئ الأمان !

أكتب إليك بعد أن قرأت رسالة « الرد الجرىء » ، للأم التى تشكو لك من ابنتها التلميذة التى تسرق الأشياء فى المدرسة ، وسرقت مبلغا من المال من دولاب ملابسها وانفقته على صديقاتها ، ولقد شرحت لها فى ردك عليها الدوافع النفسية لهوس السرقة عند الصغار ، والذى قد يستمر معهم فى مراحل أخرى من العمر ، إذا لم يعالج فى الوقت المناسب ، وأوضحت لها طرق العلاج ، لكنى أريد أن أضيف إلى ما قلته لها إضافة أخرى قد لا يستطيع غيرى أن يقدمها لها لأننى قمت أنا نفسى بما قامت به هذه الفتاة الصغيرة فى نفس هذه السن تقريبا فإذا كانت الفتاة الصغيرة قد اعترفت لأمها بما فعلت ، فلن أقول إنها قد فعلت ذلك بكل جرأة ـ كما قالت لك أمها فى رسالتها ـ وإنما أقول إنها قد فعلت ذلك نادمة ، على عكس ما فعلت أنا حيث لم أعترف أبدا بجرمى وإنما كذبت وانكرت ولازمنى داء الكذب فى هذه المرحلة من عمرى فسرقت أكثر من مرة ، وكذبت وكنت أكذب بمناسبة وبغير مناسبة ، وعندما اكتشف أبى الأمر هوى على جسدى النحيف بالضرب العنيف ، فى حين احتضنتنى أمى بين ذراعيها ، وإنهالت على بالمواعظ الدينية ، وصدقنى يا سيدى إنه لا ضرب أبى العنيف لى ، ولا مواعظ أمى الحانية قد أفلحت فى تغيير حالى ، فلقد كنت أشعر وقتها بالرغبة فى أن أسرق ، ولا استطيع أن أحدد سببا واضحا لذلك ، لكنى سأذكر لك بضعة أمور أظن أنها كانت وراء هذا السلوك المعيب ، وقد وجدت فى تحليلك للدوافع النفسية لمثل هذه السرقة بعض أصدائها فى

طفـولتى ، فلقـد كنت فى هذه السن اتطلع لأن امـتلك أشـياء تخـصنى وحدى ولا يسـتعملهـا أحد غيـرى كفرشـاة أسنان ، أو منديل أو قلم ، وكان أبى يلبى دائما مـثل هذه الحاجات لأخى الذى يكبرنى ولا يلبـيها لى ، ربما بدعوى أننى أصغر من أن أحتاج إليها ولم أكره أبى لذلك أبدا لكنى كنت أحزن له ، وكنت فى هذه المرحلة من العمر أنتظر العيد بفارغ الصبر من أجل « العيـدية » فيعطينى أبى عيدية ضئـيلة للغاية بالمقارنة بما يحصل علـيه أصدقـائى من آبائهم فكان هؤلاء الأصدقـاء يجلسون معـا صباح يوم العـيد ، ويخططون للاستـمتاع بالعـيد ، فأجـد نفسى عاجـزا عن الاشتـراك معهم فى خطـطهم لأن « ميزانيـتى » لا تؤهلنى لذلك ، وأجد نفسى محروما من مشاركتهم الصحبة واللعب ، وكان هذا هو دائما حـال أبى معى فيـما يتعلق بالنقـود ، فلقد كان يـعطينى منها بميزان ، ربما لم يتم اخـتراعه بعد لـدقته المتناهية فى « وزن » أصـغر وحده نقدية فى الوجود ، وفى صغرى أيضا كنت أتوق دائما لأن أخلق لنفسى « مكانة » مناسبة بين أفراد أسرتى ، كـفرد له وجود محسوس وكيـان ، أى أننى كنت أريد أشعار أفـراد أسرتى بأننى لست « عـيلا » صغيرا ، وهو الإحساس الذى لم يمنـحه لى أبى أبدا وقتها ، وإنما كان يهـملنى ولا يناقشنى فـى شىء ، ولا يحدثنى كـشخص أو إنسـان له وجود وكيان ، ولا يتذكـرنى إلا إذا أراد منى شيئا من نوع « هات كوبا من الماء » أو « ضع هذا الشىء هنـاك » إلى آخره ، وباخـتـصـار فقـد اهملنى أبى عاطفيا وعقليا ، ولم يمنحنى الحب ولم يحترم عقلى ، حتى شعرت وقتها بأنه « كتلة صلبة » لا مكان للمشاعر لديها .

أما أمى فقد كـانت ومازالت كالراهبة ، سلاحهـا فى الحياة الموعظة الحسنة ، فكانت تقول لى دائما كلاما « كبيرا » عن الجنة والنار وثواب الصادقين وعـذاب المنحرفين ، ولم اكن أفهم كلامـها هذا لكنه كان رغم ذلك يرن فى أذنى رنينا غريبا ، وأتأثر به تأثرا غامضا .

ولقد تذكرت الآن وانا أكتب لك هذه الرسالة ، أن سرقتى الأولى قد حدثت حين طلب منى مـدرسى تبرعا صغيـرا للمدرسة ورفض والدى أن يعطينى هذا التبـرع .. فى حين اصر عليه المدرس ، إصـرارا غريبا ،

كما أتذكر أيضا أن أصدقائى كان معهم دائما نقود ينفقون منها متى شاءوا ، وأننى لم أكن مثلهم فى ذلك ، هذا عن السرقة أما الكذب فأظن أننى قد انجرفت إليه بتأثير الخوف من أبى ، وبتأثير السخرية والاستهزاء ، من جانب إخوتى بأى سلوك أقدم عليه حتى ولو كان صحيحا فقد كان هذا حالهم معى حتى حين ألمس سلوكا طيبا من أحد الأفراد ، وأحاول تقليده وكان الإحساس العام لدى وقتها هو أننى لست موضع الرضا والاحترام منهم !

ولا يفوتنى أن أؤكد لك مرة أخرى إننى فى « جاهليتى » السابقة لم أكره أبى يوما واحدا ، حتى وإن أنكرت عليه بعض تعاملاته معى ، ولقد مضت الأيام وتغيرت معاملة أبى المادية والعاطفية معى وتوقفت عن هذا السلك نهائيا مع التحاقى بالمدرسة الثانوية . وتفوقت دائما فى دراستى وبلغت الآن من العمر ٣٠ عاما . ولقد رأيت أن أكتب بتجربتى الواقعية مع السرقة والكذب فى مرحلة الطفولة وأوائل الصبا للأم الفاضلة كاتبة الرسالة لعلها تفيدها فى تربية ابنتها والتعامل معها ، كما أريد أن أطمئنها إلى أن هذا الداء لن يتمكن من ابنتها بإذن الله ، إذا أحسنت التعامل معها ، وتلاشت الأسباب التى اشرت أنت إليها فى ردك عليها .. والسلام .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

« ولا ينبئك مثل خبير » .. كما يقول الله تعالى ولهذا فلقد وجدت فى رسالتك ما لم أجده من قبل من التفسيرات النظرية لهوس السرقة فى علم النفس ، مع أن المنابع مشتركة فى كل الأحوال .

ولعلك لو راجعت أهم دوافعك النفسية والمادية للإقدام على فعل السرقة خلال طفولتك وصباك لوجدت أنها تتركز فى دافعين سبق أن أشرت إليهما فى ردى على كاتبة الرسالة لكنك رغم ذلك تقدم لنا صورة أعمق لتأثيرهما عليك كصاحب تجربة سابقة فى هذا المجال .

أما الدافعان فهما تلبية الاحتياجات المادية التى عجزت الطرق المشروعة عن تلبيتها لك بسبب نكوص والدك عن توفيرها لك

وبسبب افتقادك لامتلاك أشياء خاصة بك أتاح والدك لشقيقك امتلاكها دونك ، أما الدافع الآخر فهو محاولة البحث عن « الإعزاز » المفتقد داخل الأسرة ، ومحاولة تعويضه وتعويض إهمال الأب عاطفيا وعقليا للابن بالإقدام على فعل يؤكد به الطفل ذاته ، ويُشعر الآخرين بوجوده من خلاله أو بانتقامه منهم لتجاهلهم إياه أو سخريتهم منه ، وهو ما عبرت أنت عنه تعبيرا تلقائيا صادقا بقولك إنك كنت تتوق دائما وأنت طفل لأن توجد لنفسك « مكانة » لائقة بين أفراد الأسرة ..

أما الكذب الذى صاحب اقتراف فعل السرقة ، فامر مفهوم لأنه الوجه الآخر للعملة دائما فى كل فعل أو سلوك يعرف فاعله جيدا أنه خاطىء ويكره أن يطلع عليه الآخرون ..

ولعلك تلاحظ أن إقلاعك عن السرقة والكذب فى بداية إلتحاقك بالمرحلة الثانوية ، قد سبقه تحول جوهرى مهم فى علاقة أبيك بك ، كما سبقه أيضا تحول وجدانى مهم داخلك أنت ، فلقد بدأ والدك فيما يبدو يستشعر خطورة الحرمان من الاحتياجات المادية الضرورية عليك ، فبسط يده معك بعض الشىء ثم تجاوز ذلك إلى الإقدام على ما ينصح به علماء النفس فى مثل هذه الظروف ، وهو إشعار الابن بالمسئولية المادية ، وتدريبه على تحمل مسئولية النقود وإدراك قيمتها ، فتخلى عن ميزانه الحساس السابق فى التعامل المادى معك ومنحك مبالغ من المال تزيد على متطلباتك اليومية وأوصاك بالحفاظ عليها وعدم الإنفاق منها إلا عند الضرورة .. فنمى بذلك لديك فكرة المسئولية المادية ، وفكرة الملكية الخاصة التى لا تتخفى بها عن الآخرين لأنها من مصادر مشروعة ، ووجدت نفسك مطالبا بحسن التصرف فيما أصبحت « تملك » من مال يخصك ، وأدركت تبعا لذلك أن والدك قد بدأ ينظر إليك بعين الاعتبار ، كإنسان جدير بأن يتحمل المسئولية ، وليس مجرد طفل قاصر لا يؤتمن على شىء .. فانتفى بذلك التجاهل العاطفى والعقلى لك وبدأ التعامل الجاد معك ، وأشعرك ذلك

بالجـدارة والثقـة فكفـفت عن فـعل ما يتـناقض مع هذه النظرة .. فضلا عن أن نموك العقلى والوجدانى فى هذه المرحلة من العمر قد صـاحبـه بالضرورة نمو مماثل لـلضمـير الأخـلاقى فى أعمـاقك ، وأبسط تعريف لـلضمـير هو أنه قدرة الإنسان على الـتميـيز بين الحق والباطل ، وهو ملَـكة فطرية يتمـتع بها كل إنسان لكن التزام المرء بما تمليه عليه من تبعات يختلف من شخص لآخر .

وفى كل الظروف والأحوال ، فإن الإنسـان لا يسعد أبدا بالإقدام على فعل الأشـياء التى يعرف فى قـرارة نفسه أنهـا غير صـائبة ، ولهذا فـقد كان أبو الفلاسـفة سقراط يقـول إن من يعرف الحق لن يقدم على البـاطل .. لأن الإنسان يطلب لنفـسه السعـادة دائما ولن يسعد أبدا بارتكاب ما يعرف تمامـا أنه خاطىء وباطل ، وإنه مهما أبحـر فى بحـر الخطيئـة والظلام .. فـلابد أن يطلب سـلام النفس بالعودة إلى شاطىء الحق والصواب .

وإذا كنت تقـول إنه لا عـقاب والدك الـبدنى لك علـى السرقـة ، ولا مـواعظ والدتك الدينيـة لك قد أثمـرا ثمـارهما فى إقـلاعك عن السرقة والكذب ، فـالحق أنهما قد ساهما بقـدر غير منكور فى ذلك وأنهمـا قد فعـلا فعلهـما فى أعمـاقك دون أن تشعر بـذلك بطريقة مباشرة لأن التحول فى مثل هذه الحالة لا يتم بطريقة طفرية وإنما عبر تفاعلات بطيئـة ومتدرجة داخل النفس ، ولو لم يصاحب ذلك تغـير مـعـاملة الأب لك المادية وتغـير نظرته إلـيك فلربما لم يكن لهذين الـعاملين أثرهمـا الإيجابى عليك فـيما بعـد ، وأوضح دليل على ذلك هو مـا كنت تـشعـر بـه من تأثر غـامض بما تحـدثك به والدتك من ترغيب فى جزاء الصالحـين وترهيب بمصير الطالحين رغم أنك لم تكن تفهم حديثها أو تستوعبه .

فشكرا لك على رسالتك المفـيدة ، ورغبتك المخلصة فى مـساعدة الأم الحائرة كاتبـة رسالة « الرد الجرىء » على أمرها مـع ابنتها ، ولعلها تجـد فيها ما يطمـئن خواطرها إلى قرب خلاص ابنـتها من هذه الآفة اللعينة كما تخلصت أنت .

الورقة الصفراء !

أنا مهندس شاب من أصدقاء بريدك شهدت حياتى الزوجية منذ أيام تجربة إنسانية بسيطة أردت أن أشركك وأشرك قراءك معى فى عبرتها . فلقد تفتحت عيناى على الحياة فوجدتنى شقيقا أصغر لأربعة إخوة غيرى وابنا لأب مهندس فاضل متدين وأم ربة بيت فاضلة يخيل إلىّ أن الله سبحانه وتعالى قد قبس من قلبيهما بعض ما يفيضان به من حنان فوزعه على الأرض وبه يتراحم الناس حين يتراحمون ! ولا عجب إذن أن وجدت إخوتى الكبار يعتبر كل واحد منهم نفسه أبا لى وأما ، لأن فيض الحنان يغمر الجميع، وهكذا نشأت والحمد لله على الحب والتراحم والرضا والتدين وأتممت تعليمى ككل إخوتى وتخرجت فى كلية الهندسة عام ١٩٩٠ ، وتزوجت من إحدى قريبات والدتى بمباركة أفراد الأسرة ومساندتهم بارك الله فيهم ولهم وفى أبنائهم جميعا ، ومنذ سنوات طويلة وأنا أقرأ بانتظام باب بريد الجمعة أو «صدمة الجمعة » كما وصفه أحد أصدقاء الباب فى رسالة له منذ فترة، وقد قرأت فى ١٩٨٥/١٢/٢٧ رسالة نشرت بعنوان « أدب الحياة » لزوجة مصرية محبة لزوجها وأسرتها تحكى لك فيها عن حياتها مع زوجها وأبنائها ، وكيف يكافح الزوجان لإسعاد أبنائهما بالدخل المتاح لهما وكيف تظلل « البركة » حياتهما بالرغم من أنهما أقل دخلا من باقى أفراد العائلة ، لكنه بالحب والرضا والتراحم تتحقق المعجزات ، وتغرد طيور السعادة فلا يشعر أحد من حولهما بنقص شىء فى حياتهما ، ولا يحلو للعائلة الكبيرة طعام ولا شراب ولا سهر إلا فى

بيتهما السعيد ، وقد لا يكون فيه ما يزيد عن حاجة يومهما قرشا زائدا.. لكنها بركة الستر التى ينعم الله بها عليهما .. وبركة الحب والحنان والتراحم التى تظلل حياتهما، وكانت السيدة كاتبة الرسالة قد كتبتها إليك لتعلق بها على رسالة سابقة بعنوان « بئر الحرمان » لزوجة تشكو فيها من قلة دخل زوجها وضيقها بذلك إلى حد أن كرهت زوجها لهذا السبب مع أنه زوج مثالى ، فراحت تلك السيدة العظيمة تعتب عليها فى ذلك وتروى لها عن حياتها وتقول لها « إننى لا أملك حلقا ذهبيا أزين به أذنى لكنى بهذه الأذن العارية أسمع أجمل وأرق الكلمات من زوجى ، ولا أملك عقدا ذهبيا يزين صدرى لكنى أملك قلبا ذهبيا يحب الناس ويبادلونه الحب ، وليس فى يدى سوار ذهبى .. لكن فى يدى ألف بركة !، وليس على نوافذ بيتى ستائر ، لكن ستر ربنا يغطينا من كل جانب ، وليست شقتى مفروشة بالسجاد الفاخر ، لكنها مفروشة بالحب والحنان ، بيتنا دائما مستور بستر إلهى له العجب .. ورغم أنه أقل البيوت دخلا بالنسبة لبيوت معظم أفراد أسرتى .. إلا أنه واحتهم التى يشعرون بالراحة فيها وما من طعام أصنعه بيدى إلا ويتهافتون عليه بسعادة رغم بساطته « وستره عجب » كما يقولون وكثيرا ما تحدث فى حياتنا أشياء صغيرة تملؤنا سعادة وحبا فمثلا قد يكون رصيدنا فى الثلاجة صفرا وفجأة يأتينا الخير من حيث لا ندرى وبمجرد أن تمتلىء الثلاجة يأتى الضيوف فنقوم بالواجب وزيادة وفرحة الدنيا لا تسعنا وأنا بأقل الأشياء أصنع سفرة رائعة وأجيد صنع كل شيء من الخبز الأفرنجى ، إلى التورتات وأنواع الحلوى إلى المحشى والكشرى « أبو دقة » وكل أفراد أسرتى يحبون طعامى ويستطيبونه وأنا من النوع الذى يصنع من الفسيخ شربات وهكذا سيدات كثيرات يدبرن حياتهن بلا شكوى ولا أنين » .. وفى نهاية رسالتها راحت توجه نصيحتها المخلصة للزوجة المتذمرة وتقول لها إن النقود تذهب وتجيء أما الزوج المحب المخلص فإنه لو ذهب فلا شيء فى الدنيا يعوضه ، وتطلب منها أن تحافظ على زوجها وأن تتقرب منه

وتحاول أن تصنع شيئا بيدها وتستخدم قدراتها فى تجميل حياتها والترويح عن نفسها والتخفيف من جفاف الحياة إلخ .

ولقد شدتنى هذه الرسالة إليها حين قراتها منذ أكثر من عشر سنوات ووجدتنى أقصها وأحتفظ بها بين أوراقى وأتمنى على الله أن يرزقنى بزوجة راضية ومحبة مثلها ، ثم مضت السنوات فى طريقها المعهود وأنهيت دراستى الجامعية وتخرجت وتزوجت منذ أربع سنوات وأنجبت طفلا جميلا ، ثم رجعت من عملى منذ يومين فوجدت زوجتى تبكى وسألتها عن سبب بكائها فعرفت منها أن نفسها قد ضاقت فجأة بقلة دخلنا الشهرى بالقياس إلى مطالب الحياة ، وباضطرارنا لأن نتحسب لكل خطوة فى حياتنا ونعد لها العدة قبلها بوقت كافٍ .. مع أن بيتنا به كل الأجهزة الحديثة .

ومرتبى يكفى البيت وزوجتى والحمد لله مؤمنة وراضية .. لكنها النفس التى تتوق أحيانا يا سيدى إلى السعة فى المال .. وإلى بحبوحة العيش التى لا يتحسب الإنسان فيها لكل شىء فى حياته وقد صادفتها هذه الحالة النفسية قبل عودتى للبيت فضعفت لها وبكت ! واستمعت إلى ما قالته لى زوجتى فى هدوء ، وحدثتها فى هدوء أيضا عن حياتنا.. وكيف منّ الله سبحانه وتعالى علينا بنعم جليلة وكثيرة .. من مركز اجتماعى جيد وبيت به إمكانيات الحياة المقبولة .. وأسرة صغيرة سعيدة وولد يملأ حياتنا مرحا وسعادة ، وحب وتراحم متبادلين بينى وبينها ، أما كثرة المال فلا أحد يدرى هل هى خير أم شر « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض » ، ونحن والحمد لله لدينا أساسيات الحياة .. ولدينا سيارة ، صحيح أنها قديمة ، لكنها نعمة من الله وستر لنا تكفينا الحاجة للمواصلات العامة .

وخلال حديثى إليها تذكرت فجأة تلك الرسالة القديمة التى قرأتها وقصصتها واحتفظت بها منذ سنوات طويلة ونهضت فبحثت عنها بين أوراقى القديمة حتى وجدتها ، وقدمتها لزوجتى وطلبت منها أن تقرأها.. وكانت ورقة جريدة قديمة صفراء اللون من مرور السنين لكن

بها وصـفة السـعادة والرضا ، وبدأت زوجـتى تقرأها فـإذا بدموعـها تسيل طوال فتـرة قراءتها ، وإذا بها بعد أن انـتهت منها تنحيهـا جانبا وتحتضـننى وتحتضن طفلنا معي ونـنـام نحن الثلاثة على هذا الوضع قريرى الأعـين راضين بما أراد الله لنا .. شاكـرين له نعمـه التى لا تعد ولا تحصى .

وتعجـبت لأمر هذه الرسالـة التى تذكرتها بعـد هذه السنين فكانت بلسما لبعض متاعبنا العابرة .

ولقـد قررت أن أكـتب إليك بتجـربتى هذه لتـعرف كم تؤثر الكلمـة الصـادقة فى مـعنويات الإنسـان ، ولكى أرجـوك أن تعـيد نشـر هذه الرسالة الطـاهرة النقية التى تـقطر صدقا من كل حـروفهـا .. فالزواج مهمـا كان سعيدا ومهـما كان عطاء الدنيا للزوجـين يمر دائما بوعكات خطيرة لأن التطلع إلى المزيد هو دأب الإنسان منذ وجد فى الدنيا وهذه الرسـالة هى أحد الأدوية الناجـعة لمثل هذه الوعكات الزوجـية العـابرة لأنها درس فى كيفية تذوق طعم الرضا والقناعة .

إننى أتذكر دائمـا عبـارة حكيمة لك تقـول فيهـا تعليقـا على رسالة مشابهة: « إن السعادة قد تكون فى كثير من الأحيان بين أيدينا .. لكننا نتعـامى عنها ونلـهث وراءها ونظن دائما أنهـا هناك عند المنعطف الذى لا يجىء أبدا » .

وأتذكر لـك أيضا عبـارة أخرى تقـول فيـها : « املأ عـينيك من كل الأشياء . وتمتع بوجوه الأحباء والأصـدقاء فربما لا تراهم مرة أخرى » وأنا أملأ عينى كل يوم بالفعـل من وجوه أمى وإخوتى وزوجتى وابنى وقد تعلمت أن هذه النظرة أثمن من كل كنوز الدنيا ، وحين أعد نعم الله علىّ لا أحصيهـا وصدقنى فإن الله قد أعطانى من نعمه الكثـير والكثير حتى لأظن أنه قد رزقنى بأكثر مما رزق به نبيه سليمان عليه السلام ، فـاللهم احـفظ نعـمك علينا وأدمـهـا لنا إنك أنت الرزاق الكريم وبهـذه المناسبة هل تعرف شـيئا عن كاتبة رسالة أدب الحـياة .. وماذا فعل الله بها وبزوجها وأبنائها .. وهل وسّع الله عليهم رزقه بعد هذه السنين ؟.. وهل مازالوا يتشاربون الحب والحنان ، كما أرجو لهم جميعا .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

ليست المشكلة الحقيقية هى فقط فى داب الإنسان على التطلع للأفضل منذ وجد فى الدنيا كما تقول : وإنما أيضا فى قلة صبره على احتمال حياته إلى أن يحقق لنفسه ما يرجوه لها من أهداف .. وفى تعجله الوصول إلى هذه الأهداف بما يتعارض أحيانا مع الأطوار الطبيعية لحياة الإنسان .

ومن الجدير بالتامل حقا .. أن الإنسان يسلم باطوار النمو هذه من الناحية الجسمانية والعقلية ولا يعترض عليها .. لكنه فى بعض الأحيان يرفض أن يسلم بها ، من الناحية الاجتماعية والمادية ، فيطلب لنفسه أن « يولد » كبيرا من الناحية الاجتماعية والمادية .. وأن يجد فى بداية حياته كل ما ينبغى له الكفاح لسنوات طويلة لكى يحصل عليه . أما مبرره النفسى لذلك فهو أن هناك من « يتمتعون » بالفعل بكل ذلك بغير احتمال لصعوبات البداية ولا كفاح طويل لتحقيق الأهداف ، وهو مبرر مردود عليه بأن القادرين قلة دائما فى كل مجتمع ، وأن البسطاء والمكافحين هم الأغلبية العظمى الكاسحة من البشر فى كل مكان من الأرض حتى فى أغنى المجتمعات وأكثرها ثراء ، وإن حياة الإنسان الطبيعية هى أن يبدأ من نقطة البداية الصغيرة .. ثم يحقق لنفسه وأسرته بالكفاح الطويل ما يطمح إليه من أهداف ، وأن يرضى عن كل مرحلة من مراحل العمر ، ويستجلى مميزاتها وجمالها ويسعد بها برغم ما فيها من عناء .. وفى ظلال الحب والرضا والاستعداد النفسى للابتهاج بالأشياء يشعر الإنسان فى كل مرحلة من مراحل العمر بانه قد حقق لنفسه ولأسرته خطوة مهمة للأمام .. فيرضى عنها ويشكر ربه عليها .. ويتطلع لما بعدها من أهداف قريبة وبسيطة ..

والفارق الجوهرى بين من يسلمون بحقائق الحياة راضين وبين من يسخطون عليها .. هو أن أصحاب النفوس الراضية

يدركون جيدا قيمة الأشياء التي تستحق أن يشقى الإنسان للحفاظ عليـها ويفرقـون بينها وبيـن تلك الأشياء الـتي حتى وإن طلبـها الإنســان لنفســه ونالهـا فـإنهـا وحـدهـا قـد لا تحـقق له الهناء ولا تعوضه عما يكون قـد فقده خلال الطريق من الأهداف الجديرة بالاهتمام ، كـالسعادة .. وراحة القلب وسلامـة الأبناء والصحة .. ورفق الأقدار بالإنســان .. إلخ .. كما لا يغـيب عن هؤلاء كذلك وهم فى مرحلة الكفاح والرزق الشحيح .. أن رزق السماء للإنسان ليس فقط رزقـا إيجابيا مـباشرا ، وإنما هناك أيضـا ذلك الرزق السلبى المهم الذى يتمثل فى حجب الآلام والاختبارات القاسية التى لا ينفع معها جاه ولا مال ، والتي قد تبتلع في لحظات كل ما شقى الإنسان لجمـعه في سنوات، وذلك حقـا هو الرزق العمـيم .. أن تترفق بنا الأقدار فتكون اخـتباراتها لنا هينة ورحـيمة وفى حدود الاحـتمال البشـرى ، وأن تنعم علينا السـماء بالسـعادة والصـحة وسـلامة الأبناء وراحة القلب وحب الآخرين وذلك هو الفوز العظيم .

أما أهداف الحيـاة المادية .. وإن كانت طموحا مشروعـا للجميع فهى لا تتحـقق باللمسات السـحرية ولا بالقفزات المفـاجئة ، وإنما عبـر كفـاح السنين وبشـرط ألا يفقـدنا السعى إليـها قـدرتنا على استشعار السعادة فى أبسط الأشياء ، فالطموح الضارى قد يجعل الإنسان ناجـحا فى نهاية الأمر ، لكن الإنســان قد يفقد أيضـا خلال إنغماســه فيه كل ما يجـعله يستمتع بهذا النجـاح حين ينجح فى تحقـيق الأهداف ، ولا عجـب فى ذلك لأن من لم يسعـد بالقليل فى حينه .. لن يسـعد أيضا بالكثيـر حين يجىء ، لأنه قد فقـد الرضا منذ زمن طويل وخـسر أشيـاء جوهرية فى روحـه لا يعيـدها إليه مال ولا جاه .

فـإذا هاجـمت الإنســان نوبة مـن نوبات الضـعف البـشـرى .. وتشكي من أقداره وقلة رزقه ونعى على نفسه حرمانها مما يتمتع به الآخرون ، فـاحرى به أن يقـيس المسافة بين نقطة الـبداية التى انطلق منها .. وبين النقطة التى يقف عندها الآن شاكـيا متسخطا ،

ليعرف أنه يمضى على الطريق ولا يرجع إلى الوراء .. لكن آفة بعض البشر أنهم يعكسون الآية ولا يلتفتون للوراء .. وإنما يقيسون فقط المسافة بين النقطة التى يقفون فوقها الآن وبين خط النهاية الواعد بتلبية كل الرغبات وتحقيق كل الأهداف .. فيتولاهم الضيق ويستهولون بُعد الطريق . ويشعرون أنهم يتقهقرون عن غيرهم فى نفس السباق ولا يتقدمون وهذا خطأ بشرى شائع أيضا.

لهذا فإنه من واجب الإنسان أن يتذكر البدايات دائما لكى يرضى عما قطع من أشواط على الطريق ويتجدد لديه الأمل فى بلوغ الشاطىء الموعود ذات يوم قريب .. والمهم أولا وقبل كل شىء هو ألا يبدد أيامه فى السخط والتشكى ولوم الحياة على أقداره فيها .. وأن يرد نفسه دائما إلى الرضا عما أتيح له من أسباب وإلى الإيمان بربه وغده ومستقبله وأن يتذكر دائما أن لكل إنسان من حظه ما يرضى عنه .. ومن قدره ما يشقى به مهما بلغ من شان فى الحياة لأن الأقدار تتساوى فى النهاية ومهما بدا لنا غير ذلك ، وقديما قال العقاد العملاق :

لا تحسدن غنيا فى تنعمه   قد يكثر المال مقرونا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت مواردها   والماء عند ازدياد النيل يعتكر

ولو خير عاقل بين وفرة المال المقرون بالكدر .. وبين حياة بسيطة مقرونة بالسعادة والصحة والوئام لما تردد فى اختيار الأخيرة .

وكل زوجين شابين ينبغى لهما أن يستمتعا بمرحلة البداية وأن يقبلا بصعوباتها ويتطلعا بقلب يخفق بالأمل دائما إلى الغد وإلى نصيبهما العادل من الحياة ، ومن أجمل ما قرأت للكاتبة الأمريكية دوروثى كارينجى قولها لكل زوجة شابة : إن مساعدة رجل على بلوغ النجاح هو فى حد ذاته عمل يمكن أن تختاره الزوجة لنفسها وتكتفى به وترضى عنه وتسعد بكل ما تحققه من إنجازات فى سبيله .

ومن المهم كثيرا بالفعل أن تـؤمن كل زوجة بزوجها .. وبقدرته على تحقيق نجـاحه وأهدافه وأهداف أسرته الصغـيرة حين يجيء الأوان وأن تشعـره بالرضا عـن حياتهـا ، وبتقـديرها لكفـاحه فى الحياة من أجل إسعـادها وإسعاد أسرتها .. فهـذا « الإيمان » نفسه هو خير معين له على الكفاح من أجل بلوغ الأهداف ..

وليس كالحب والعطف والوئام والتـراحم بين الزوجين ... من دواء ناجع لكل « نوبـات » السـخط العـارضـة على الأوضـاع فى حياة الإنسان .

وليس كالإيمان برب السماء .. ونبـع الحكمة الإلهية من عاصم للإنسـان مما قـد توسـوس له نفسـه الأمـارة بالسـوء فى بعض الأحيـان .. فيهـز الإنسان رأسـه بعنف كأنما يطرد منهـا وساوس الشيطان .. ويـتلفت حوله راضيـا عمـا أجزلت له السمـاء العطاء فيه.. ويشكر ربه عليه .. ويدعوه أن يحفظه له .. ويردد قول الحق سبحانه وتعالى مؤمنا ومصدقا : « قل متاع الدنيا قليل » مهما بلغ شـانه .. ويردد أيضـا مؤمنا ومـصـدقـا « والعاقـبـة للمـتقـين » والشاكـرين والراضيـن .. جعلك الله وإيانا منهم .. مع تمنيـاتى لك ولأسرتك بالسعادة والأمان .

أما كاتبـة رسالة « أدب الحياة » التى ذكرتنـى بها بعد كل هذه السنوات وأرسلت إلىّ صـورة منها أعـادتنى إلى أجوائهـا الطيـبة المعطرة ، فلست أعرف للأسف الشيء الكثيـر عنها .. وأرجو الله أن تكون بخير هى وأسرتها وأن تكون جوائـز السماء قد هبطت عليها جزاء وفاقـا لقناعتها ورضاها وفهـمها الصحيح لحقـائق الحياة .. وشكرا .

كبرياء الألم!

أكتب رسالتى هذه إليك وكلى أمل فى أن أجد لديك العون الذى احتاج إليه بشدة الآن . فأنا رجل فى الخمسينيات من عمرى .. وزوجتى تصغرنى بعام واحد .. وقد تزوجنا منذ ٢٥ عاما .. وكانت هى ابنة الجيران التى تتمتع بالجمال والجاذبية .. وكنت الشاب الذى يحاول بشتى الطرق جذب انتباهها .. ويتردد بين مواصلة هذه المحاولات .. وبين التوقف عنها رعاية لعلاقة الصداقة بين شقيقى وشقيقها .. ولأنها أيضا قد خطبت خلال هذه الفترة ثلاث مرات ، لكن حبى لها دفعنى بالرغم من ذلك لانتظار الفرصة للتقدم إليها إلى أن جاءت الفرصة وتقدمت إليها وتزوجنا بالفعل وانجبنا بعد العام الأول من الزواج أول ابنائنا ، ومضت حياتنا فى هدوء مشوب دائما بالتوتر ، وكان السبب فى ذلك هو اختلاف الطباع بيننا فزوجتى متحررة أكثر من اللازم ، وأنا متحفظ أيضا أكثر من اللازم ، لذلك فقد تراوحت علاقتنا دائما بين الشد والجذب ، وكثر ذهاب زوجتى إلى بيت أسرتها فى كل وقت فكان هذا سببا آخر من أسباب الخلاف بيننا ، إلى جانب عزوفها شبه المستمر عن التجاوب العاطفى معى ، حيث لم يحدث طوال زواجنا أن وافقت على أن نخرج معا كأى زوجين للترويح عن النفس سوى مرات قليلة تعد على أصابع اليد ، لكن رغبتى فى الحفاظ على بيتى كانت تتغلب علىّ دائما فأتجاوز عن الخلافات وأرضخ فى النهاية وأنا غير راض فى أعماقى ، إلى أن بدأت زوجتى تشكو منذ سنوات من بعض المتاعب فى جهة عملها وتسعى بكل الطرق للانتقال منه إلى هيئة

أخرى ، فساعدتها فى ذلك بقدر ما استطيع ، وساءت حالتها النفسية كثيرا خلال ذلك وفسرت ذلك بمتاعبها فى العمل ، ثم تم النقل أخيرا هذا العام وبدأت أعصابها تهدأ وتستريح ، ثم سافرت منذ شهور إلى الخارج فى مهمة عمل ورجعت منها فوجدت زوجتى قد تغيرت كثيرا .. وبدأت تختلق الأعذار للخروج كل يوم تقريبا بصحبة أحد الأبناء ، وتثور لأتفه الأسباب وتختلق المشاكل مع الأبناء فى عز موسم الامتحانات وتسىء معاملتى إلى أقصى حد بغير سبب واضح ، وخلال ذلك بدأت استقبل مكالمات غريبة من آنسة أو سيدة لا أعرفها تبثنى فيها على غير سابق معرفة حبها وهيامها ، فهدانى تفكيرى لأن أعطيها رقم تليفونى المحمول .. لكى استطيع معرفة الرقم الذى تتحدث منه إذا اتصلت بى ، حيث يظهر رقم الطالب على شاشته ، وبالفعل اتصلت بى فيه وعرفت الرقم وسجلته عندى ، ولاحظت أن هذه الفتاة تتعمد الاتصال بى فى البيت خلال غيابى عنه فإذا رد عليها أحد أبنائى قالت له فى بجاحة أنها سوف تتصل بى مرة أخرى غدا فى نفس الموعد .. وتطلب أن أكون موجودا ! وسألت زوجتى عما تشير علىّ بأن أفعله إزاء هذا الموقف فكانت تجيبنى ببرود وبلا أدنى اكتراث بأننى حر فى أن أفعل ما أشاء !

ومنذ حوالى شهرين كنت مدعوا إلى حفل عام مساء أحد أيام الخميس ، وطلبت من زوجتى أن تصحبنى إليه كما تفعل كل الزوجات لكنها اعتذرت عن ذلك بطريقة جافة ، ثم رجعت بعد نهاية الحفل فقابلتنى بوجه شديد التجهم وكأننى قد ارتكبت جرما لا أعرفه .. وفى يوم كنت أقلب بالصدفة فى أدراج المكتب بالبيت ، فإذا بى أعثر على مجموعة من الخطابات والرسائل بخط زوجتى وموجهة إلى شخص لا أعرفه أو لم أكن أعرفه حتى ذلك الوقت ، تصف فيها حياتها السابقة على معرفتها به بأنها كانت حياة بائسة وخالية من كل معنى .. وكيف أنها تعمل بكل الطرق الممكنة للتخلص من زوجها ، لكى ترتبط به لأنها تشعر معه بما لم تشعر به أبدا مع زوجها الذى هو أنا للأسف ، وكيف أن حياتها مع هذا الشخص ستكون مختلفة تماما عن حياتها معى .. إذ

ستكون معه فى كل مكان فى عمله الصباحى وعمله المسائى وفى الحل والترحال لأن لهيب الحب لن يسمح لها أن تدعه يبتعد عن عينيها لحظة واحدة !

وصدمت صدمة مروعة وأنا أقرأ هذه الرسائل المؤلمة .. وتصبب العرق من وجهى وشعرت بالبرودة تسرى فى جسدى .. وجلست ذاهلا أفكر فى حياتى .. وفيما فعلت طوال ٢٥ عاما لاجتذاب مشاعرها تجاهى بلا فائدة ، ولم أستطع كتمان همى الثقيل طويلا ، وواجهتها بما عرفت وما قرأت فى رسائلها .. وفوجئت بها بكل جرأة تقول لى إننى السبب فيما حدث لأننى كنت دائم الاختلاف معها حول كل شىء ، فى حين كان الطرف الآخر يُسمعها حلو الكلام فضعفت معه واستجابت له، أما حديثها عن الحياة الجميلة معه فليس سوى حلم من أحلام اليقظة ، لأنها لم تخنِّى بالمعنى الشائع لهذه الكلمة البغيضة بدليل أنها لم تسلم هذه الرسائل إلى الطرف الآخر وإنما احتفظت بها لنفسها كنوع من الخواطر السرية التى لا يطلع عليها سوى صاحبها ! وصدقتها يا سيدى فى ذلك رغم معاناتى الشديدة .. فلقد كنت أفكر فى مصير أبنائى الذين مازال أصغرهم بالمرحلة الاعدادية .. وأعرف أيضا أن هذه الآثار لن تقتصر على الأبناء وحدهم وإنما ستمتد إليها هى نفسها ، لأنها عنيدة للغاية وقادرة على الاستغناء عن أى شىء فى الوجود فى سبيل تحقيق ما تريده ، وهكذا تغاضيت صاغرا عما حدث بشرط ألا تعاود الاتصال بذلك الشخص الذى أشارت إليه فى رسائلها وألا تذهب إلى الجهة التى يعمل بها لأى سبب من الأسباب لكن الشك لم يفارقنى بالرغم من ذلك .. والمنى أكثر أنها لم تحاول أن تتقرب منى وأنا فى قمة انهيارى وتأثرى بما حدث .. ومع ذلك فقد حاولت حل المشكلة بعيدا عن الأبناء وخرجنا سويا وحدنا لكى نتحدث عن حياتنا ونحاول الاقتراب من بعضنا البعض ، وحدث بعض التقارب بالفعل ، لكن إحساسى بالجرح الغائر حطمنى ، فازددت عصبية وازددت زهدا فى الحياة ، وفقدت معظم قدرتى على التركيز مع أن عملى يتطلب حضورا ذهنيا عاليا . ورغم ألمى وشرودى فقد لاحظت أن الاتصالات

التليفونية من جانب الفتاة التى كانت تزعم أنها تهيم بى شوقا وولها قد توقفت نهائيا بغير مقدمات ! وعرفت خلال ذلك أن الرقم الذى كانت تتحدث منه فى مكتب ذلك الشخص موضوع الرسائل .

ولم ينته الموقف رغم مرارته عند هذا الحد فلقد فوجئت بزوجتى أثناء جلوسنا معا منذ أيام تطلب منى طلبا غريبا هو أن أسمح لها بالاتصال بهذا الشخص ولو لمرة واحدة كل أسبوع ، فإذا لم أقبل بذلك فإننى استطيع أن أطلقها سرا ، وأن تبقى فى البيت كما كان الحال من قبل وأمام الأبناء بغير أن يعرفوا بطلاقنا ، وتتولى هى خدمة الجميع وإدارة البيت كما كانت تفعل ومع اختلاف بسيط هو ألا نتعامل معا كزوج وزوجة لأنها سوف تتزوج عرفيا من ذلك الشخص ، ولا يحق لى بعد ذلك أن اعترض على سلوكها معه .. أو على خروجها أو اتصالها به ، فهل تصدق هذا ؟

لقد ذهلت مما قالته لى واشتدت وطأة الجرح الغائر علىّ . وأجبتها بأنها إذا كانت هذه هى رغبتها حقا فإننى لن أطلقها إلا فى العلن وأمام الجميع لأننى لا أستطيع أن أفعل ما يغضب ربى ، ولأن فيما تطلبه منى امتهانا لى ولها وللأبناء ، وحدثتها طويلا فى ذلك وراحت هى تدافع باستماتة عن تلك الفكرة المجنونة ، وانتهى الحديث بيننا بأن أعطيتها مهلة لأسبوع واحد تختار خلاله بين الانفصال العلنى .. وبين ترك هذه الهواجس الشيطانية محذرا إياها من أن الله يمهل ولا يهمل وأنها ينبغى لها أن تعود إلى ربها وتنسى هذه النزوة الشيطانية فى أقرب وقت .

ولست أدرى ماذا سينتهى إليه هذا الموقف الغريب الذى أواجهه الآن يا سيدى ، وقد كتبت إليك لتشير علىّ بما أفعل إزاءه فى حدود الشرع والدين ، ولأطلب منك أيضا أن توجه كلمة إلى كل زوجة ساخطة على زوجها وأولادها ، تعيدها بها إلى صوابها ، وتذكرها بما سيشعر به أبناؤها من صدمة هائلة حين يكتشفون سلوكها أو فى حالة انفصالها عن زوجها لمثل هذا السبب كما ذكرت مرارا فى ردودك على رسائل بريد الجمعة ، ولأطلب منك أيضا أن تدعو كل زوجة إلى ألا تغضب ربها بدون أسباب سوى العند والتكبر والتقليد .. فماذا تقول لى بعد كل ذلك ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

حين تدير لنا لأيام ظهرها وتحرمنا من السعادة التى نرتجيها ، فإن الأكرم لنا إذا كان الاختيار الوحيد أمامنا بين أمرين أحلاهما مر، هو أن يكون ألمنا نبيلا شريفا ،وليس ألما ذليلا خانعا، وللأسف فإن الاختيار الذى تواجهه الآن هو بين هذين النوعين من الألم وحدهما .. أى بين الألم النبيل الذى لا نفقد معه الاعتبار والكرامة الإنسانية وبين الألم الذليل الذى نتجرع مع مرارته علقم الهوان والإذلال البشرى ، والقبول بما لا يرضاه الحر لنفسه ، ولا مجال فى الحقيقة للاختيار أمامك سوى أن تعتصم بما أسميه أحيانا بكبرياء الألم ، أى بالإحساس بأنك قد اخترت الكرامة الإنسانية وعدم التفريط فى شرفك وحقوقك كإنسان وزوج ، ولو تجرعت فى سبيل ذلك أقسى آلام الهجر والتعاسة والفشل وانهيار الحياة المستقرة ، وهو الاختيار الذى ينبغى لك أن تحسمه الآن بغير تردد فالحق أنك قد خطوت بالفعل بضع خطوات على ذلك الطريق المنحدر الذى لا يقود الإنسان فى النهاية إلا إلى هاوية التفريط والتنازل ، ولقد كانت خطوتك الأولى عليه حين ترددت ، أمام اتخاذ القرار الوحيد الملائم بشأن حياتك مع زوجتك ، عندما اكتشفت خيانتها لك مهما كانت تبعات ذلك القرار وآلامه الإنسانية والنفسية ، ولأن السير فى الطريق المنحدر لا يقود إلا إلى نقطة أدنى من النقطة التى تسبقها ، فلقد وجدت نفسك الآن أمام هذا الاختيار العجيب الذى تريد زوجتك بجرأة تصل إلى حد الفحش والمجاهرة بالخطأ أن تفرضه عليك ، وهو إما السماح لها بالاتصال بهذا الشخص الذى ملك عليها قلبها ومشاعرها ، وبغير اعتراض من جانبك على ذلك ، وإما الانفصال عنها سرا مع استمرار حياتكما معا فى العلن كزوجين وأبوين فى حين ترتبط هى بعلاقة زوجية أو غير زوجية مع الشخص الآخر ، ولست أدرى كيف قبلتَ من الأصل أن تناقش معها هذا العرض الفاجر من جانبها ، ولا كيف

قدمتَ أنت لها بدلا منه اقتراحا مضادا ، هو أن تنصرف عن هذه الفكرة المجنونة أو تطلقها طلاقا علنيا يتحمل الطرفان تبعاته أمام الأبناء والمجتمع .

فلقد كان التصرف الوحيد المقبول من جانبك عند سماع هذه الفكرة الفاجرة منها هو أن توقن بأن كل محاولات الإصلاح ومحاولات اعادتها إلى رشدها وتذكيرها بمسئولياتها العائلية ، غير مجدية ولا أمل فيها ولا رجاء وبالتالى فلا مجال لمواصلة الجهود على طريقها ولا موضوع للحديث إلا عن الطلاق وشروطه وكيفية تخفيف آثاره على الأبناء واحتوائها ، أما مجرد المناقشة فى أمر السماح لها بالاتصال بشخص آخر وهى زوجة وأم وعرضها على مائدة البحث ورفضها فليس سوى خطوة أخطر على طريق الانحدار والتفريط ، وأما رجاؤها بأن تصرف نظرا عن هذه الفكرة الفاجرة أو تقبل بالانفصال العلنى فليس أيضا سوى تهديد أجوف ، لن يحدث أثره المرجو لديها لأن من هتكت ستر الحياء أمام زوجها على هذا النحو ، لن يؤثر فيها تهديد ولا وعيد ، كما أن من لم ترع حقوق أبنائها عليها ولم تتحرج مما سوف يشعرون به من ألم « وعار » لسلوكها هذا مع شخص آخر غير أبيهم لا يؤمل المرء فيها كثيرا أن ترد نفسها عن رغبة استولت عليها وفاتحت زوجها فيها محاولة ارغامه على القبول ، بما لا يقبل به أحد لنفسه أو الانفصال عنه .

وفى بعض الأحيان فإن التسليم بالهزيمة والفشل قد يكون أكرم للمرء من أن يواصل امتهان نفسه فى محاولة بلوغ ما لن يبلغه أبدا من أهداف ، مهما قدم من تنازلات فى سبيلها .

وأحسب أنك الآن يا سيدى قد بلغت هذه النقطة المؤلمة التى ينبغى لك أن تسلم فيها بالهزيمة والفشل فى محاولة كسب مشاعر هذه السيدة ، أو محاولة إعادتها إلى رشدها وتذكيرها بمسئولياتها الإنسانية والأخلاقية تجاه أبنائها ولهذا فمن الأكرم لك ولها أن تقبل بالانفصال الكامل العلنى عنها وتتحمل تبعاته ،

مرغما بعد أن بذلت الكثير من نفسك ومن حقوقك كرجل فى سبيل الحفاظ عليها ، وحماية الأسرة من الانهيار ، وحماية الأبناء من تجرع مرارة الانفصال .

ولا عجب فى أن أقول لك ذلك رغم كراهيتى العميقة لتعريض الأبناء لمثل هذه المحنة بسبب استجابة أحد الأبوين لنداء العاطفة فى سن الاحترام والوقار ، لكنه لابد مما ليس منه بد فى بعض الأحيان ولابد أيضا من أن يكون الحرص على الأبناء متبادلا بين الطرفين ومتكافئا ، وإلا تحول إلى سلاح مدمر فى يد أحدهما لإرغام الآخر على القبول بما لا يقبل به الحر لنفسه . ومن عجب حقا أن زوجتك تريد أن تفوز بكل شيء وبغير أن تخسر شيئا ، أو تتحمل أية تبعات لاختيارها الاستجابة لنداء العاطفة على حساب حقوق أبنائها وزوجها عليها ، فهى تريد أن تحول حلم اليقظة الذى يراودها إلى حقيقة ، لكنها لا تريد فى الوقت نفسه أن تفقد شكل الأسرة المحترم ولا مشاعر الأبناء تجاهها ولا احترام الأهل والأصدقاء لها ، لهذا فقد عرضت عليك هذا الحل المبتكر الذى يحقق لها كل ما تريد ولا تدفع له أية ضريبة ، ولا يتحمل أحد ضريبة الألم فيه والغدر ومرارة الغيرة والإحساس بالهوان سواك .

يا إلهى إلى هذا الحد قد تبلغ القسوة أحيانا ببعض البشر تجاه من حملوا لهم الحب وتجرعوا منهم كل ألوان الهوان على مر السنين ؟

إننى أجد نفسى مضطرا لأن أقول لك إن هذه السيدة لم تحمل لك فى يوم من الأيام أية ذرة من مشاعر الحب والاعتزاز ، التى حملتها لها منذ كنت شابا صغيرا ، وأنها لم تقبل بك إلا بعد تكرار فشلها فى خطباتها المتوالية ، لهذا فقد كانت علاقتك بها طوال رحلة زواجك منها علاقة حب من طرف واحد ، وعلاقة تجبر وفرض للإرادة والرغبات من جانب الطرف الآخر .. فاما جرأتها عند مواجهتك لها بالخيانة وزعمها لك أنك « السبب » فيما تدهورت إليه فليست سوى محاولة مالوفة من جانب من لا يريد الاعتراف بخطئه ، ويحاول دائما أن يلتمس لأخطائه التبرير

النفسي بادعاء مسئولية الغير عنها ، مع أن الخطأ - حتى مع افتراض وجوده من الأصل - لا يبرر الخطأ ومع أن الإنسان لا يلتزم بالطريق القويم في الحياة امتنانا للآخرين الذين أحسنوا معاملته وإنما التزاما بمبادئه الأخلاقية ، والدينية ، واحتراما للنفس .. وحرصا على الأعزاء من أن يسبهم الآخرون بسلوكه المنحرف فيجلب لهم التعاسة ، بدلا من أن يحرص على إسعادهم ويعلي مصالحهم على كل الاعتبارات .

إنها حيلة نفسية قديمة ومألوفة لتبرير الأخطاء والتماس الاعذار للنفس ، مثلها في ذلك مثل تلك الحيلة الأخرى الرخيصة التى حاولت بها زوجتك شغلك عنها ، لكى تتخفف بعض الشيء من وطأة مراقبتك لها ، وهي حيلة تحريض سيدة أو فتاة على الزوج لكي تبثه غرامها المزيف ، وتشغله بمغامرة نسائية وهمية عن التدقيق في سلوكيات زوجته .. ولإظهاره أمام الأبناء بمظهر الرجل العابث الذى لا يحترم رابطة الزوجية المقدسة ولا يرعى مشاعر الأبناء ، فإذا وقعت الواقعة وانفجر الموقف بين الزوجين ظهر « الطرفان » وكأنهما متعادلان في الخيانة .. وضعف موقف الزوج أمام زوجته ، وحق للزوجة أن « تشكو » من خيانة زوجها لها ، مما دفعها إلى طريق الهاوية ، أو حاولت أن تقنع الأبناء بأنها لم تكن الطرف المخطيء الوحيد في العلاقة ، وأن الأب كذلك قد أخطأ فأعطاها بخطئه المبرر النفسي للاقتراب من الدائرة المحرمة ، وكل ذلك عبث من العبث ، ومن ألاعيب الخيانة المألوفة ، ومن حيل الإنسان الذى لا يجيد شيئا كما يجيد خداع نفسه ومحاولة تبرير أخطائها وانحرافاتها .

يا سيدى ، إننى أنصحك بأن تعتصم بكبرياء الألم وألا تنتظر قرار زوجتك في حياتها معك ، فبعض الكرامة الإنسانية يتمثل أحيانا في قدرتنا على أن نستغنى عمَّن يتصور أنه لا غنى لنا عنه .. وأن نتحمل آلام هذا الاستغناء الاضطرارى المؤلم في صمت وكبرياء إلى أن تشفى الجراح .. وتغسل الأيام أحزاننا .. ويعوضنا الله عما خسرنا بعض الجزاء .. ولن أزيد كلمة أخرى .. وشكرا.

النظرات الصامتة !

أنا مهندس شاب تخرجت منذ ثلاث سنوات ، وحين التحقت بكليتى وهى إحدى كليات الأقاليم لفتت نظرى فى السنة الإعدادية فتاة كالملاك شدتنى إليها بجمالها وأخلاقياتها ، فتقاربنا وعرفت منها أن لها أختا بنفس السنة الدراسية بالكلية لكنها لم تنتظم فى الدراسة بها طويلا لإحساسها بأنها لن تنجح فيها وسوف تحول أوراقها إذا رسبت إلى كلية نظرية فى العام الجديد ، وظهرت نتيجة العام الدراسى الأول فكنت أول الدفعة وكانت فتاتى الثانية ، واعتزمت الإلتحاق بأحد أقسام الكلية التى أفضلها ، لكن فتاتى كانت قد اختارت قسما آخر لا أحبه ، وحاولت معها طويلا أن تغيره كيلا نفترق فى الدراسة فلم تقتنع ، ولم أجد مفرا من تغيير دراستى أنا والانتقال إلى قسمها ، وبذلت جهدا خارقا للتواؤم مع نوع الدراسة التى لا أحبها والتفوق فيها ، وظهرت نتيجة الامتحان فى نهاية السنة فجاءت فتاتى الأولى وجئت أنا فى الترتيب الثانى ، وظللنا نتبادل الترتيب الأول والثانى طوال سنوات الدراسة ، وكانت فتاتى تقول لى دائما أنها لن تتزوج إلا معيدا فى الكلية ، فأعدها بأن أكون كذلك ، إلى أن جاءت السنة النهائية وتوفى أبى يرحمه الله قبيل الامتحان بأسابيع وحزنت لرحيله حزنا شديدا أثر على تركيزى فى دراستى ، وأديت الامتحان النهائى وأنا مشوش الفكر، فإذا بترتيبى بنظام التقديرات التراكمية يبعدنى عن المراكز الأولى .. وإذا بفتاتى تعين معيدة بالكلية دونى وبالرغم من سعى رئيس القسم لتعييننا معا .

وانهرت لذلك نفسيا وامضيت بضعة أسابيع فى البيت لا أغادره ولم تسأل عنى فتاتى خلالها سوى بضع مرات ، ثم اتصل بى استاذى يدعونى للخروج من عزلتى والالتحاق بالدراسات العليا ، فاستجبت له وعدت للكلية والتقيت بفتاتى وعاتبتها لعدم اتصالها بى لفترة طويلة ، فلامتنى على انهيارى بسبب عدم التعيين كمعيد وطلبت منى مواجهة الموقف كرجل وليس كطفل صغير ، وبررت عدم اتصالها بى بانشغالها بعملها الجديد ، وبعد هذه المقابلة قررت أن أؤجل موضوع الزواج إلى ما بعد الحصول على الماجستير والالتحاق بعمل مناسب ، ولاحظت أن فتاتى بعد ذلك لم تعد تتحدث معى حين نلتقى ، وإنما تكتفى بالنظرات الصامتة التى تنطق بالحب ومضت ثلاث سنوات اجتزت خلالها الدراسات التمهيدية وقطعت شوطا كبيرا فى رسالة الماجستير ، فإذا بى التقى بشقيقة فتاتى بالكلية وإذا بها تبلغنى بأن اختها سوف تتزوج من شاب يعمل بإحدى الدول العربية بعد أسبوع واحد ، وثرت عليها ثورة عارمة تحملتنى خلالها بصبر وأدب ، وسألتها كيف لا تبلغنى اختها بذلك إلا قبل أسبوع واحد من الزفاف ، واسودت الدنيا فى وجهى ، وتوجهت إلى بيت فتاتى والتقيت بوالدها وطلبت منه يد ابنته فأجابنى بصرامة بأن الموضوع منته وأن ابنته فى حكم المتزوجة وانصرفت مخذولا وذهبت إلى الكلية لأبحث عن فتاتى واسألها كيف فعلت بى ذلك ، فإذا بها قد حصلت على اجازة لمدة شهر ، وانهرت مرة اخرى كما انهرت حين فقدت ابى وحين فقدت فرصتى فى التعيين كمعيد واهملت مظهرى ودراستى وعجزت عن الاستمرار فى اى عمل خارج مدينتى حيث لا أجد مجالا لتخصصى سوى خارجها لاكثر من اسبوعين ثم أرجع تاركا العمل لاذهب للكلية لارى فتاتى عن بعد ، أو اطوف ببيتها لعلى اراها وافصل من هذا العمل بعد حين ، اما هى فقد اصبحت لا تطيق رؤيتى لانى اذكرها بما تريد أن تنساه ! ولقد نصحتنى اختها التى اراها فى كليتها بأن احاول نسيانها ، وان افكر فى غيرها مؤكدة لى أن هناك كثيرات يتمنين الارتباط بى ، لكن هيهات يا سيدى أن استطيع ذلك فلقد واصلت محاولة رؤيتها عن بعد او عن

قرب كما واصلت الطواف ببيتها كل حين لاكثر من سنة حتى الآن إلى ان جاءتنى فرصة للعمل فى إحدى الدول العربية وبدأت استعد للسفر ، وكنت قد لاحظت أن شقيقة فتاتى تتقرب إلىّ خلال هذه الفترة لكنى لم أعرف هل تقترب منى بدافع الحب أم هو اقتراب جريح من جريح مثله وهى التى فقدت ارتباطها هى الاخرى بجار لها ؟

لكنى وجدت نفسى أفكر فيها رغم ذلك واريد أن تشير على بالرأى السديد فى هذا الاختيار الصعب الذى أواجهه وهو هل تنصحنى بأن اقترح عليها أن تتزوجنى قبل السفر ، أم هل أسافر بغير مفاتحتها فى ذلك .. وأخشى فى هذه الحالة ألا احتمل البعد طويلا وأن أرجع بعد فترة قصيرة بغير أن أحقق لنفسى شيئا ، وتضيع على فرصة جيدة للعمل .. وإننى أرجو أن تسرع بالرد على قبل فوات الأوان وشكرا لك مقدما !

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

معظم من يعانون من محنة الحب من طرف واحد يعولون كثيرا على مسالة النظرات الصامتة هذه ، ويحملونها ويحملون كل اللفتات العابرة التى قد تصدر عفوا عن الطرف الآخر أكثر مما تحتمل ، ويتلمسون غالبا فى أبسط الأشياء والتصرفات ، ما يطمئن قلوبهم الحائرة إلى أن لهم نصيبا فى قلوب من يحبون مع أن المرأة قد تخفى الكراهية ٤٠ عاما كما قال أحد الأدباء لكنها لا تستطيع إخفاء الحب يوما واحدا مهما جاهدت نفسها لمداراته كما أن « الألسنة » لم تعد تتردد فى التعبير الصريح عن المشاعر.. فما معنى التعويل إذن على هذه النظرات الخرساء وبناء قصور الأحلام والأوهام فوق رمالها الهشة ؟

إن الواضح يا صديقى هو إنك واحد ممن يعانون هذه المحنة وهى ليست محنة هينة لأنها فى بعض مضاعفاتها وإذا لم يتداركها الإنسان بالإرادة العاقلة قد تتخذ أطوارا شبه هيستيرية تؤثر ابلغ الاثر فى حياة الإنسان وقد تفسد عليه أمره

وحياته سنين طوالا ، كما أنه من الواضح أيضا أنك قد حمّلت علاقة الزمالة والتنافس الدراسي بينك وبين فتاتك هذه أكثر مما كانت تمثل بالنسبة لها فحمل قلبك الغض لها طوفانا من المشاعر الغلابة ، لم تجد ما يكافئها أو يقاربها في قلب هذه الفتاة ، أو لعلك وهو الأرجح كنت بالنسبة لها زميلا واعدا بالتفوق والنبوغ ، ويمكن أن ترتبط به في المستقبل ، لكن تكرار انهياراتك أمام اختبارات الحياة المختلفة قد أثار لديها شكوكها في صلابة شخصيتك وقدرتك على أن تكون زوجا قادرا على حمايتها إذا ارتبطت بك في المستقبل ، وكل فتاة في النهاية مهما كانت قوة شخصيتها وتفوقها العلمي تتطلع لأن ترتبط بإنسان تجد لديه الحماية النفسية والسند الذي تستند إليه في رحلة الحياة ، ولا يرضيها أن تكون هي السند والدعامة التي تقيم ظهر شريك حياتها ، لهذا فقد انصرفت عنك « بتفكيرها فيك كزوج للمستقبل » بعد الانهيار الثاني أمام مشكلة عدم التعيين كمعيد ، ولم تنصرف عنك بمشاعرها لأن هذه المشاعر لم تكن غالبا قائمة منذ البداية ، أو ربما كانت قائمة لكنها لم تكن قوية أو حقيقية بحيث تصمد لتخوفها مما بدا لها من هشاشتك في مواجهة مواقف الحياة الصعبة . كما أنك من ناحية أخرى قد أمضيت ثلاث سنوات أخرى بعد التخرج دون أن تقدم على خطوة جدية واحدة على طريق الارتباط بها ، فلا لوم عليها - إذن - إذا هي ارتبطت بغيرك ، ولا معنى لمحاولتك اليائسة لخطبتها بعد فوات الأوان،أما ملاحقتك لها في الكلية لكي تراها عن قرب أو عن بعد ، بعد ارتباطها وبعد أن أصبحت لا تطيق رؤيتك ، وأما طوافك ببيتها طواف العاشق الولهان باطلال بيتها هاتفا مع الشاعر الراحل إبراهيم ناجي :

أين ناديك وأين السمر ... أين أهلوك بساطا وندامى
كلما أرسلت عيني تنظر ... وثب الدمع إلى عيني وغاما !

أما كل ذلك يا صديقي فمما يؤسف له ومما يثير الإشفاق عليك حقا ، خاصة وقد بدأت به « طورا » آخر من أطوار هذه الحالة ،

وهو عدم الصبر على العمل فى مدينة أخـرى غير مدينتك لأكثر من أسبـوعين تضحـى بعـدهما بعملك وترجع لـكى تتنفس « الهواء » الذى تتنفسه فتاتك وتلاحقها بنظراتك وطوافك المحزن حول بيتها.

ولقـد كان من الممكن أن تـظل المأساة العـاطفـية الصـغيـرة فى حـدودهـا المألوفـة إلى أن يـؤدى الزمن دوره الخـالد وتـسلو هذه الفـتاة وترتبط بغـيـرها ، لولا أنك قد اقـتربـت من منطقة شـائكة وخطيرة وتنذر بأوخم العواقب ، وهى شقيقة فتاتك !

فانت تسألنى هل تفاتحـها فى الزواج قبل السفر أم تسافر بغير مفـاتحتـها ، وفى هذه الحـالة فإنك تخـشى ألا تصبـر على البـعد طويلا وان ترجع بغير أن تصنع لنفسك شيئـا وتفقد فرصة العمل التى أتيحت لك ! وسؤالى لك بدورى هو : ولمن سـترجع إذا رجعت يا صديقى المعذب ؟ إلى من تفكر فى خطـبتها أم إلى شقيقـتها التى تتـوسل بخطبـتك لأختـهـا لكى تدخل دنياهـا من طريق مشـروع وتواصل حبك الغلاب لها فى القرب والبعد ..؟

إنك إن رجعت فسوف ترجع إلى فتاتك السابقة التى مازال حبك لها يغلبك علـى أمرك ، وما تفكيـرك فى الارتباط بشقيـقتهـا سوى حـيلة.نفـسـية أخـرى كى تدخل عـالمهـا من البـاب العـائلى الذى لا تسـتطيع له صـدا بعـد أن أغلـقت هى فى وجـهك باب الزمـالة والكليــة ، فــإذا كـانـت لا تطيق رؤيتك الآن فـلسـوف تـضطرها الالتزامات العائلية إلى التعامل معك فى الحدود العائلية المألوفة ، ولسوف تـواصل أنت « التعبـد » فى محـرابها صـامتـا ، ولسوف تتلمس فى النظرة العابرة .. واللـفتة الشاردة ما تفـسره أنت بأنه « إشارة » على أنهـا لم تنس ما تتصـور أنها تريد نسيـانه ، فأين شقيقة فتاتك من كل ذلك يا صديقى ؟

وكـيف يقبل ضـمـيـرك أن ترتبط بهـا لكى تجعل منهـا مدخـلا مشروعا للاقتراب من شقيقتها التى تعانى من حبها القاهر لإرادتك إلى الحد الذى غير مسار دراستك من القسم الذى أردته أنت للقسم الذى التحقت هى به ، وإلى الحد الذى يحرمك من الاستقرار فى أى

عمل بعيد عن مدينتها لأكثر من أسبوعين ؟

إنك سوف تظلم هذه الفتاة التى لا ذنب لها معك حتى ولو تزوجتها وانجبت منها كما سوف تظلم نفسك أشد الظلم وتحرمها من الاستقرار وراحة القلب إلى ما لا نهاية ، لأن دخولك دنيا فتاتك ولو من الباب العائلى سوف يبقى شعلة حبك لها متأججة على الدوام .. ولسوف يتلظى اللهب دائما كلما تلقى نظرة طائشة أو كلمة عفوية غير مقصودة تشى ببعض الود لك .

فلا تعذب نفسك أكثر مما عذبتها حتى الآن بهذا الحب الذى يقترب بك من الحدود الهيستيرية الخطيرة ، ولا تعذب شقيقة فتاتك هذه معك ، وسافر إلى عملك راشدا ومصحوبا بالسلامة وبغير أن تفاتح هذه الفتاة أو غيرها الآن فى الزواج وانشغل بحياتك الجديدة وطموحك لبناء مستقبلك وانغمس فى العمل بكل طاقتك واهتمامك .

إلى أن يأذن الله لك ببداية جديدة مع إنسانة أخرى والسلام .

كشف الأسرار !

اكتب لك هذه الرسالة وأنا في مرحلة النقاهة من أزمة صحية ألمت بى مؤخرا فأنا رجل متوسط العمر بدأت كفاحى فى الحياة عقب تخرجى مباشرة فى كليتى ، فعملت بوظيفة حكومية فى الصباح ، وبعمل خاص بى فى المساء ، وأعطيت العملين كل جهدى وفكرى وطاقتى فكانت ساعات عملى تطول إلى ١٥ ساعة يوميا ولا تقل أبدا عن ١٢ ساعة ، وبعد عدة سنوات من الكفاح انتقلت من عملى الحكومى إلى عمل آخر أفضل ماديا بالقطاع الخاص مع استمرار عملى المسائى وواصلت الجهاد فى معركة الحياة ففتح الله لى أبواب الرزق ، وأصبحت خلال سنوات معدودة رجل أعمال ناجحا والحمد لله .. وكنت قد تزوجت وأنا موظف من زوجتى .. وهى سيدة فاضلة عظيمة ووفية، فرعتنى ورعت أبنائى منها وهيأت لى التفرغ لعملى ، وككل زوجين كانت هناك بعض المشاكل العابرة فى حياتنا من حين لآخر لكننا كنا نتجاوزها بالتسامح والصبر ، كما كانت أسفارى للخارج تساهم من ناحية أخرى فى تجاوز هذه الخلافات العابرة ، إذ كنت أرجع منها فى كل مرة مشتاقا إلى زوجتى وبيتى وأطفالى مهما كانت الخلافات البسيطة بيننا فلا أجد من زوجتى إلا الشوق والفرحة الصادقة باللقاء ، لكنه وبعد سبع سنوات من زواجنا حدثت بينى وبينها مشكلة كبيرة بعض الشىء وكنت وقتها على وشك السفر للخارج فى إحدى رحلات العمل .. فأملت أن يسهم افتراقنا المؤقت فى تهدئة الأعصاب كالعادة وسافرت .. وأنجزت أعمالى سريعا ووجدتنى لا أرغب فى العودة لمصر

سريعـا قبل أن تمر فـترة كـافية لصـفاء النفـوس ، فقـررت أن أقضى أسبوعـا آخر فى البلد الأوروبى الذى أزوره وتساءلت عمـا أفعل خلاله وأنا الذى لم يعتـد حياة الفراغ فـهدانى تفكيرى لأن اتصل بشـركة من الشركات السياحية التى تنظم رحلات داخلية فى هذا البلد لاشترك فى إحدى رحلاتـها واتصلت بالشركة بالفـعل وشاركت فى رحلة جمـاعية إلى مدن الجنوب فـى هذه الدولة ، وبدأت الرحلة وأنا أحاول الانشـغال بما أراه وأشاهده عن كل شىء آخر.. فتعرفت على فتاة من أصل عربى عمرها ٢١ عاما تدرس بالجامعـة وتعمل وتتحدث أربع لغات منها اللغة العربية ، وبهرتنى هذه الفتاة بنبوغها وثقافتها ومحافظتها على التقاليد الشرقية بالرغم من حياتها وحيدة فى هذه الدولة الأوروبية التى جاءت إليهـا للدراسة وبدأت بيننا صداقـة عميـقة أساسهـا الاحترام والثـقة ، ورجـعت من رحلتى إلى مـصر وقـد أصبـحنا صـديقين حـميـمين ، واستمرت الاتصالات بيننا بعد ذلك شبه يومية بالتليفون والفاكس كما تكررت اللقاءات بيننا عند سفرى للخـارج أو حضورها لمصر .. ووقفت إلى جوارهـا فى أحداث وتطورات كـثيرة ، وسـاعدتنى هى أيضا من ناحيتها فى أعـمالى وخلال عام واحد كانت علاقتنا قد تعـمقت كثيرا ، وانهت هى دراستهـا الجامعية فاشـتركنا فى عمل مشروع صـغير فى بلدها ، وكان المشـروع الصغـير بداية ناجحـة لنا معـا ، ولها هى على وجه الخصوص .

وبعد عـامين من تعرفنا وصداقـتنا وجدنا نفسـينا نرغب بشدة فى الارتباط الكامل بيننا ولأننى أخشى الله كثيرا وأكره أن أغضبه .. ولأنها كذلك متدينة فلقـد اقتنعنا مـعا أنه لابد لنا من أن نتـزوج عرفـيا لكى يتحـقق ارتباطنا المشروع ، وبغيـر أن يؤدى ذلك إلى متاعب عـائلية لى مع أسرتى وأبنائى ، وتزوجنا عرفيا بالرغم مما واجهته زوجتى الثانية من معـارضة شـديدة من أسرتها لهـذا الزواج ، وازدادت علاقـتنا بعد الزواج قوة وعمـقا ، وزاد منها أن أهلها قـد انصرفوا عنها وقـاطعوها فاصـبحـت أنا كل أهلها ودنيـاها كمـا ازدادت أيضا للدهشـة علاقـتى بزوجتى الأولى عمقا وقوة بعد زواجى السرى هذا ، ولا تسلنى كيف..

او لماذا لانني أروى لك ما حدث بغير أن أعرف تفسيرا له ، فلقد وجدت كل خلافاتنا السابقة البسيطة تذوب فجأة بعد زواجي ووجدتني أسعد بأوقـاتي مع زوجتي الأولى ، كـافضل مـا يسعـد زوج محب لزوجـته المخلصة واسعد بأوقاتي مع أبنائي منها ، وحين أسافر للخارج والتقى بزوجـتي الثانيـة أسعـد بأوقاتـي معـها كـافضل مـا يفعل عـاشقـان يستمتعان بالحب والمشاعر الجميلة .

وقمت مع زوجتي الثانيـة بتأسيس شركة تجارية باسـمينا معا في بلدها ، ونجحت الشـركة خلال وقت قصيـر وحققت لنا خيـرا وفيراً ، وكثرت أسفاري للخارج حتى أصبحت أسافر خارج مصر لمدة أسبوع كل شهـر أو كل ٤٥ يوما على الأكثر ، كما كـثر أيضا مـجيء زوجتي الثانية لمصر ، حتى وجدت نفسي منذ عـدة سنوات أحيا حياة مزدوجة بين زوجتين .. وبيتين يتقاسمان وقتي واهتمامي .. ومشاعري .. حيث أعيش مع زوجتي الأولى لمدة ثلاثة أسابيع في سعادة ووفاق ، وأعيش أسبـوعا آخـر مع زوجتي الثـانية وكـلتاهمـا سيدة فـاضلة .. ووفـية وحنون، وكنت قـد اشـتـرطت على زوجـتـي الثـانيـة الا تنجب لكيـلا تتـضاعف متـاعبنـا في المستـقبل ، والتـزمت هي بذلك ، لكن السنوات راحت تعمق الروابط بيننا ، وبدأت اسـتشعر حنين زوجـتي الثانية لأن تنجب مني وبدأت تطلـب حقـها في الأمـومة فـأنجـبت مني طفلا بعـد ثماني سنوات من الزواج !

وتسألني بالـطبع وأين زوجتي الأولى من كل ذلك ، وأجـيبك بانني خلال وجـودي بالقاهرة أكن لها كل الحب والتـقدير وأقوم بإسـعـادها كأفضل مـا يفعل زوج مثالي خـصوصا وانني الآن قد أصـبحت قادرا على تنظيم أوقات عملي وقـضاء وقت أطول مع زوجتي وأبنائي ، وهي تحيا حيـاة سعيدة للغاية ، ولا تعلم بزواجي الثـاني حتى الآن وليست هناك وسيلة لأن تعرف به ، أما زوجتي الثـانية فهي تعرف منذ البداية بالطبع انني زوج وأب ، وهي معروفة كزوجـتي في أوساط عملي معها ببلدها ، ولقد ظللت أحيا هذه الحيـاة المزدوجة وأنهل من المتع المضاعفة فيها بلا حسـاب ، فاحصل على الحب والتفاهم والعون العملي والنفسـي

والتفتح العقلى والذكاء من زوجتى الثانية وأحصل على الحب والفهم والحنان والعطاء الأسرى والمظهر العائلى المحترم فى بلدى من زوجتى الأولى ، وأعد نفسى أسعد السعداء ، إلى أن كنت فى عملى منذ بضعة أسابيع .. فشعرت فجأة بالعرق يتصبب من وجهى ، وبصدرى يضيق وتنفسى يصبح ثقيلا .. ففتحت ياقة قميصى .. وخلعت ربطة العنق ، وشعرت باختناق شديد ، واستنجدت بمن كانوا حولى ، فانزعجوا بشدة وأسرعوا بنقلى إلى المستشفى حيث أدخلت إلى العناية المركزة ، وقضيت بها بضعة أيام عولجت خلالها من الإجهاد والإرهاق الجسدى الشديد وخرجت من العناية المركزة لقضاء فترة النقاهة فشعرت كأنما قد كتب لى عمر جديد ووجدتنى استعرض تاريخ حياتى وأفكر طويلا فى أمرى وأتساءل بينى وبين نفسى كيف سيكون الحال حين تتكشف الأسرار ولا بد لها من أن تتكشف ذات يوم ، وماذا ستفعل زوجتى الأولى الطيبة الفاضلة التى تشعر بأنها أسعد زوجة فى العالم وماذا سيفعل أبنائى وقد بلغ أكبرهم الآن سن الشباب وكيف ستكون نظرتهم لأبيهم الذى كان يبدو لهم دائما الأب المثالى فى كل شىء ويغمرهم بالهدايا بعد كل سفر ويلبى كل مطالبهم ويعتزون به كثيرا ويعتز بهم أكثر ؟ إن الزوجتين لم تلتقيا أبدا حتى الآن وإن كانت زوجتى الثانية هى التى تشترى الهدايا لزوجتى الأولى وأبنائى فى كل سفر .

ولقد دفعتنى الأزمة الصحية التى مررت بها أخيرا لأن أحقق العدل بين الأسرتين وبين أبناء الزوجتين ، فخصصت عملى المشترك مع زوجتى الثانية فى بلدها لابنى منها ، وخصصت عملى بالقاهرة لزوجتى الأولى وأبنائى منها ، لكن زوجتى الثانية تطلب الآن شيئا أهم بالنسبة إليها من الأمور المادية وهو أن يعرف أبنائى من زوجتى الأولى أخاهم منها ، وتقول لى إن هذا الابن الوحيد من حقه علينا أن يعرف أخوته ويعرفوه ، فإذا كان لا يحتاج إليهم من الناحية المادية فإنه يحتاج إليهم بكل تأكيد من الناحية الإنسانية والعاطفية خاصة أنه الآن بلا عائلة بعد أن قاطع الأهل زوجتى الثانية منذ ارتباطها بى وأنا مقتنع بمنطق زوجتى الثانية ، وانظر لابنى الطفل هذا بإشفاق وأشعر

بالأسى له .. وأخشى ما أخشاه الآن هو أن توافينى المنية فجأة ويعرف أبنائى وزوجتى الأولى هذا السـر ويؤثر ذلك عليهم سلبيا ، ويـغير من مشـاعرهم تجاهى وهم الذين يحـملون لى أعظم الحب والتقدير . كـما أخشى أن يكون كـشف المستـور هذا وبالا على أسـرتى الأولى ، أمـا زوجتى الثانية فإنى أثق فى قدرتها على الكتمان فقد حافظت على السر ١٥ عاما حتى الآن ، وحفظته عن كل المحيطين بنا فى مصر .

لكن هـذا الابن الذى جـاء على كبـر سيـأتى يوم يرغب فيـه فى أن يعرف أهله بمصر .. فتتكشف الأسـرار وتبدأ المتاعب ، وزوجتى الثانية من ناحية أخرى تلح علىّ بأن أعرّف ابنائى به وأعرفه بهم ولقد أظهرت لى الأزمة الصحية الأخيرة أن الحياة لا تبدو ممتدة بلا نهاية كما كانت تظهر لى من قبل فالنهاية يمكن أن تحل فى أى لحظة ، ولقد وفقنى الله فى تربيـة أبنائى جمـيعا الكبـار منهم والصغـار على المبادىء الديـنية والأخلاقـية القويمـة ، لكن خوفى من انكشـاف الأسرار وأثر ذلك على زوجتى الأولى وأبنائى منهـا يعكر على صفو حـياتى الآن .. ويزيد من عنائى ، فماذا أفعل يا سيدى وبماذا تشير علىّ ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لا سر يبقـى طى الكتمان إلى الأبد مهـما أملنا فى ذلك ، أو تفننا فى تكتـمه أو مـحاولـة منعه من الافـتضـاح ، لهـذا فقـد قال أحـد الحكماء إنه إذا أردت ألا تنكشف أسرارك التى تخجل من أن يعرفها عنك الآخـرون ، فـإن أجدى وسـيلة لذلك هو ألا يكون فـى حيـاتك الشخصيـة من الأسرار ما تخشى أن يعرفه عنك الغـير ، وأن تـحيا حياة فاضلة أمـينة لا يجد الآخرون فيها مـا يغريهم بالحديث عنه والتلذذ بكـشف أسـراره .. لكن الإنسـان مـولع للأسـف منذ قـديم الزمـان بان يكون له غـالبا « سـره الخاص » الذى يـجهـد نفسـه لتكتمه .. ويترقب خـائفا انكشـافه ، ويتحسب لذلك كثيرا مع أن كل سر جاوز الاثنين شاع كما يقول الشاعر العربى .

ولأنه لا حد لتطلعات الإنسان إلى السعادة والمتعة ولا لرغباته

وطموحاته إلى كل مـا يحقق له الإرضاء الذاتى مهما كـان مصادما للأعراف وقوانين الحياة فكثيـرا ما تقوده خطواته إلى دخول كهف الأسرار الشخصية التى لا يسعد بأن يعرفها عنه الآخرون ، ويجهد النفس لطيهـا طى الكتمان وإبعاد الـعيون عنها ، ولقـد طبعنا على حب الحياة وطلب الحد الأقصى من المتع والأشياء واعتبار النفس « ذاتا » مميزة جديرة بأن تنال الحد الأكبر من السعادة دائما حتى ولو تعارض ذلك مع سـعادة من يهمنـا أمرهم أو حقـوقهم علينا ، كما طبـعنا أيضا على ألا نتفكر طويلا فى العواقب ونحن نسـتمتع بجمـال البدايات وننهـل من ينابيعـها ، وقليـلا ما نعمل بالحـكمة التشيكية القديمة التى تـقول لنا إنه « خير لك ألا تبدأ.. من أن تبدأ ولا تعرف كيف تنتهى » .

وكثـيرا أيضا ما نـعمل بما قاله أحد الحكـماء متفـاخرا : إن لى عقلا يخـرجنى من أية مشكلة ، فنقتـرب من نهر المغامرة المحـفوفة بالمخاطر ، ونتوهم قدرة عقولنا على أن تجنبنا أشواكها وتبعاتها.. ولا نعمل للأسف غالبا بما أجابه به الحكيم الآخـر مفحما : وإن لى لعقلا لا يوقعنى أصلا فى أية مشكلة !

ولأن الأمـر كـذلك فى مـعظم الأحـيـان ، فـنحن نسـعـد دائمـا بالبدايات البـهيجة ونتغـافل عامدين عما تحـمله من بذور المشاكل المستقبلية الأكيدة ، ولا نبدأ فى تدبر العواقب ، ومواجهة التبعات ، إلا بعد أن تكون تلك العواقب قد تجـسدت أمام ناظرينا بالفعل فى « شخوص » أو تبعات تمثل أمرا واقعا لا يمكن إخفاؤه ولا مفر من الاعتـراف به والتعامل مـعه .. والتسليم بحـقوقه علينا . كـما هو الحال الآن مثلا مع طفلك من زوجتك الثانية الذى تتطلع امه إلى أن يعرف أخوته ، ويعرفه هؤلاء الأخوة .

ولقد تابعت حـديثك فى رسالتك عن « الحيـاة المزدوجة » التى عشتهـا طوال خمسة عشر عاما ونلت خـلالها « الحد الأقصى » من الأشياء فنهلت من نبع العطف والحب والحنان مع زوجتك الأولى وحظيت بالجو الأسرى المسـتقر ، والأبناء المحبين الذين يعـشقون

أباهم ويرون فيه مثلهم الأعلـى فى الحياة ، وارتويت كذلك من نبع المتعة الإضافية وجو الإثارة العاطـفية والأسرار الخاصة والتفاهم العقلى والتعاون العملى فى الحياة مع زوجتك الثانية ، حتى كدت وأنا اقرأ رسالتك أن أتصور أن « الفردوس » التى يجنى فيها القلب كل أنواع المتع العاطفية والحسية بلا حساب ، يمكن أن يتحقق فى بعض الأحـيـان على الأرض ولـيس فى السـمـاء ، إلى أن جـاءت اللحظة التى لا مفر منها ، وتكشف «الفردوس الأرضى» عن حقيقته التى تخفّت عنك طويلا وتبين لك إنه لا يخلو من التبعات الجسام ، والمشاكل المؤجلة التى لا مفر من مواجهتها ذات يوم ، وسقطت أنت يا سيدى مريضا بعد طول إسراف فى الجهد البدنى والمعنوى على مدى ١٥ عاما أو تزيد وتجسدت أمامك الحقيقة واضحة ، وهى أنه لا متعة بغير تبعات ولا سعادة مضاعفة بغير ثمن واجب السداد.. وإنه حـتـى الإسراف فى السـعادة قـد يرهق القلوب والأبدان فتـئن تحت وطأة مـثل هذه الحـيـاة المزدوجة ولو كـانت خـاليـة من كل المنغـصات ذات يوم ، وإنه قد جـاء أوان تدبر العواقب بعـد أن كنا مشغولين عنها من قبل « بالثقة » الزائدة فى يومنا والغد .

ولأن الأوان قد فـات الآن للحساب عـما مـضى وأدى إلى ظهور هذه المشكلة المصـيرية التى تواجـهـهـا الآن ، فلسوف أركز حـديثى معك على كيفية التعامل معهـا ومحاولة تحجيم خسائرها النفسية والإنسانيـة بالنسبة لك ولأسرتك الأولى ، وفى ذلك فـإنى أقول لك ياسيدى إن مواجهة الحقيقـة وتحمل تبعات هذه المواجهة بشجاعة ورجولـة أفضل كـثـيـرا من مواصلة الهـروب منها وتاجـيل لحظة المواجهـة الفاصلة معهـا إلى ما لا نهاية ، فمن يحـيا حياته خـائفا متوجـسا من افتضـاح أمره بالنسبـة لزوجتـه وأبنائه ، يعانى من القلق النفسى والتوتر العصبى ما قد يهون إلى جواره فى كثير من الأحيان تحمل تبعات مواجهة الحقيقة ، وإزاحة عبء الأسرار التى يخشى افتضاحها عن صدره وقلبه .

والحقـيقة خيـر من أى زيف على أية حال ، واستمـرار الهروب

منها لا يعنى سوى تأجيل انفجار المشاكل ومضاعفة تبعاتها .

ولأستاذنا الكبير الأستاذ نجيب محفوظ كلمة بليغة فى روايته الفلسفية « رحلة ابن فطومة » يقول فيها : خلقنا لنكابد الحقيقة .. ونصمد لها ! و « المكابدة » من الناحية اللغوية هى مقاساة المرء لشدة الشيء وعنائه ، ولأننا قد نهلنا من نبع الحب والمغامرة والإثارة بغير حساب ، فمن العدل أن نرضى كذلك « بمكابدة » العواقب والصمود لها إلى أن نجتاز المحنة .. ونصحح الأخطاء .

ولهذا فليس هناك من مفر أمامك إلا أن تصارح زوجتك الأولى بسر حياتك المزدوجة هذه ، وبثمرتها التى تتجسد فى هذا الطفل الحائر الآن وأن تتحمل كل ما سوف يترتب على هذه المصارحة القاسية من آلام وعناء ، ذلك أنه من حق زوجتك عليك أن تعرف « حقيقة » من تعاشره ومن سكنت إليه طوال هذه السنوات الماضية، وأن تقرر بعد ذلك لنفسها ما تشاء من اختيارات .

وفى الاعتراف بالأخطاء بعض ما يحقق لنا « التطهر » من إحساسنا الداخلى بالإثم لتكتمها عمن كانت تفرض علينا الأمانة ألا نخفى شيئا من أسرارنا أو أخطائنا الشخصية عنهم.

وفى صدق هذا الاعتراف « وشجاعته » أيضا بعض ما قد يشفع لنا لدى من أخطانا فى حقهم ، فى أن « يتفهموا » ولا أقول أن يتقبلوا أسباب تخوفنا طوال السنوات الماضية من مواجهتهم بخداعنا المؤلم لهم .

وليس من حقنا بعد ذلك أن نطلب ممن خدعناهم كل هذه السنين أن يتقبلوا الحقيقة بلا احتجاج .. وأن يمنحونا تأييدهم ومباركتهم لما فعلنا ، وإنما من واجبنا أن نتقبل صابرين ثورتهم علينا ، وأن نقدر لهم عمق صدمتهم فى إخلاصنا ووفائنا لهم ، وأن نتحمل راضين كل ما يفرضه علينا الموقف من تبعات وترضيات وتضحيات ، إلى أن تهدأ ثورة انفعالهم ، وتستشفى نفوسهم ، ويتفكروا معنا فى العواقب ويدركوا أنه لم يعد يجدى الآن الحساب على ما كان من أمرنا معهم .. ويدفعهم إحساسهم

بالواجب العـائلى والإنسـانى تجـاه الأبنـاء ، إلى التـفكر مـعنا فى كيفية تخفيف خسائر ما فعلنا من الناحية النفسية والعاطفية على هؤلاء الأبناء .

أما تحسبك لصدمة الأبناء فى مثلهم الأعلى واهتزاز صورتك فى مـخيلتـهم فإننى أشـاركك الإحـساس بوطأة هذه المخـاوف عليك . وأقـول لك إنه لا مفـر أمامنا بالرغـم من ذلك من أن نتقـبل تبعـات أفعالنا وأن نرضى بها ، ثم نأمل بعد ذلك فى أن يتفهم الأبناء ذات يوم حقائق الحياة ويدركوا أن آباءهم فى الـنهاية بشر كالبشر لهم ضعفهم وقوتهم وإيجابياتهم وسلبياتهم ، وأن الحب الصادق الذى يجمع بين الطرفين لا بد له أن يعلو فوق الأخطاء والتحفظات مهما كانت مـصادمة لـلمشاعـر ومخالفـة لكل ما تصـوروه من قبل فى آبائهم ، ولا مهرب لنا من أن نتقبل أيضـا راضين وصابرين صدمة هؤلاء الأبناء واهتزاز مثلهم العليا فينا ، مـادمنا قد اخترنا لأنفسنا أن نكون بشرا كالبـشر لا آباء مثاليين يتـرفعون من أجلهم عن كل ما يسىء إليـهم أو يجرح مشاعرهم .. أو يُسَـبُّون به ، كمـا كانوا يعتقدون فينا من قبل .

الأذن الصماء !

أنا موظفة بإحدى الجامعات وزوجى كذلك ، ونحن الإثنان من هؤلاء الآباء والأمهات الذين ينزفون الدم لكى يوفروا لأبنائهم أفضل حياة ممكنة ، برغم مرضى واحتياجى لإجراء جراحة كبيرة فى القلب ، يؤجل الجراح إجراءها حتى تستقر حالة الكبد أولا .

ولقد قرأت رسالة « التعليقات الجارحة » للأم المنكوبة التى روت أنها قد تركت الحبل على الغارب لابنتها الصغرى ، وتركتها تخرج كما تشاء وترتدى الملابس القصيرة ، وتضع الماكياج بدعوى أنها صغيرة ومدللة ، فكانت النتيجة وبالا عليها ، وتعجبت حين قرأت هذه الرسالة لأننى لم أترك لابنتى الحبل على الغارب ، وإنما أحكمت الرقابة عليها حتى كنت أجلس على الرصيف أمام بيت المدرِّسة حتى تنتهى من الدرس الخصوصى ، لكيلا يشاغلها أحد ويصرفها عن اهتمامها بدروسها ، ولاحقتها طوال العام الدراسى من مكان إلى مكان حتى حصلت على المجموع الكبير والتحقت بإحدى كليات القمة ، ورغم ذلك كله فإننى لم أستطع السيطرة عليها ، وتحولت علاقتها بى وبوالدها إلى جحيم إلى الحد الذى يخيل إلىّ معه فى بعض الأحيان أنها تتمنى لنا الموت .. وإلى حد أننى أشعر بتعاطف كل من حولى مع مرضى ما عداها هى .. وكلما أجل الجراح الكبير إجراء العملية لى ، شعرت وكأن لسان حالها يقول لى : اجرى هذه العملية وخلصينا !

ولماذا كل ذلك يا سيدى ، لأنها تعرفت على جار لنا حاصل على مؤهل متوسط ولا يرتدى إلا الجلباب و « الشبشب » ، ومع ذلك فقد

تعلقت به تعلقا جنونيا ، وراح هو من منطلق عقده يلاحقها ، وهى فى الثانوية العامة من مكان إلى مكان ليشغلها عن دراستها حتى لا تتفوق عليه وتلتحق بالجامعة ، فقمت معه بلعبة القط والفار ، ولاحقتها كذلك فى كل مكان تذهب إليه ، وتجاهلت كل حيله ومناوراته حتى نجحت ابنتى والتحقت بالجامعة ، وبعد التحاقها بها صارحناها بأنه لا يليق بها أن تنشغل بشاب حاصل على مؤهل متوسط وأقل منها فى المستوى المادى والاجتماعى ، فضلا عن حكاية الجلباب و « الشبشب » اللذين لا يرتدى سواهما دائما ، فإذا بابنتى تنقل إليه هذا الكلام بالحرف الواحد ، فتتخذ علاقته بنا شكل العناد والعداء ويصرح فى كل مكان بأننا سوف نرى ما يستطيع ذو الجلباب و « الشبشب » أن يفعله! وتراهن مع أصدقائه من منطلق ضلالات الإحساس بالعظمة على أنه يعرف فتاة جامعية وأنها تحبه ، وسوف يظفر بها رغم إرادة أبويها ، بل وسوف يضيع عليها فرصة دخول امتحان آخر العام وهى فى السنة الثانية بكليتها ، انتقاما منا ، وانتشر الخبر فى المدينة التى نقيم بها وهى من المدن الجديدة ، ويعرف معظم سكانها بعضهم بعضا.. فما كان منى إلا أن تفرغت لابنتى هذه تماما ورحت أصطحبها من يدها فى الصباح إلى لجنة الامتحان ولا أدعها حتى تدخله ، ثم أجلس أمام اللجنة ثلاث ساعات فى الشمس الحارقة إلى أن تنتهى منه وأرجع بها إلى البيت ، فكادت فى إحدى المرات أن تترك امتحان مادة من موادها وتخرج لمقابلته لولا أن عرفت أننى أجلس أمام باب اللجنة !

إننى أكاد أجن مما يحدث يا سيدى واحترت واحتار دليلى مع هذه الابنة ، واخيرا فلقد لجأنا إلى مواجهة هذا الشاب على أساس أن مواجهة المشكلة أفضل من تجاهلها ودعوناه لمقابلتنا ، وسألناه أمام شقيقه الأكبر عما يريد منها ومنا .. فإذا به يجيبنا بأنه هو الذى يريد أن يعرف ماذا نريد نحن منه .. ويقول لنا إنه لم يأت لطلب يدها ـ كما نظن ـ بل ليعرف ماذا نريد منه بهذه التصرفات ؟ وأكد ذلك شقيقه أيضا الذى قال إنه لا يملك مليما للزواج وأنه سوف يؤدى الخدمة العسكرية بعد أيام وأن والده ليس مقتنعا بهذه العلاقة ، ويراها لعبا من ألعاب الأطفال .

وصــارحنا ابنتنا بما قــال هذا الشاب وشــقيـقــه ، ولكن هيهــات أن تصـدقنا نحن وتكذبه ، فلقـد قــال لها إنــه قد جــاءنا طالبــا يدها وأننا رفضناه ، فكيف تصدقنا نحن وتكذبه ؟

لقد ثار والدها بعـد أن فاض به الكيل فى النهاية منها وخـيَّرها بين شيـئين ، إما استـمرار دراستـها بالجامعـة وإما هذا الشاب ! فـإذا بها تختــاره يا سيـدى وسط دهشتنا وذهولنا وغـيظنا الشديد ، وتـضحى بدراستها الجامعية من أجله .

وفى لحظة يأس قــاتل وغـضب شــديــد ، قـمت بتـقـديم طلب إلى الجامعة لسحب ملفها منها وإلغاء قيدها بها ، ورجعت إليها بالخبر وأنا أتوقع أن تهتز لذلك أو تحزن له ، فإذا بها تسـتقبله ببرود شديد وكأن الأمر لا يعنيها فى شىء ! وأنا ووالدها وكل أفراد أسرتنا نحترق غضبا وغيظا وحزنا !

لقد تحدثنا إليـها كلنا من جديد وأوضحنا لها خطورة مــا تقدم عليه من اختيار .. وأكدنا لها أنهــا إذا اختارت هذا الشاب فلسوف تخرج من بيتنا بالفستان الذى ترتديه فقط ، وســوف يقاطعها كل أفراد الأسرة ، مع افتراض جـدية هذا الشاب فى الارتباط بها ، فى حـين أنه لن يقدر على توفير حجرة واحدة لها قبل عشر سنوات .. فأعطتنا الأذن الصماء والعقل المقفول ، وأصرت على رأيها حـتى أعجزتنى الحيلة ورقدت فى فراشى مريضة من الحزن والهم والكمـد .. ثم جاءنا شقيق هذا الشاب يعــاتبنا على ســحب ملف ابنتى من كليـتهــا مما يضـيع مسـتـقبلهــا ، ويتساءل : لماذا لا نفترض أن ما حدث كان لعبة من شقيقه للانتقام منا لما قلناه فى حقه ؟ ولم أحر جوابا ولم أعـد أعرف ماذا استطيع أن أفعل أو اختار .. وحالتى الصحية لن تسمح لى بمواصلة مراقبتها ليل نهار ، والجرى وراءها إلى المحاضرات والعودة بهــا منها لكيلا يتصل بها هذا الشــاب ، وأخشى أنــنى لو سمــحت لهــا بمواصلة تعليـمــها أن تتـرك محاضراتها وتخرج لمقابلة هذا الـشــاب .. ومن يدرى فقد يضحك عليها بمعســول الكلام ويغريها بأى تصــرف خطير مما نسمــعه هذه الأيام ، وهى التى لو تكلمت أنت مــعهــا لقلت كمــا يقول كل من يتـحدث إليـهـا

بشان هذا الشاب إنها كالمسحورة أو كالخاضعة لسحر أسود لا نعرف سره !

إننى أرجوك الاهتمام برسالتى هذه لأنها من قارئاتك .. كما أرجو أن تشير علىّ بما أفعل معها : هل أدعها تواصل تعليمها بالكلية مع ما فى ذلك من احتمالات مخيفة بالنسبة لعلاقتها بهذا الشاب ؟.. أم هل أواصل حرمانها من الدراسة وأدعها تبكى على مستقبلها دما كما أبكتنا أنا ووالدها الليالى الطويلة بسبب عنادها وتمسكها بهذا الشاب !

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

إذا عجزنا عن أن نقنع أبناءنا بما نراه نحن فى صالحهم ، واستنفدنا كل الحيل معهم ، فليس من الرحمة أن نتمادى فى الغضب منهم إلى حد أن نسهم بغير أن نريد فى مضاعفة خسائرهم وتضييق فرص الحياة والسعادة عليهم . ذلك اننا لم نختلف معهم فى الأصل إلا حرصا عليهم حين رأيناهم يسيرون كالمنومين إلى بحر هائج الموج ، ورأينا نحن ببصيرتنا أنه يهددهم بخطر الغرق ، ورأوا هم بغشية الحب وحده ، أنه يعدهم بنزهة سعيدة طوال العمر ..

فإذا فشلنا بعد ذلك فى الحيلولة بينهم وبين السير قدما إلى المياه العميقة ، فماذا نستطيع أن نفعل يا سيدتى سوى أن نلقى إليهم فى اللحظة الأخيرة بطوق للنجاة ليعينهم على مغالبة الأمواج حتى ولو كنا مازلنا على غضبنا منهم ؟

إننا لا نملك خيارا آخر سوى ذلك يا سيدتى .. ولا لوم علينا فيما فعلنا لتبصيرهم بالعواقب والأخطار التى يصرون على مواجهتها ، ولا لوم علينا أيضا حين نزودهم فى النهاية بما يعينهم على أمرهم ونحن نرقبهم بإشفاق وهم يخوضون تجربتهم ضد إرادتنا ، ونتمنى لهم أن تتحقق ظنونهم فى السعادة الموعودة .. وتخيب ظنوننا نحن فيما توقعناه لهم من تعاسة !

إن هذا هو خيار الآباء والأمهات الوحيد فى مثل هذه الحالة يا سيدتى ولا خيار سواه ، مادام الأبناء قد أصموا آذانهم عن النصحية .. وأغلقوا عقولهم دون صوت الحكمة والحرص عليهم .

وعلى ضوء ذلك فلست أرى لك أن تحرمى ابنتك من طوق النجاة الوحيد الذى قد يخفف من معاناتها فى المستقبل إذا تبدد الحب ، وهو شهادتها الجامعية .. ولا مفر أمامك من أن تسمحى لها بمواصلة دراستها الجامعية حتى ولو لم تُعنك صحتك على متابعتها خلال الدراسة ، رغم تسليمى بأهمية هواجسك ، ومخاوفك بشانها حين ترجع للجامعة ، ذلك إنك إنما تتحسبين فى النهاية لضرر محتمل الوقوع وليس مؤكدا ، فى حين أن حرمانها من مواصلة تعليمها يمثل ضررا مؤكد الوقوع على مستقبلها وفرصها لمواجهة الحياة وليس محتملا ، وإذا كان علينا أن نختار بين ضررين أحدهما محتمل والآخر مؤكد ، فالأولى بنا أن نبدأ بدرء الضرر المؤكد ، ثم نبذل بعد ذلك غاية جهدنا لحمايتهم من الضرر المحتمل .

بل إنه فى مثل ظروف ابنتك هذه فإنك تستطيعين ، تطويع هذا الضرر المحتمل نفسه لكى يكون فى النهاية فى صالحها ، وليس ضدها ذلك بان تتوصلى معها إلى أرضية مشتركة ، وتسلمى لها بحقها فى اختيار ما تراه سعادتها حتى ولو لم تكونى أنت ووالدها راضيين عنه ، مقابل حصولها على شهادتها الجامعية بتفوق يرشحها للفوز بفرصة عمل فى كليتها ، ويفتح أمامها أبواب المستقبل ، فإذا كان ما تتصوره من حبها لهذا الشاب حبا حقيقيا ، وبانيا للشخصية وليس هادما لها ويستمد جذوته غالبا من ظروف المعارضة والمقاومة المحيطة به ، فليدفعها إذن هذا الحب إلى التفوق لكى تكون قادرة على إعانة نفسها على أمرها وخوض تجربتها مع فتاها بمقومات أكبر للنجاح فى الحياة . وإن لم يكن كذلك فلسوف يتصدع بنيانه ببطء خلال سنوات الدراسة الباقية ، وتكتشف هى أنه ليست هناك لغة مشتركة بينها وبين فتاها ،

وأن شخصيتها قد ازدادت نضجا وفهما ، وتبدت لها من الحقائق والظروف ما لم يسمح لها الحب الذى يصم الآذان ويعمى الأبصار فى بعض الأحيان ، بأن تتبصرها وتعى خطورتها فى الوقت المناسب .

ومن الحكمة أن يعرف الإنسان متى يسلم بالفشل ويكف عن محاولة بلوغ ما يستحيل عليه بلوغه من أهداف ، ليتحول عنها إلى أهداف أخرى أقرب منالا .

فإذا كنتم قد عجزتم عن إثناء ابنتكم عن التحول عن هذا الشاب الذى ترونه لا يليق بها ولا يقدر على الارتباط بها قبل سنوات طويلة ، فلتتحولوا إذن عن هذا الهدف المستحيل حاليا إلى هدف مساعدة ابنتكم على مواجهة الحياة بشهادة جامعية تزيد من قدرتها على مغالبة أقدارها .. ولنفعل فى بعض الأحيان ما فعله الاسكندر الأكبر وهو فتى صغير حين رأى قواد أبيه العظام يحاولون ركوب حصان برى جامح فيفشلون جميعا ، فتقدَّم من أبيه معلنا قدرته على ركوبه ويضحك الأب الملك والقواد الكبار من طموح هذا الحدَث الصغير لأن ينجح فيما فشل فيه فرسان كبار ، ثم يأذن له أبوه بالمحاولة ، فيقترب من الحصان برفق ويربت على عنقه للحظات فى عطف ، ثم يديره ببطء إلى الاتجاه العكسى ، ويعتليه فى هدوء فيسلم له الجواد قياده بلا عناء ويتبختر به الاسكندر بعض الوقت أمام أبيه وقواده ثم يترجل عنه ، وحين يسأله أبوه كيف صنع ذلك يقول له ببساطة : أدرت الحصان إلى الاتجاه الآخر لأن أشعة الشمس كانت فى عينيه وتستثيره فيهيج كلما امتطاه أحد ، فلما استدار حجبت عنه الشمس فهدأ واستسلم للركوب !

و « الشمس » الآن فى عينى ابنتك يا سيدتى تهيجها وتزيدها إصرارا على التمسك بهذا الفتى الذى لا ترى من الدنيا حاليا سواه.. وكل محاولة للحيلولة بينها وبينه قد لا تزيدها إلا إصرارا وعنادا ، فاديرى عنقها إلى ناحية الدراسة والحصول على الشهادة

الجامعية مع وعد صادق منكم بعدم معارضة ارتباطها بهذا الشاب، إذا كان جادا وأمينا فى علاقته بها .. وإذا نجح حقا فى التغلب على التحديات التى تحول بينه وبين الارتباط بها ..

وتجربة الأيام بينكم وبينها بل وبينها .. وبينه أيضا .. ولسنا نملك فى هذه الظروف سوى أن نقول مع الشاعر العربى :

وستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد

فهونى عليك يا سيدتى ولا تستسلمى للتشاؤم بشأن المستقبل ، ولا تزيدى من حدة الخلاف بينك وبين ابنتك حول هذا الشاب لكيلا تنقطع بينكما الأوتار ، وتمضى هى فى طريق الجفاء والشقاق إلى أقصاه .

ودعيها لتجربة الأيام تعلمها ما لم تكن تعلم ، واشترطى عليها لقبول هذا الارتباط ، ألا يتم إلا بعد الحصول على شهادتها الجامعية ، وبعد أن يكون هذا الشاب قد وضع أقدامه على بداية الطريق مع استمرار متابعتك لها .. وبشرط ألا تتعدى علاقتها به الحدود المرعية .. وباعتبارهما خطيبين تأجل أعلان خطبتهما إلى الوقت المناسب ، وليثبت هو بعد ذلك جدارته بحبها والارتباط بها بالكفاح الجاد فى الحياة للفوز بها ، وبالارتقاء بمستوى تفكيره وحياته ومظهره ، وليس بالعناد الأحمق .. أو « الرهان » السخيف مع الغير حول فتاته ، ولا بالعداء السافر لأسرتها ، فمن يحب حقا يحرص على من يحب وعلى ذويه حتى ولو كانوا لا يبادلونه هذا الحرص .

ويرفع من شأن نفسه اعتزازا بمن يحب وطلبا للأفضل له ، وحين يفعل ذلك .. وينجح فى إسعاد من ارتبط بها وتخلو نفسه من كل الشوائب وشبهات العناد ، والعداء للأهل الذين رفضوه فى البداية ، فلسوف يكون هؤلاء الأهل أنفسهم هم أول من يعتزون به ويتنازلون عن كل تحفظاتهم السابقة علية .. لأنهم لم يرفضوه فى البداية إلا تشككا فى قدرته على إسعاد ابنتهم .. فإذا أسعدها .. ورعاها .. وحماها.. وأحسن عشرتها .. فماذا يبقيهم على عدائهم له وهو الجدير فى هذه الحالة بقبولهم وحبهم واحترامهم ؟

ذئاب الغابة !

أنا فتاة جامعية نشأت فى أسرة صغيرة العدد ولمست منذ طفولتى قسوة أبى فى التعامل مع أمى واهاناته لها واعتداءاته المتكررة عليها بالضرب، فتهيبته منذ نعومة أظافرى وتعمق الإحساس فى نفسى بالخوف منه، وبالرغم من ذلك فلقد كنت استشعر الأمان فى وجوده بالبيت، وأشعر بالخوف الشديد حين تضطره ظروف عمله للسفر بضعة أيام بعيدا عنا، ثم تقدمت فى العمر بعض الشيء وفهمت أشياء كثيرة لم أكن أفهمها من قبل وروت لى أمى أشياء غريبة وعجيبة عنه كمغامراته النسائية وعلاقاته المتعددة فتشكل وعيى بالحياة على أساس أنها غابة مخيفة يفرض فيها الأقوى جبروته على الأضعف، وأن كل رجل فيها هو ذئب بشرى يسعى لأن يفتك ويدمر وينهش الأعراض وإن كل نظرة من الرجل إلى المرأة ليست سوى نظرة ذئب يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليها، وأن الحياة الزوجية ليست كما فى الروايات حياة سعيدة وإنما حياة الغدر والقسوة والمعاناة والإهانة ، وأن الرجل يأسر زوجته فى سجنه ليذيقها العذاب والهوان ويحرمها من إنسانيتها ولا يعاملها بما أمر الله أن يعاملها به، وهذه هي صورة الحياة الزوجية التى شهدتها بين أمى وأبى، وكانت النتيجة أن أصبت بعقدة شديدة من الرجال بصفة عامة وأصبحت أخشى أن أتحدث إلى أى رجل فى أى مكان ولو كان مدرسا من أساتذتى أو زميلا لى كما أصبحت أخشى أيضا أن أركب الأتوبيس أو سيارة أجرة إلا إذا اطمأننت لوجود سيدة أخرى أو فتاة بها .

ثم بدأت دراستى الجامعيــة واضطررت للتعامل مع زملاء الدراسة، فتعاملت مـعهم فى البداية بحذر شديد وارتياب أشـد فى كل حركاتهم ولفتاتهم وكلماتهم ثم تعرفت بأحـد الزملاء واقترب منى واقتربت منه ببطء كبير فـوجدته مختلفا عن الصورة القاتمة التـى تخيلتها فى ذهنى للرجال، ووجدته إنـسانا جادا فى معامـلاته ومحترما ومـتدينا ويرعى حقـوق ربه بالتزام تام فـبدأت آنس إليـه تدريجيـا واتخلص من بعض شكوكى فى الجنس الذى ينتمى إليـه ثم تطورت علاقتنا وتعمـقت أكثر فتـقدم لخطبتى ورحب به أبواى وتمـت الخطبة بسلام والحـمد لله لكن المشكلة الآن يا سـيدى هى أننى أحـبه كثـيرا وأحـترمـه أكثر كـخطيب لكننى من ناحية أخرى أهابه أيضا كثيرا كزوج ولا أتخيل أن أكرر معه مـأساة أمى مـع أبى ولقد أحـببتـه لأنه استطاع أن يفـهمـنى جيـدا ويحتوينى بحنانه وحـبه، لكننى حين أفكر فيـه كرجل أو كزوج بمعنى أصح أجدنى أخشاه وأهابه وأشعر بجـسمى كله يرتجف لمجرد التفكير فيـه كرجـل ولهذا فـأنا أريد لنفسى وضـعا قـد تراه غريبـا لكنى أراه الوضع الأفضل بالنسبة لى رغم علمى باستحالته وهو أن أظل مخطوبة إليه للأبد ، وألا أصبح زوجة له فى أى يوم من الأيام ، فماذا أفعل لكى أستطيع التخلص من هذه العقدة وما هو الحل السليم الذى تنصحنى به وماذا تقول لى ولأبى ولأمى لكيلا تصاب فتاة أخرى فى مثل سنى بما أعانى منه الآن ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

نشرت رسـالتك لأنها تعكس حـالة نفسـية شائعـة بين بعض أبناء الأسـر التى تعانى من الخـلافات الزوجـية المتكررة، ويشـهد أبناؤها عن قرب صدامات الأبوين العلنية أو يشـاركون فيها، وهى حالـة أتلقى رسائل كـثيـرة ممن يعانونهـا وخاصـة من الفتـيات ويكون الأثر السلبى لهـا عليهن دائمـا هـو خوف الفتـاة من جنس الرجال أو من الـزواج بصفة عـامة وتوهمـها أنها سـوف تلقى فى زواجها المقبـل مثلما لقيـته أمها من شـقـاء وإذلال فى زواجها من

أبيها، واستقرار الخوف المرضى من رمز الرجل فى العقل الباطن للفتاة وارتباط هذا الرمز لديها بالقسوة والعدوان على المرأة وهو إحدى هذه الثمار الفاسدة لشهود الأطفال خلافات الأبوين الحادة واستخدام العنف الجسدى خلالها .

أما انعكاس هذه الخلافات العنيفة على شخصية الابن ورؤيته للحياة فقد لايتمثل فى الخوف من الحياة الزوجية وتوقع الشقاء والمعاناة فيها، كما يحدث مع الفتاة، لكنه ينعكس عليه فى اكتساب مفاهيم خاطئة للعلاقه بين الزوجين، وفى آثار أخرى نفسية وعضوية سيجىء أوان الحديث عنها بعد قليل، ولهذا فلقد قلنا مرارا أن أقدر الأبناء على التعامل الصحيح مع الحياة هم الذين ينشاون فى بيئة عائلية صالحة لم تضطرب بالخلافات العنيفة المتكررة بين الأبوين، ولم يحاول أحد الأبوين أن يشركهم معه فى همه بشريك حياته أو أن « يروى» له عنه مايؤثر على مايمثله له الأب أو الأم من رموز للفضيلة والقيم والأمان .

فإذا كان الأب الحريص على سلامة التكوين النفسى لأبنائه هو الأب الذى لايشعرهم بقسوته على أمهم وهى رمز العطف والحنان فى مخيلتهم ناهيك عن عدم عدوانه عليها بالضرب أمامهم أو من خلفهم !

فإن الأم الرؤوم حقا بالمقابل هى التى لاتشرك أبناءها معها فى ماساتها مع زوجها ولاتسمح لهم بشهود خلافاتها الحادة معه ، ولا تسمح لنفسها بان « تروى » لهم عن أبيهم ماينقص من اعتباره لديهم أو يتعارض مع ماينبغى لهم أن يحملوه له من حب واحترام كاملين حتى ولو كانت أشقى النساء به، ليس فقط حرصا على الصحة النفسية لهؤلاء الأبناء، وإنما أيضا لكيلا تذهب تضحيتها من أجل هؤلاء الأبناء انفسهم هباء لامعنى له فلقد أختارت مثل هذه الزوجة التى تشقى بزوجها وخياناته وإهاناته لها وعدوانه عليه، ألا تحطم حياتها العائلية طلبا لمصلحة الأبناء، ولكى تجنبهم أضرار انفصال الأبوين النفسية والاجتماعية فكيف

يستقيم إذن أن تختار التضحية بسعادتها الشخصية من أجل أبنائها ثم تفسد على نفسها هذه التضحية بإشراك هؤلاء الأبناء انفسهم معها فى همها بزوجها وشكواها الدائمة منه وتقوم بتشويه صورته فى مخيلتهم فتشوه معها من حيث لاتدرى الكثير والكثير من قيمهم ومثلهم العليا. والمحصلة فى كلا الحالين واحدة وهى تقديم أبناء إلى الحياة برؤية خاطئة لها واستعداد نفسى أقل للتواصل معها وعجز أكبر عن تحقيق السعادة لأنفسهم بعد أن فقدوا الكثير من سلامهم النفسى فى البداية وتشكلت لديهم بعض المفاهيم الخاطئة راكتسبوا بعض السمات النفسية السلبية التى تعوق تعاملهم الصحيح مع الحياة .

ولقد ظللنا لسنوات طويلة نحذر من الآثار النفسية الضارة لنشأة الأطفال فى بيئة عائلية ممزقة بالخلافات الصاخبة العلنية، والاصطدامات العنيفة بين الأبوين، وكان حديثنا يقتصر دائما على هذه الآثار النفسية وبعض انعكاساتها العضوية كانتشار حالة التبول اللاإرادى لدى بعض أبناء الأسر الممزقة بالخلافات ، لكن العلماء قد خرجوا علينا مؤخرا بدراسة طبية خطيرة تؤكد أن تعرض الأطفال للضغط العصبى الشديد يسبب النزاعات العائلية المتكررة لايقتصر أثره فقط على الجوانب النفسية وإنما يمتد أيضا إلى التأثير الضار على نمو أجسامهم وذاكرتهم وقدرتهم على التعلم .

ذلك أن ما يتعرضون له من توترات نفسية شديدة بسبب المنازعات المتكررة بين الأبوين يؤدى أيضا لانخفاض ملحوظ فى إفراز هرمون النمو فى الجسم لأن هذا الهرمون يتم إفرازه خلال النوم العميق ، والأطفال المتوترون فى مثل هذه الحالة يضطرب نومهم كثيرا فيقل افرازه لديهم ، كما أن هذا التوتر أيضا يؤدى لزيادة افراز هرمون الضغط العصبى الذى يضر ببعض أجزاء المخ ذات الدور الرئيسى فى نمو ذاكرة الطفل وقدرته على التعلم ، وليس ذلك فقط وإنما يؤدى تعرض هؤلاء الأطفال للتوتر الشديد

أيضا إلى ضعف جهاز المناعة بالجسم ويزيد من مراحل احتمال إصابتهم بالأمراض التى تنتقل إليهم عن طريق العدوى، فماذا يمكن أن نقول للآباء والأمهات الذين لايتخفون بمنازعاتهم عن أطفالهم ـ إذا كان ثمة ضرورة لهذه المنازعات ـ أكثر من ذلك ؟

وماذا نستطيع أن نقول لهم سوى أنهم بانانيتهم الشديدة حين لايتخفون بهذه المنازعات عن أبنائهم أو يشركونهم معهم فيها بما يرويه كل طرف لأبنائه عن الآخر لا يقدمون للحياة سوى أبناء أقل قدرة من غيرهم على التواصل مع الحياة وتحقيق السعادة لأنفسهم فيها، بل وأيضا أبناء أقل نموا من الناحية الجسمانية من غيرهم وأضعف ذاكرة وأقل استعدادا للتفوق الدراسى وأكثر عرضة للإصابة بعدوى المرض ؟

وأى شيء فى الحياة يستحق من الإنسان الرشيد أن يضحى بصحة أبنائه وسلامهم النفسى وفرصهم المشروعة فى السعادة والنجاح فى الحياة من أجله ؟

لقد دفعت ثمنا غاليا ـ ياآنستى ـ لقسوة أبيك على أمك ولخطأ أمك بإشراكك لها فى همها بزوجها وروايتها لك عن خياناته وعلاقاته النسائية .

لكن كثيرين أيضا من أبناء هذه الأسر الممزقة بالخلافات العائلية قد حمتهم فطرتهم السليمة وعقولهم الرشيدة وقدرتهم على التفكير النقدى الذى يعين الإنسان على التمييز بين الخطأ والصواب، على النجاة بانفسهم من كثير من الآثار النفسية الضارة «لجناية» مثل هذين الأبوين على أبنائهم .

والتجربة برهان العقل كما يقولون ياصديقتى فلا تعممى تجربة أبويك الخاطئة على كل العلاقات الزوجية أو الإنسانية، ولاتقعى دائما فى خطأ التعميم الذى يضل العقل لأنه ليس كل الرجال أشباها لأبيك وليست كل النساء ضحايا مغلوبات على أمرهن كأمك، فتخلصى من المفاهيم الخاطئة التى اكتسبتها من حياتك العائلية وتوسمى الخير فى الآخرين إلى أن يثبت لك

العكس، وشاركى فى «مباراة الحياة» بخيرها وعنائها ولا تكتفى بموقف المتفرج السلبى على أحداثها فنحن ومهما تخوفنا من اخطار الطريق لا مفر لنا من أن نعبره كما يفعل الآخرون، وأن نامل فى الوصول سالمين إلى الجانب الآخر .

وليس هناك من ضمان للسعادة فى الحياة الزوجية أبلغ من أن نعتصم بهدى ديننا وبالقيم الاخلاقية والعدل الإنسانى فى التعامل مع شركاء الحياة ومع الجميع . فاظفرى بذى الدين والقيم الأخلاقية والصحيحة ولا تخشى شيئا فهو كما قال لنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه إذا أحب زوجته أكرمها وإذا كرهها لم يظلمها وهى نفس القاعدة الذهبية التى ينبغى أن تكون دستورا أخلاقيا ودينيا لكل زوجة فى تعاملها مع زوجها والتى لو التزم بها الجميع لخلت الحياة من الكثير من مآسيها وعنائها مع تمنياتى لك بالسعادة والأمان فى حياتك الزوجية المقبلة بإذن الله..

الهرم المقلوب !

مؤكد أن مشكلتى لم يعرض عليك مثلها من قبل لأنها نظرية جديدة من نوعها لوضع مقلوب حتى أننى وأنا صاحبة المشكلة لا أستسيغها حتى الآن ولو سمعت بها من أحد لما صدقتها .. فأنا سيدة شابة اقترب من الثلاثين من عمرى جميلة كما يقولون وعلى درجة عالية من التعليم والثقافة وحاصلة على الماجستير فى أحد التخصصات النظرية المهمة ومتزوجة من شاب وسيم عمره ٣٥ عاما يعمل عملا مرموقا بهيئة استثمارية مصرية ـ أجنبية وممتاز خلقا وعلما ، ولدينا طفلان صغيران ودخلى من وظيفتى كبير ودخله من عمله أكبر ونحن نعيش حياة ميسورة لا نحتاج فيها لشىء .. وفى منتهى السعادة منذ تزوجنا قبل سبع سنوات ، ومنذ حوالى السنة بدأت ألاحظ على زوجى تغيرا غريبا يبدو معه دائما شاردا وواجما وذاهلا عنا وسألته عن أسباب تغيره مرارا وتكرارا دون أن أظفر منه بإجابة شافية ، وشعرت بإحساس الزوجة بأن فى الامر شيئا كبيرا يتناقض مع شخصيته كزوج مثالى منذ أن عرفته ، فضغطت عليه ذات ليلة ورحت استجوبه طوال الليل لأعرف ما يخفيه عنى فإذا به يحكى لى أنه « يحب » امرأة أخرى ويريد أن يتزوجها وبلغ تأثره قمته فانسابت دموعه بغزارة ودفن وجهه فى صدرى وراح ينهنه بالبكاء كالطفل الصغير ! ونزل علىّ الخبر كالصاعقة واحترت بين صدمتى فيه كزوجة وامرأة وبين إشفاقى عليه مما أراه منه من ارتجاف وبكاء ودموع كالمطر !

وقررت فى تلك اللحظة أن انحى القلب جانبا لفترة مؤقتة وأن

استخدم العقل معه لكى أعرف أبعاد هذه الكارثة غير المتوقعة وسألته عن هذه المرأة الأخرى وهل هى آنسة أم مطلقة ، فإذا به يضاعف من دهشتى وذهولى بقوله لى إنها أرملة توفى عنها زوجها منذ خمس سنوات ، وأن المشكلة التى يواجهها هى أنها ترفض الزواج منه !

ووجدتنى أرفع رأسه بعيدا عنى بعنف واصرخ فيه كيف يجرؤ على أن يقول لى ذلك ، وماذا يجد فى هذه المرأة ولا يجده لدى وهل هى جميلة إلى هذا الحد الذى يفقد معه عقله ويبكى ويولول من أجلها كالصغار ، فإذا به يجيبنى بأنه يحبها « بجنون » ولا يستطيع الاستغناء عنها .. ويحبنى أيضا « بجنون » ولا يستطيع الابتعاد عنى ، وأن بعده عن أحدانا لن يمثل له سوى الموت .

ثم ينتحب ويولول ويضرب رأسه بالحائط حتى أشفقت عليه من أن يؤذى نفسه وأمسكت برأسه لأمنعه مما يفعل وأنا فى أعماقى أتمنى أن أكسرها .

وربتّ على كتفه وحاولت أن أتماسك بقدر المستطاع وسألته عن عمرها فإذا به يجيبنى بأنها فى الخمسين من العمر !

ولم أستطع الاحتمال أكثر من ذلك امرأة فى الخمسين من العمر ؟ وتحب رجلا فى الخامسة والثلاثين ويحبها حتى يبكى من حبها كالأطفال ويعرض عليها الزواج فترفضه رغم أنه متزوج وله طفلان ؟!

ماذا جرى فى الدنيا وماذا جرى لعقول بعض الرجال والنساء يا سيدى ؟

لقد قررت أن أرى غريمتى لأعرف ماذا بها مما لا يتوافر فىّ حتى سلبت زوجى عقله ورشده إلى هذا الحد ، وذهبت إلى تلك الهيئة الاستثمارية التى تعمل بها هذه السيدة مديرة لإحدى إداراتها ورأيتها بدون أن أكلمها أو أتحدث معها فرأيت أمامى امرأة ناضجة بها مسحة من جمال قديم أنيقة للغاية وشخصيتها قوية وصارمة ولا تفارق الابتسامة شفتيها .. وسمعت صوتها فوجدتها تصطنع الأنوثة الحارة الجذابة . وخرجت من الهيئة والدموع هذه المرة فى عينى أنا وأشعر شعورا قويا بأن هذه المرأة سوف تدمر بيتى وتستولى على زوجى .

هذه هى مشكلتى يا سيدى .. ولقد جرت العادة وحكم الطبيعة أن يكون الرجل أكبر من المرأة ، أما أن تكون المرأة أكبر من الرجل بخمسة عشر عاما وتتأبى عليه وتتدلل فمبلغ علمى فى ذلك أنه ليس سوى أسلوب جديد « للسحب » والجرجرة النسائية ، ولقد وقع زوجى فى الفخ وأطبقت عليه شباكه ، وليس أمامى الآن سوى طريقين لا ثالث لهما ، الأول هو أن ألفظ هذا الزوج الضعيف التافه وأعيش لأربى الطفلين وحدى معتمدة فى ذلك على نفسى ، مع ملاحظة أن زوجى هذا لا يعانى من أى مشاكل أو أسباب تدعوه أو تبرر له الوقوع فى هذه الكارثة لا من ناحية أسرته الصغيرة وهى زوجته وطفلاه ، ولا من ناحية تنشئته الأسرية حيث نشأ فى بيئة صالحة وتربى تربية دينية مثالية وأبواه يعرفان ربهما جيدا ولم يكونا يفرقان بين الأبناء فى تعاملهما معهم ، وقد دمعت عينا والدته حين شكوت لها مما أعانيه ورجتنى الا اتخلى عنه وأن أساعده حتى يجتاز هذه المحنة بسلام، ولقد حرصت على أن اذكر لك ذلك لكيلا تعتقد أن زوجى هذا يعانى من « عقدة أوديب » وأنه لهذا السبب قد اتجه بمشاعره إلى سيدة تكبره كثيرا فى السن .

والطريق الثانى هو أن أقبل بما يفعله زوجى وأسلم بالواقع المرير وهو أنه يحب تلك المرأة بجنون كما يدّعى ثم إمعانا فى الحفاظ على بيتى فقد يصبح من « واجبى » أنا أن أذهب إلى تلك المرأة وانحنى على يديها وقدميها باكية ومتوسلة إليها أن تتزوج زوجى ، لكى يهدأ ويستريح ويستعيد نفسه ، فبماذا تنصحنى أن أفعل يا سيدى وهل ترى أن هناك حلا آخر ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا يتمثل « الوضع المقلوب » فقط فى أن يقع شاب فى الخامسة والثلاثين من عمره فى هوى امرأة فى الخمسين من عمرها فيبكى وينتحب ويضرب رأسه فى الحائط من وطأة حبها ورفضها للاقتران به ، ولا فقط فى أن يقدم على ذلك وهو زوج لشابة جميلة

لا ينكر عليها شيئا وأب لطفلين بريئين ورب لأسرة صغيرة سعيدة ، وإنما أيضا وهو الأغرب من كل ذلك فى أن يفجر هذا الزوج الشاب المشكلة ويعترف بها لزوجته وهو يبكى وينتحب ثم يكتفى بذلك وكأنما قد إزاح عن صدره حجرا ثقيلا ثم لا يفعل بعد ذلك شيئا إيجابيا لحل هذه المشكلة وإنقاذ نفسه وزوجته وأسرته من تداعياتها ، وكأنما قد اكتفى « بتصدير » المشكلة إلى زوجته أو باقتسامها معها ثم واصل حيرته وتمزقه وتخبطه بغير أن يبذل أى جهد لمغالبة نفسه أو ردها عن غيها إلى أن يبرأ من هذا الغزو العاطفى الذى دهمه فافقده رشده وثباته ، وبدون حتى أن يحسم تردده وتمزقه وحيرته بين المرأتين اللتين تتنازعان قلبه ويزعم أنه يحب كلتيهما « بجنون » !

إن هذا هو الوضع المقلوب وحقا وصدقا ، ولأنك تستطيع أن تقلب هرما لكنك لا تستطيع أن تجلس عليه وإلا انهار بك إلى أحد الجوانب كما يقول لنا الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون ، فإن زوجك يا سيدتى لا يستطيع أن يجلس على هذا الهرم المقلوب طويلا كما يريد الآن أن يفعل حتى ولو كان يخدع نفسه ويتصور أنه يستطيع الجلوس فوقه بزعمه لك أنه يحب هذه المرأة الأخرى بجنون ولا يستطيع البعد عنها ويحبك أنت كذلك بجنون ولا يستطيع البعد عنك وإلا كان الموت !

إننا إذا كنا نعترف بالضعف البشرى ونسلم به ونرجو لصاحبه ألا يطول استسلامه له حتى لا تكون الخسائر فادحة ، فإننا لا نستطيع فى نفس الوقت أن نعترف لمن يعانيه بحقه فى لى الحقائق وتلبيس الحق بالباطل بهدف أن يفوز بكل شىء ، وحكاية حبه الجنونى لكل من زوجته وهذه المرأة نوع آخر من قلب الحقائق والجمع بين الأضداد لكى تتماشى فى النهاية مع هوى النفس الضعيفة ورغائبها .

وليس من الغريب أن يضعف الإنسان ذات مرة فلقد خلق الإنسان ضعيفا أمام أهوائه ورغائبه . لكن الغريب حقا هو أن

يستسلم لهذا الضعف بلا أية مقاومة من جانبه ولا أية محاولة لرد النفس عن أهوائها .

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُرد إلى قليل تقنع

وهذا صحيح ومعروف للجميع فلو تُرك كل إنسان لنفسه لما أفلتت من يده متعة واحدة من متع القلب والنفس بغير أن يطلبها ويرى نفسه جديرا بنيلها مهما كان أثر ذلك على غيره ، ولقد جبل الإنسان على أن يطلب لنفسه دائما الحد الأقصى من الأشياء ، ولولا روادع الدين والضمير والمسئولية والواجب الإنسانى العام والاستعداد الأخلاقى لوضع سعادة الآخرين فى الاعتبار حين يطلب الإنسان سعادته لما حال بين النفس وبين ما ترغبه حائل ولتحولت الدنيا إلى غابة ترتع فيها الوحوش الآدمية وتتصارع حول شهواتها ورغباتها وأهوائها ، ولو ترك زوجك نفسه لأهوائها لما أرضاه شىء سوى أن تسلمى له بحقه فى أن يحب هذه المرأة الأخرى « بجنون » وسوى أن « تتنازل » هى فتقبل الارتباط به وهو زوج وأب رغم وضعه العائلى . ورغم فارق السن بينهما وأن « تسعدى » أنت بهذا الارتباط السعيد وتظلى بالنسبة له نفس الزوجة وشريكة الحياة ونفس الأم لأطفاله ، ولم لا ؟ وهذا هو الوضع « الأمثل » والأفضل بالنسبة له ؟ لكن لأن الإنسان لا يستطيع الجلوس على الهرم المقلوب دائما فإن زوجك مطالب بأن يعين نفسه على الشفاء من هذه اللفحة التى زلزلت كيانه واستسلم لها بضعفه وعجزه عن المقاومة ونكوصه عن بذل الجهد الضرورى لمغالبة هوى النفس وتحمل العناء المستحق فى سبيل ذلك ، فإن لم يرغب فى تحمل هذا العناء فليعترف بالحقائق التى لا سبيل لإنكارها .. وليحسم أمره واختياره بين زوجته وبين من تتأبى عليه وترفض القبول به ربما احتراما لوضعها العائلى والاجتماعى . وربما تعففا عن اغتصاب زوج لأخرى وأب لأطفال . وربما أيضا استشعارا لفارق السن الكبير بينهما وخجلا منه، فإذا كان عاجزا عن الحسم والاختيار فليطلب منك إعانته على اجتياز

محنته واعدا إياك بتعويضك عما عرضك له من آلام فى قادم الأيام، أما أن يطلب منك فقط القبول بالأمر الواقع مع استمراره فيه ودون أن يخطو أية خطوة لمقاومتـه والنجاة منه فليس ذلك من العدل أو الحق فى شيء .

لقد قال الكاتب المسرحى الأمريكى تنيسى وليامز فى رواية « خريف امرأة أمريكية» أن أسوأ ما فى الحب بين شاب صغير وامرأة تكبره فى السن أنه لا مكان للكرامة فيه .

ولقد فهم الجميع عن حق من هذه الكلمة الحكيمة أن المرأة حين تحب شابا أصغر منها فى السن فإنها قد تبذل غالبا كرامتها للاحتفاظ به ، لكن قصة زوجك مع هذه السيدة تضيف إلى معانى هذه العبارة معنى جديدا ربما لم يخطر بذهن كاتبها وهو أن الشاب أيضا قد يبذل كرامته فى حب امرأة تكبره فى السن إذا ابتلى بحبها وكان ضعيفا لا يقاوم ضعفه معها وكان إحساسها هى بفارق العمر والوضع الاجتماعى عاليا ، أما الطريقان اللذان تقولين إنه ليس أمامك طريق ثالث سواهما ، فالحق أن هناك دائما إلى جوارهما ذلك الطريق الثالث الذى ينتهجه راغبا أو مضطرا من لا يريد أن يهدم عشه ويبدد أمان أطفاله وهو طريق « الجهاد » لاسترداد شريك الحياة التائه فى بحر الظلمات والعودة به سالما بعد العناء إلى شاطىء الأمان ، ويتطلب اختيار هذا الطريق ألا يسلم الطرف المتضرر لشريك الحياة بالأمر الواقع الذى يريد فرضه عليه وأن يظل على رفضه النفسى له مع استمرار جهوده ومحاولاته لإنقاذ شريك الحياة من نفسه ومن أهوائه والتعامل معه خلال ذلك برفق الأمهات وحكمتهن إلى أن يستعيد رشده ويكتشف خطر الهاوية التى يمضى إليها مع إشعاره دائما بان لكل اختيار ثمنه فى النهاية وتبعاته ، وإنه إذا اختار هوى النفس وحده فليوطن هذه النفس أيضا على أنها سوف تفقد الأمان والاستقرار اللذين كانت تتمتع بهما فى ظلال زوجة محبة وأطفال أبرياء ذلك أنه إذا كان لا أحد يستطيع إرغامه على اختيار شريكة

الحياة وسعادة أطفاله دون هوى نفسه فإن أحدا فى نفس الوقت لا يستطيع إرغام هذه الشريكة على أن تعترف له بحقه فى الجمع بين « الحسنيين » والتمتع بكل متع القلب والعقل والاستقرار ، إذا هو اختار الطريق الآخر وأمعن فى السير فيه إلى ما لا نهاية ، ومهما تبذل شريكة الحياة من جهد أو عناء فى سبيل ذلك فإن نبل الغاية التى تسعى إليها يبرر لها هذا العناء ويهونه عليها .. ومع أن النجاح ليس مضمون النتائج فى كل الأحوال فإن احتمال النجاح يسبغ على الكفاح نبلا خاصا ويجعله جديرا بما نبذله من جهد لتحقيقه حتى لو لم يكلل كفاحنا فى النهاية ببلوغ الغاية كما يقول لنا عالم النفس وليم جيمس .

وأية غاية يا سيدتى تستحق الكفاح من أجلها أنبل من إنقاذ طفلين من التمزق بين أبوين منفصلين ومن التعاسة وافتقاد الأمان ؟

صمت الجدران !

ترى هل تتذكرنى الآن ؟ لقد جئت إليك منذ أربع سنوات لمقابلتك فى مكتبك مساء أحد أيام الاثنين وسافرت إليك من مدينتى الساحلية من أجل هذا اللقاء .. ورويت لك قصتى مع زواج لم يدم عمليا سوى ١١ شهرا فقط وكنت حين جئت إليك أحاول استعادة زوجى الذى هجرنى وانتقل للعمل بمنطقة البحر الأحمر حتى مضت ١٨ شهرا فى هذه المحاولات دون أن يرجع أو يقبل بانتقالى إليه ، ونصحتنى بعد أن سمعت قصتى بأن أكف عن محاولة الاتصال به أو ملاحقته بالمكالمات التليفونية لأن قصتى معه قد انتهت عند هذا الحد ، ولن يجدينى شيئا امتهانى لنفسى معه ، فهو لا يرغب فى استئناف العلاقة الزوجية بينى وبينه ، ولا يرغب فى العودة للمدينة التى أعمل وأقيم بها ولا يرغب فى استقدامى إلى المدينة التى يعيش فيها وقد فشلت معه كل الحيل لاستعادته وليس بيننا أبناء قد يبررون لى هذا الامتهان بدعوى التضحية من أجلهم ، وفى مثل هذه الظروف فالأفضل لى هو أن أسلم بالأمر الواقع وأن أعترف بانتهاء القصة وأقبل بالانفصال عنه وأتفاهم معه وديا حوله ، ثم أضمد جراحى النفسية وأحاول بعد حين أن أبدأ حياتى من جديد مع إنسان آخر .

ولقد حدث يا سيدى ما نصحتنى به ، ويئست بالفعل من محاولاتى الذليلة لاسترجاع زوجى وكففت عن الاتصال به ، وأبلغت أخته بقبولى للطلاق بشرط واحد هو ألا يعلنه لأحد . وطلقنى غيابيا وأرسل إلى ورقة الطلاق ، وتكتمت أنا طلاقى فى محيط عملى كتربوية ، وفى

دائرة الجيران والأصدقاء .. وظللت فى أوراقى الرسمية متزوجة ، وفى نظر الجيران والزملاء تلك السيدة الفاضلة التى تعيش وحدها فى مسكنها بهذه المدينة الساحلية لأن زوجها يعمل بالبحر الأحمر .. وتسافر إليه فى العطلات والاجازات ! وحافظت على هذا « المظهر الاجتماعى » لعدة سنوات وتحملت من أجل الحفاظ عليه عناء كبيرا .. ففى العطلات القصيرة التى تصل لثلاثة او أربعة أيام كما فى بداية شهر مايو مثلا أو فى الأعياد الدينية التى تتوقف فيها الدراسة بالمدارس ، كنت أرى المدرسات من حولى يستعددن لقضاء الإجازة مع أزواجهن وأولادهن .. وأرى المدرسين المغتربين عن المدينة يبتهجون بقرب سفرهم لزوجاتهم وأولادهم فاتظاهر مثلهم بالابتهاج والمرح راعلن لهم استعدادى للسفر لقضاء الإجازة مع زوجى الحبيب ثم أخرج من المدرسة فأودع سيارتى فى جراج بعيد بأطراف المدينة لابعدها عن العمارة التى أقيم بها ثم أرجع إلى البيت وأتوارى فيه عن الأنظار ، وأغلق النوافذ والأبواب لكى يظن الجيران أننى قد سافرت إلى زوجى وأمضى هذه الأيام حبيسة بين جدران شقتى كأننى فى معسكر للخدمة العسكرية لا أستطيع مغادرته ، إلى أن تنتهى الاجازة و « أرجع » من السفر « سعيدة » ومحملة بالذكريات الجميلة عن زوجى الحنون الذى ابتهج كثيرا بزيارتى له ، أما فى الاجازات الطويلة فإننى أسافر إلى محافظة أخرى وأقضى فترة من الاجازة لدى بعض الأقارب زاعمة أننى قد قضيتها مع زوجى فى البحر الأحمر .

وهكذا مضت أربع سنوات وأنا أعيش وحيدة بين جدران الحجرات حتى أوشكت على الجنون ، وكثيرا ما أجهشت بالبكاء فى مسكنى الخالى من شدة الحزن والكآبة ولست أستطيع رغم ذلك أن أحدث أحدا بحقيقة وضعى خوفا من نظرة المجتمع للسيدة المطلقة ، وراقبت العمر وهو يجرى بأسى بعد أن بدأت منذ أيام عامى السابع والأربعين وترسبت الكآبة فى نفسى فبدأت أستعين عليها وعلى حياتى الخالية بالأقراص المهدئة ، وسيطر على الخوف مما أقرأه فى الصحف عن حوادث القتل بهدف السرقة التى تتعرض لها سيدة وحيدة فى مسكنها

أو رجل مسن يعيش وحده ، والحياة الاجتماعية فى مدينتى التى أعيش فيها محدودة ولا توجد بها أنشطة يمكن لسيدة مثلى أن تشغل بها فراغها ، كما أن وضعى كمربية يفرض على قيودا لابد لى من الالتزام بها ، ولقد مللت القراءة من كثرة ما مارستها ، وحياتى كلها موزعة بين العمل والنوم والنظر إلى جدران مسكنى الصامتة التى أراها وكأنها قد اتشحت بلون السواد الذى يخيفنى ، والعمر يتسرب هباء من بين يدى فلا أبناء ولا شريك للحياة يؤنس وحدتى ويجاذبنى أطراف الحديث وقد فقدت الرغبة فى الحياة حتى أشتريت « كفنى » منذ فترة واحتفظت به فى دولاب ملابسى .. كأنما يذكرنى بقرب الرحيل .. وأنا الآن على أتم الاستعداد لأن أتنازل عن شقتى وعن سيارتى وعن عمرى كله مقابل أن أعيش هانئة البال مطمئنة فى كنف أسرة أو مع إنسان يحبنى ويعوضنى عما فاتنى من العمر ولا أستطيع أن أحدث أحدا بذلك سواك .. فهل تمد يدك لانقاذى .. كما فعلت من قبل منذ أربع سنوات ؟..

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

نصحتك يا سيدتى منذ أربع سنوات بالقبول بالأمر الواقع والتسليم به فاخذت ببعض نصيحتى وسلمت عمليا باليأس من أى محاولة لاستعادة زوجك الذى طوى هذه الصفحة العابرة من حياته وانصرف عنك نهائيا وقبلت بالطلاق منه وديا ، لكنك لم تاخذى ببقية نصيحتى لك ولم تقبلى بالأمر الواقع نفسيا ولم تسلمى باخطر جوانبه وهو أنك قد أصبحت بعد الانفصال عن زوجك سيدة لا تربطها بأحد رابطة الزوجية فتكتمت نبا الطلاق وكانه « عار » لا ينبغى لأحد أن يطلع عليه وتظاهرت أمام الجميع بانك مازلت زوجة لزوج غائب وسجنت نفسك بين جدران مسكنك وكابدت عذاب الحبس الانفرادى الاختيارى فى العطلات القصيرة لتؤكدى لمن حولك صحة هذا الوهم ، فكلفت بذلك نفسك رهقا وساهمت من حيث لا تدرين فى تعقيد مشكلتك وفى مضاعفة آثار

الوحدة القاتلة عليك حتى استعنت عليها بالمهدئات واستسلمت لبراثن غول الاكتئاب .

وما كنت فى حاجة إلى شئ من كل ذلك وما كان هذا هو التصرف الأمثل فى مثل ظروفك هذه ، فلقد غاب عنك أنك لا تساعدين نفسك على الخروج من قوقعة الوحدة بمثل هذا التظاهر بغير الحقيقة ، وأن نظرة المجتمع للسيدة المطلقة التى تحسبت لها كل هذا التحسب ، لا تخلو رغم تحفظى على المغالاة فى التحسب لها من جانب إيجابى مهم إلى جوار جوانبها السلبية الأخرى وهو « إعلام » المجتمع المحيط بالسيدة المطلقة بأنها لم تعد مرتبطة برباط الزوجية مع أحد ، وأنها يمكن أن تكون موضع التفكير فيها كزوجة لراغب فى رفقة الحياة مع سيدة متوسطة العمر مثلها !

فإذا كانت بعض السيدات يتحفظن فى إعلان نبأ طلاقهن ليبعدن بذلك عنهن أطماع العابثين ، فإن المغالاة فى تكتم هذا النبأ الذى لا يشين أحدا إنما تبعد عنهن كذلك تفكير الجادين فى البحث عن شريكة مناسبة لرحلة الحياة ، ولهذا فلقد قلت مرارا أن الحقيقة مهما كانت مؤلمة لنا هى خير من أى زيف ، وأن تقبلها والتسليم بها بشجاعة نفسية هما الخطوة الأولى دائما لمواجهة الصعاب والتغلب عليها .

فواجهى الحقيقية يا سيدتى بلا إدعاء ولا إنكار فإن الخطوة الأولى لحل مشكلتك هى أن « يعرف » من حولك أنك سيدة «قابلة» للتفكير فيها كزوجة أو شريكة حياة .. وليس فى طلاقك من زوجك ما يشينك أو يخجلك وليس فى فشل الإنسان فى الحياة الزوجية ما يصمه بما ليس فيه كما أن الإنسان لا يستطيع أبدا أن يبدأ صفحة جديدة من حياته إلا إذا طوى الصفحة القديمة وتخلص من كل آثارها عليه ، وليس سر السعادة كما يقول لنا الكاتب الاسكتلندى جيمس بارى هو أن يفعل الإنسان ما يحب أو يحيا ما يتمناه من حياة وإنما أن يحب ما يفعله وما يحياه من حياة

حتى ولو لم تكن ما يرجوه لنفسه من حياة ، فإذا عجز عن أن يحب ما يفعل أو يعيش من حياة فإنه على الأقل يستطيع أن يحاول دائما إقناع نفسه بتقبلها والتواؤم معها .. وأن يسعد بما تتيحه له من أسباب قليلة للرضا والقبول بها .

فواجهي حياتك بلا خجل منها أو تحسب مغالي فيه لنظرة الآخرين إليها بدلا من مخاطبة الجدران الصامتة في مسكنك الخالي ، والاستسلام لأعراض الاكتئاب و « رموزه » كذلك القماش الكئيب الذي تحتفظين به في دولاب ملابسك ، وأخرجي إلى الحياة الاجتماعية في مدينتك .. وشاركي في نشاطاتها إذ إنها مهما كانت محدودة فلا يمكن أن تخلو من دار للأيتام تستطيعين زيارتها والاهتمام بأمرها أو من جمعية للنشاط النسائي تستطيعين المشاركة في أعمالها التطوعية ، أو من جمعية ثقافية تستطيعين المساهمة في ندواتها واهتماماتها .

ولسوف يكون خروجك من قوقعة الأحزان .. والكف عن التظاهر بغير الحقيقة هما الخطوة الأولى للمسح على جراحك .. وترشيحك للسعادة في قادم الأيام بإذن الله .

الفكرة الخاطئة !

أنا شاب أبلغ من العمر ٣٦ عاما ولم أتزوج بعد ، ويبدو أننى لن أتزوج لأننى أحمل فى صدرى قلب شيخ وليس قلب شاب فى مثل عمرى ، فمنذ عام وفقنى الله إلى المساهمة فى مشروع تجارى مع أحد الأصدقاء ، وشاركته فى محل تجارى فى أحد الأحياء ، وكلفت أنا بإدارته لأن صديقى مشغول بعمل آخر ، فأتاح لى العمل فى هذا المحل الاقتراب من سيدة عمرها ثلاثون عاما من سيدات الحى ، متزوجة ولها أطفال ، وجميلة ، لكنها بلا أخلاق ، وعلى علاقة بشخص من سكان الحى ويعرف الجميع ما عدا زوجها بعلاقتها به ، ورغم علمى بذلك وبحقيقة أخلاقياتها إلا أننى وجدت نفسى أقع فى حبها فى صمت لمدة شهرين بغير أن أصرح لها بحبى ، وقد كان كل ما رجوتها فيه هو أن تواظب على الحضور إلى المحل لأراها واستمتع بالحديث معها ، وعلم أحد شباب الحى بلهفتى عليها ففوجئت به يجيئنى برقم تليفونها ويشجعنى على الاتصال بها ، لكنى رفضت أن أفعل ذلك ما لم تعطنى هى رقم تليفونها وتسمح لى بالاتصال بها ، وبالفعل طلبت منها رقم تليفونها فأعطته لى ببساطة ، وفى نفس اليوم الذى اعطتنى فيه رقمها علمت للأسف بأن لها علاقة أخرى مع شخص آخر من الجيران بدأت قبل شهر ، فتألمت لذلك كثيرا ومنعت نفسى من الاتصال بها ، ويكفى لكى تعلم مبلغ ألمى وحزنى لذلك أن تعرف أن هذا الشخص متزوج أيضا وله ثلاثة أطفال وذئب آدمى معروف بعلاقاته النسائية المتعددة ،

وغالبت نفسى بضعة أيام ثم قررت أن أتصل بها وطلبت منها حين جاءت إلى المحل أن تترقب اتصالى هذا وما إن انصرفت عائدة إلى شقتها حتى رأيت هذا الشخص يدخل العمارة التى تقيم فيها وفى غياب زوجها ، فبكيت من القهر والعجز والألم .. ولم اتصل بها ، وجاءت فى المساء تسألنى عن سبب عدم اتصالى بها فأجبتها بالدموع رغما عنى ، ولكى لا أطيل عليك فى تفاصيل سخيفة أعرف أنك سوف تضيق بها ، فإنى أقول لك إنها قد اعترفت لى بعلاقتها بهذا الشخص الآخر وبكت و « أقسمت » لى أن علاقتها به لم تتعد المكالمات التليفونية ، وأنه حتى حين صعد إليها فى العمارة فإنها قد التقت به على السلم وتحدثت معه بعض الوقت فقط !!

وسوف تسألنى كيف صدقت ذلك . ولماذا لم تقطع علاقتك بها من البداية ولماذا تماديت فى حبها وأنت تعرف عنها كل هذا ؟ وأقول لك إننى لم أستطع التوقف للأسف عن حبها الذى كان قد تمكن منى وأنها طلبت منى أن « أقف إلى جوارها » وأن أساعدها على تغيير « الفكرة الخاطئة » عنها فى أذهان سكان الحى من أنها امرأة غير محترمة وسيئة السمعة ! وأن هذا لن يحدث إلا إذا داومت الاتصال بها ، وأقسمت لى « بأولادها » أنها سوف تنفذ كل ما أطلبه منها « بالحرف الواحد » وحرصت هى بعد ذلك على الاتصال بى تليفونيا وكلما اتصلت بى سمعت بكاءها وندمها فصممت على أن أقف بجوارها ، ومحوت قدر استطاعتى من نفوس الناس حولنا « سيرتها النجسة » على حد التعبير الذى سمعته عنها من بعض السيدات من زبائن المحل ، وكان هدفى من ذلك هو ألا تصل « سيرتها » هذه إلى زوجها وشجعنى على ذلك أنها أكدت لى قطعها لعلاقتها بهذا الشخص .

ووجدت نفسى مشدودا إليها بخيوط من صلب . وأصبحت اتصل بها تليفونيا من المحل ثلاث مرات كل يوم ، وكل مكالمة تستغرق ساعة على الأقل وتتكلف فى فاتورة التليفون عشرة جنيهات ، وكانت تقول لى فى مكالماتها أن كل سيدة لها رجل واحد يحميها هو زوجها ، أما

مى فلها رجلان يحميانها هما أنا وزوجها !! وتوطدت العلاقة «الطاهرة الشريفة » بينى وبينها وعرفتنى باختها ، واغدقت عليها بالهدايا وبكل ما تحتاج ولا تحتاج إليه من المحل مع أنها ليست محتاجة ماديا وزوجها رجل قادر ، وأصبحتْ بالنسبة لى إدمانا يسرى فى دمى كادمان المدمن للمخدرات البيضاء ، وأهملت بيت اسرتى الذى أعيش فيه واسهم بجزء فى نفقاته الشهرية ، واستمر هذا الحال عشرة شهور كاملة ، اختل خلالها بالطبع ميزان المحل وتدهورت أوضاعه وأصبحت مثقلا بآلاف الجنيهات من الديون ، وعلم صديقى بما آل إليه حال المحل فنشب خلاف شديد بينى وبينه وهو صديق العمر ، وانتهى الخلاف باخراجى من شركة المحل ، وتسلمه وادارته له من دونى ، واكتشفت فى نفس اليوم الذى تركت فيه المحل مرضى بالسكر ، واصابنى بجلطة فى القدم ، ورقدت مريضا فى بيتى لمدة أسبوع فلم تتصل بى هذه السيدة لكى تطمئن على أو للسؤال على صحتى وغادرت البيت بعد فترة الراحة الإجبارية فكان اول ما فعلته هو الاتصال بها لكى اعاتبها على عدم سؤالها عنى خلال مرضى ، فإذا بى أتلقى الصدمة الكبرى وهى أنها قد تحولت تحولا غريبا ولم تعد تطيق سماع صوتى !

ورجعت مكلوما محسورا وأنا أفكر ماذا غيرها تجاهى وقد كنت كما قالت « رجلها الثانى » الذى يحميها ، ولم أجد بعد التفكير الطويل من سبب سوى أننى قد خسرت المحل وتركت الحى كله ولم أعد ذا نفع لها، ولم اعد استطيع الإغداق عليها ، اما السبب الآخر فهو إننى قد علمت أنها قد استعادت علاقتها بذلك الذئب الآدمى السابق ، والآن يا سيدى أرجو أن ترشدنى كيف أنسى هذه السيدة وأنا ـ بالرغم من كل ما رويت لك ـ مازلت أحبها ، وهل انتقم منها كما افكر الآن كثيرا بإبلاغ زوجها وتقديم أدلة عديدة إليه على خيانتها له معى ومع غيرى ، فأنتقم بذلك لنفسى منها ولغيرى ايضا ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

ليس من عادتي الاهتمام بمثل هذه القصص والمشاكل اللا أخلاقية ، لكنى رأيت رغم ذلك نشر رسالتك هذه لأن فيها بالفعل ما قد يستفيد به آخرون قد يواجهون مثل هذه المحنة .

أما دروس هذه التجربة اللا أخلاقية فكثيرة .. وأهمها فى تقديرى هو ما كان يجول فى خاطرى من تاملات وانا أقرأ سطورها من أنه ليس كالإنسان كائن حى فى قدرته على خداع نفسه وعلى التعامى عما لا يسره أن يعترف به لكى يمضى سائرا بقدميه إلى ما تقوده إليه اهواؤه العمياء ورغباته الملحة !

فالحيوان ينقاد وراء غرائزه دون مواربة ولا تفلسف ولا محاولة للتجمل وإقناع النفس بغير ما تصرخ الحقيقة بغيره ، أما الإنسان وعلى خلاف كل الكائنات الحية فإنه يفضل غالبا ألا يعترف بهذه الأهواء التى تقوده ، ويميل دائما لأن يغلفها بغلاف سميك من الإدعاء والتفلسف وقلب الحقائق إلى أضدادها ، لكى يسوغ لنفسه ما يريد وما تلح عليه به أهواؤه . فانت مثلا يا صديقى تقر بأنك قد أحببت هذه السيدة رغم علمك بعلاقتها بشخص آخر وهى زوجة وأم ، ورغم إدراكك لسوء سمعتها إلى الحد الذى وصفته به تلك السيدة من عميلات المحل ، ولقد علمت أكثر من ذلك وأنت بصدد بدء علاقتك بها بعلاقة جديدة لها مع شخص آخر رأيته بعينيك يصعد إلى العمارة التى تقيم بها فى غيبة زوجها ، ومع ذلك فلقد قبلت بان تعرفها وتبدأ علاقتك العاطفية بها ، وليس هذا هو ما أقصده بخداع النفس ، لأن الحب فى بعض أحواله قد يتوجه رغما عن العقل إلى من لا يستحق الحب ولا تؤهله أخلاقياته لأن يكون جديرا به وهذا هو ما يسميه البعض بالعشق الذى ينكره العقل ، ويضعف له القلب .

وليس بيت القصيد كذلك أنك قد اقتنعت بصدق رغبتها فى تحسين سمعتها ، وقطع علاقتها بالشخص الأول أو الثانى ولا أنك

قد صدقت أن علاقتها به لم تتجاوز حد المكالمات التليفونية ، وأنها حتى حين تسلل إلى عمارتها فى غيبة زوجها فإنها - شكرا لقيمها الأخلاقية - لم تلتق به سوى على السلم ! ليس هذا كله - رغم تعارضه مع العقل والمنطق والقيم - هو بيت القصيد ، وإنما ذروة خداع الإنسان لنفسه عن الحقيقة التى لا ترضيه حقا هى إنك قد قبلت أن تبدأ علاقتك بها ، لكى « تمحو » فكرة الآخرين الخاطئة عنها وتعينها على تحسين سمعتها واسترداد كرامتها كامرأة محترمة وسط الحى الذى يسىء الظن بها ! ولأنه لا سبيل لمحو هذه السمعة السيئة عنها سوى مداومة اتصالك بها كل يوم !! فهذه هى قمة الكوميديا الإنسانية حقا أن تقتنع أو توهم نفسك بالاقتناع بهذا المبرر لبدء علاقتك بها ، مع أن هذه العلاقة فى حد ذاتها هى أول تأكيد لفكرة الآخرين غير الخاطئة عن هذه السيدة العابثة ولأنها « إضافة » جديدة لرصيدها غير المشرف من سوء السمعة وعدم الاحترام واعتراف صريح منها بأنها سيدة مدمنة للعبث بشرف زوجها بدليل علاقاتها السابقة ، وعلاقتها الجديدة معك والتى صورت لك أنها « السبيل الوحيد » لمحو فكرة الآخرين السيئة عنها ؟ فهل هناك من خداع للنفس أكثر من ذلك يا صديقى ؟

وهل هناك من « تباه » بالخيانة والعبث والانحراف أكثر من مباهاتها أمامك بأن كل سيدة لها رجل واحد يحميها أما هى - ربة الصون والشرف والعفاف - فلها رجلان يتناوبان حماية ذاتها السامية ، كما يتناوب الجنود حماية الثغور و « الجواهر الثمينة»! وهل كنت تنتظر منها إخلاصا لزوجها وأطفالها وبيتها أو لعشيقها الأول ولا الثانى ولا الثالث ؟

يا صديقى إن الفيلسوف الألمانى شوبنهاور يقول لنا : إن السمعة الحسنة شىء ينبغى علينا أن نعمل بجد لاكتسابه ، أما الشرف فليس علينا سوى المحافظة عليه !

ولم يكن إقدامها على علاقة غير مشروعة جديدة مع شاب مثلك،

سبيلا للعمل على اكتساب حسن السمعة ، ولا للمحافظة على الشرف ، الذى افترض الفيلسوف وجوده من الأصل ، وبالتالى فليس المطلوب منا سوى المحافظة عليه ، وبذل الجهد والعرق فى الالتزام بالطريق القويم فى الحياة والحرص على الفضائل لكى نكتسب بالعناء والحرمان - وليس بالعبث واتباع الأهواء - ذلك الشىء الثمين وهو حسن السمعة !

إن من يعرف قواعد اللعبة قبل أن يدخل حلبة اللعب لا يحق له أن يشكو من قسوتها وآلامها !

وأنت قد عرفت من البداية أنك سوف ترتبط بسيدة ليست أهلا للثقة ولا الاخلاص ولا الوفاء

فما وجه العجب فى أن تنصرف عنك بعد أن فقدت كل شىء ولم تعد قادرا على الاغداق عليها ، ولا على « حمايتها » بالتناوب مع زوجها !

إنها نفس القصة القديمة الجديدة ، لكننا لا نتعلم درس التجربة أبدا إلا مصهورا بنار الألم ، فتجرع ألمك راضيا إلى أن تبرأ من عشقك لهذه السيدة العابثة بعد حين . وانس أية أفكار تدور برأسك حول الانتقام منها أو إبلاغ زوجها بأمرها لكى لا تضاعف من متاعب حياتك وحتى لا تظل شعلة حبها متوقدة داخلك رغما عنك . فالانتقام نوع من الاهتمام بأمر من نريد الانتقام منه ، والحل الأفضل هو تجاهله والبعد عنه ، وتجنب كل ما يجدد ذكراه إلى أن تذوى هذه الشعلة تدريجيا فى النفوس وتموت موتا طبيعيا وليس مفتعلا .

كما أن « شرف » زوجها ليس مسئوليتك لكى تكلف نفسك عناء إبلاغه بما لا يحب هو أن يعرفه ولن يصدقه . ولن يقدر لك إبلاغه به وإنما سوف يتحول غضبه إليك وينحصر انتقامه فيك أنت وليس فيها، ومن تنجح فى الاحتفاظ بهذه « الشبكة » الفريدة من العلاقات فى ظل زوجها لن تعجز عند الضرورة عن قلب المائدة

عليك أنت ولن تعجز عن إقناع زوجها بأنك تطاردها وتحاول إقامة علاقة غير مشروعة معها لكنها وهى « الزوجة الشريفة » المخلصة قد سدت عليك كل الأبواب فلم تجد سوى باب الادعاء الرخيص عليها بما ليس فيها !! فابتعد عن المتاعب وحاول أن تبدأ حياتك من جديد فى مجال آخر . ومكان آخر ملتزما بالطريق القويم .. وكفى الله « العاشقين » شر العناء !

نظرة الاستخفاف !

أنا يا سيدى طبيب سابق بالمستشفى الجامعى بأكبر مدن الصعيد ، وأبلغ من العمر ٦٥ سنة ، وقد ترددت طويلا فى أن أكتب إليك ، ثم استجمعت إرادتى لكى أزيح عن كاهلى مالا يطيق ، فلقد نشأت فى أسرة فقيرة بل ومعدمة وكنت أستذكر دروسى فى طفولتى وصباى على لمبة الجاز ، وتحت عمود الكهرباء فى الشارع ، وأعمل فى الإجازة الصيفية لتدبير نفقات الدراسة حتى حصلت على بكالوريوس الطب وعملت ودرست للماجستير وحصلت عليه وتزوجت وأصبحت لى أسرة صغيرة وبيت ملائم واشتهرت كطبيب فى مدينتى وانهال الرزق على وبدلا من أن أشعر بأحاسيس الفقراء الذين كنت منهم وخبرت معاناتهم واحتياجاتهم ، فقد وجدتنى أتحول فى عملى تدريجيا إلى جزار أو منشار ينشر هؤلاء البسطاء ويمتص دمهم بلا رحمة ويحنو فى نفس الوقت على الأغنياء ويتملقهم ! وحين أكتب إليك رسالتى هذه الآن يتراءى لى وجه مريض بائس كان يحتاج لإجراء جراحة خطيرة وطلبت منه قبل أن يدخل المستشفى الخاص بى دفع مبلغ معين ، ولم يكن معه سوى نصف هذا المبلغ فقط وراح يبكى ويستعطفنى ويرجونى أن أرأف بحاله وأقبل منه ما معه لكنى أصررت على موقفى بصرامة وطلبت منه تدبير المبلغ كاملا خلال ١٢ ساعة فقط وإلا فلن أجرى له الجراحة ، فهرولت زوجته تبيع ذهبها القليل وما عندها من ماشية ، ورجعت إلى بالمبلغ ، وبدأت فى تحضير المريض للجراحة ، فإذا به يموت قبل إجرائها بنصف ساعة فقط ، فلا أفكر لحظة فى أن

ارد المبلغ لاهله المفجوعين والمعدمين وإنما ازعم لهم أنه قد مات أثناء الجراحة ، واستوليت على المبلغ باعتباره أجر الجراحة حتى ولو كانت لم تتم من الأصل ! كما تتراءى لى أيضا صورة مريض آخر لم أسمح له ابدا بدخول المستشفى الخاص بى وتركته يلفظ أنفاسه الأخيرة على ابوابه وهو يدعو الله على ويرجو لى سوء المآل !

اما وجه هذا الطبيب الشاب أو الذى كان شابا وقتها فإنه لا يتراءى لى وإنما يطاردنى بملامحه وبآخر ما نطق به من كلمات فى آخر لقاء بينى وبينه منذ سنوات طويلة . فلقد كان يستحق التعيين فى المستشفى الجامعى لتفوقه لكنى حرمته وحرمت زملاءه الذين يستحقون التعيين بعد حصولهم على الماجستير بلعبة حقيرة ، وعينت بدلا منهم ابنى ، وابن شقيقى ، وابنة شقيقتى ، وجاءنى هذا الطبيب الشاب ليقول لى إنه سوف يرحل عن المدينة كلها ليعمل بإحدى الدول العربية لكنه يعلم علم اليقين أن الله لن يضيع حقه هدرا وأنه لن يتركنى بلا عقاب ولسوف يجىء اليوم الذى أعض فيه بنان الندم على ما فعلت به وبزملائه وما ظلمتهم فيه .. ثم انصرف الطبيب الشاب وأنا ابتسم وأنظر إليه باستخفاف مترفعا عن الرد عليه فى الظاهر .. ومتعمدا ذلك فى الباطن لكيلا أضاعف من ثورته وحنقه علىّ برد قد يطلق براكينه فيوجه إلىّ ما هو أشد جرحا أو إهانة ، أمام المساعدين والمرضات ، ومضى هذا الشاب إلى حال سبيله ، ونسيته ونسيت زملاءه الذين أضعت عليهم فرصة التعيين بالمستشفى سنوات طويلة لا أعرف ماذا جرى لهم خلالها. ولعلك الآن تتساءل لماذا أروى لك هذه الواقعة وغيرها من الوقائع التى تسىء إلىّ وإلى أبنائى وأقربائى إذا تعرفوا على شخصيتى من خلال هذه الرسالة ، وأجيبك على التساؤل إننى لم أعد أهتم بأحد من هؤلاء جميعا ، بعد أن تركونى وتخلوا عنى ! أما لماذا تخلوا عنى وانشغلوا بأنفسهم عنى ، فلأننى قد مرضت ويا للعجب منذ ثلاث سنوات بالمرض اللعين الذى تخصصت فى علاج المرضى منه ، ومنذ ثلاث سنوات وأنا أسافر للعلاج فى الخارج كل سنة مما استهلك معظم ما جمعت من مال خلال سنوات عملى الطويلة ،

ولو واصلت السفر للعلاج على هذا النحو فلن يمضى أكثر من عام وأصبح بعده « على الحديدة » بلا مدخرات .. ولا مال .. ولا شىء سوى معاشى كطبيب ، وذلك بعد أن تخلى عنى أولادى وأبناء إخوتى الذين وضعتهم فى مراكزهم وثبتهم فيها .

إننى أكتب إليك هذه الرسالة لأقول لكل من تسول له نفسه أن يظلم غيره إن الله يمهل ولا يهمل .. وإن عقابه شديد ، كما أكتبها لك أملا ورجاء ودعاء إلى الله أن يعفو عنى ويشفينى ويغفر لى وأملا ورجاء أيضا لكل من ظلمتهم خلال رحلة الحياة أن يسامحونى فيما فعلت بهم لكى يسامحنى الله فيه .

كما أرجو أن تصل رسالتى هذه عبر بابك إلى أبنائى لكى يساعدونى ويرعونى فى مرضى ، وعذرا لأنى لم أكتب لك اسمى لأننى لم أستطع ذلك ، مع أنى لا أعرف كيف استطعت أن اكتب لك هذه الرسالة ، لكن ظنى أن الله سيكتب لى بعد اعترافى بكل ما فعلت الشفاء، وسيجعل لى مخرجا من ضيق ذات اليد ، وبارك الله فيك وفى أمثالك والسلام .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

قد يبدو تعليقى على رسالتك هذه بعيدا ظاهريا عن مضمونها لكنك لو تفكرت قليلا فيه لعرفت أنه فى صلب قصتك وتجربتك .. فلقد قال الشيخ الحكيم ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه المعروفة : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها !

وقال أبن عباد الرندى الاندلسى فى تفسير هذه الحكمة العطائية إن الشكر على ثلاثة أوجه : شكر بالقلب، وشكر باللسان، وشكر بالجوارح !

فاما شكر القلب واللسان فهما لا يحتاجان إلى تفسير وأما شكر الجوارح فهو ما أريد أن أحدثك عنه لتفهم بعض سر ما تعانيه الآن، فلقد قال ابن عباد فى تفسير شكر الجوارح، إن رجلا قد سال

أبا حازم، ما شكر العينين ؟ قال : إذا رأيت بهما خيرا أعلنته وإذا رأيت بهما شرا سترته !

قال : وما شكر الأذنين ؟ قال : إذا سمعت بهما خيرا وعيته وإذا سمعت بهما شرا دفنته ! قال : فما شكر اليدين ؟ قال ألا تأخذ بهما ماليس لك وألا تمنع حقا لله فيهما . قال : فما شكر الرجلين ؟ قال: إن رأيت شيئا غبطته استعملتهما فيه ، وإن رأيت شيئا مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله تعالى . فأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع اعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فلم ينفعه ذلك ولم يحمه من الحر والبرد .

هذا ما قاله الرندى فى تفسير الحكمة العطائية وفضيلة الشكر، أما القطب الصوفى الإمام الجنيد رضى الله عنه فقد سئل وهو صبى صغير : ما الشكر ؟ فقال : ألا يعصى المرء الله بنعمته عليه !

وقال أحد الصالحين فى معنى الشكر إن شكر النعمة بأنواعه الثلاثة معا يضمن حفظها من الزوال ومن تغير الحال بالانتقال، وزيادتها فى الحال، وبركتها فى المآل، واتصال العبد بمولاه على وجه العافية بلا إخلال !

وأنت يا سيدى كما تروى عن نفسك قد غير الله من حالك إلى حال وعوضك خيرا عميما عما كابدت من حرمان فى طفولتك وصباك ، واغدق عليك بالرزق والأسرة والأبناء والمكانة الاجتماعية ، ففيم استعملت كل هذه النعم وكيف شكرت ربك عليها؟ إن الواضح هو أنك لم تعرف للأسف شكر الجوارح هذا، ولم يكن له فى حياتك العملية والمهنية أثر كبير أو صغير وإنك قد عصيت ربك للأسف بنعمته عليك، فأخذت مالا حق لك فيه من مال البسطاء الذين كنت أحرى بأن تترفق بهم، وسلبت حقوق من كانوا يستحقونها، وأعطيتها لمن لا يستحق من ذوى رحمك وواصلت رحلتك فى الحياة غير عابئ بدعاء الداعين ولا وعيد المتوعدين فكأنما لم يترك الحرمان فى الطفولة أثرا إيجابيا عليك فى رقة

القلب .. واستشعار حرمان الآخرين والرفق بهم، وإنما ترك لديك فقط بصمته السلبية على من لايعتصمون بقيمهم الدينية والأخلاقية فيدمر معنوياتهم ويطلقهم فى الحياة كالوحوش الكاسرة تريد أن تعوض حرمانها السابق من كل طريق .. فلا يكون ضحاياها غالبا ويا العجب إلا من رفاق الحرمان السابق .. ومن كانوا مثلهم حتى وقت قريب، وهذه مفارقة أخرى من مفارقات الحياة المليئة بالغرائب وما يستحق تاملات المرء وعجبه .

لقد قلتُ من قبل إننا قد ننسى بعض ما اقترفنا من أفعال لا أخلاقية فى غمار انهماكنا فيما أسماه الكاتب المسرحى الأمريكى أرثر ميللر بسباق الفئران المذعورة للوصول إلى أهداف الحياة المادية من أقصر طريق ، لكن هذه الأفعال لا تنسانا ولا تتركنا ، وإنما تطل علينا فى الوقت المناسب كالأشباح لتذكرنا بما فعلنا وتطالبنا بالتكفير عنه ، وآفة بعض البشر إنهم لا يتذكرون ولا يندمون إلا حين تقلب لهم الأيام ظهر المجن بعد طول استدراج لهم بالنعم مصداقا لقوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ .. وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ أى من حظوظ الدنيا التى لم يشكروا الله عليها ولم يرعوا حقوقه وحدوده فيها : ﴿ أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ أى يائسون قانطون من رحمة الله ، صدق الله العظيم .

أما ترى أن هذا هو الحصاد الطبيعى لغرس ثمرة مغتصبة فى أرض لم تكن أهلا لها من الأصل .

إننى أرجو لك الشفاء من مرضك بإذن الله .. وأرجو من أبنائك وذوى قرباك الا يتخلوا عنك والا يحرموك حقوقك المادية والإنسانية وانت فى ضعفك ومرضك ومحنتك ، مهما كانت شواغلهم وانشغالهم عنك بامور الحياة .

أما من ظلمتهم خلال انغماسك فى سباق الفئران اللعين هذا ، فلعل الله قد عوضهم عما حرمتهم منه خيرا كثيرا ، ولعلهم إذا قرأوا رسالتك هذه الآن لم يجدوا فى أنفسهم تجاهك وبعد كل هذه

السنين سوى الإشفاق والرثاء .. وتعميق إيمانهم بعدل من لا يغفل ولا ينام ، لكن الندم يا صديقي كالشكر سواء بسواء .. لا يكون باللسان وبالقلب وحدهما .. وإنما بالجوارح أيضا وبالأفعال التى تقوم بها هذه الجوارح فلعلك تبحث عمن اغتصبت مالهم من التعساء والمحرومين .. وترده عليهم وهو هين ولن يؤثر على ما بقى من مدخراتك فى كثير أو قليل ، لكنه إن فعلت وأكثرت أيضا من العطاء لمن يحتاجون إليه .. سيكون عظيم الأثر على حياة هؤلاء البؤساء .. وعظيم القدر عند ربك .. ودليلا عمليا صحيحا على صدق ندمك .. وعمق رجائك إلى الله أن ينعم عليك بالشفاء ويغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

ضياع العمر!

أنا سيدة متوسطة الجمال في العقد الرابع من عمري نشأت في أسرة متوسطة الحال وعملت خلال دراستي بالمدرسة التجارية التي اخترتها لاختصار طريق التعليم ، وبعد إنهاء دراستي بها عملت في مكتب للمقاولات وعمري عشرون عاما ، فتعرفت في هذا المكتب برجل أعمال في الأربعين من عمره بهرني بشخصيته الفذة وأسلوبه المنمق ومظهره القوي الخشن وشعرت بأنه حلمي القديم وأثار إعجابي بكل ما فيه من خشونة وحدة ، وتعلقت به وأحسست بأنني لا أستطيع الحياة بدونه ، وكانت المشكلة المتوقعة بالطبع هي أنه زوج وأب ، لكنني لم أسمح لهذه المشكلة بأن تحول بيني وبينه ، فلقد وجدت نفسي مجنونة بحبه ولا أريد منه إلا أن يحبني ، وقد كان لي ما أردت وراح يطوقني بحبه وحنانه واهتمامه بأمري وكأنني محور حياته بالرغم من أنه لم يحدثني في الزواج ، وكنت في ذلك الوقت كالزهرة المتفتحة وكثيرون يلتفون حولي ويطلبون رضائي ويتقدم لي كثيرون للزواج مني لكني أحكمت إغلاق الدائرة حولي واكتفيت بحبي لهذا الرجل وحبه لي . ومضت الأيام ، وأنا لا أرى من الدنيا سواه .. وأنتظر أن يتوج حبنا بالزواج ، لكنه كان دائم الحديث عن وضعه الاجتماعي وظروف حياته وأبنائه والتزاماته العائلية إلخ ، ومع أن الإشارة كانت واضحة إلى أنه لا ينوي أن يتوج حبنا بالزواج ، فلقد واصلت التعلق بالأمل فيه حتى النهاية ، وكلما تقدم لي خاطب ورفضته شعر هو بالسعادة الشديدة لارتباطي به وتفضيلي له على كل شيء .

إلى أن تسربت الأعوام من بين يدى بغير أن أشعر بها ووقفت ذات يوم أمـام المرآة أنظر إلى بصمـات الزمن على وجهى وأشـعر بـالحزن العميق على شـبابى الذى ضاع مع رجل أنانى مات ضمـيره وقلبه ولم يحب سوى نفسـه وأحسست فجأة بضـياع العمر ، فلقد عـشت أسيرة لهـذا الحب البائـس ثلاثة عشـر عـاما كـاملة ، وكنت فى بدايتـه زهرة نضرة فى شرخ الشباب ، وها أنا الآن فى الثـالثة والثلاثين من العمر ، ولم أحـقق مـا حلمت به لنفـسى مع هذا الرجل فـتـوقـفت مع نفـسى وقررت أن أضع قلبى الـذى كبّدنى ضـياع الشبـاب تحت قدمى ، وأن أقبل أول رجل يتقدم إلىّ ، وبالفـعل قبلت الزواج ممن تقدم لى بعد هذه الوقفة وتنازلت عن كل أحلامى وتطلعاتى ، وتزوجت من رجل شعرت للوهلة الأولى أنـه يخـتلف عنى كل الاخـتـلاف فى طبـاعى وعـواطفى وشخصيتى ، فلـقد كان رجلا جامد المشاعر بليد الإحـساس مغلقا على نفسه ومنفصلا عن الدنيا ، فـى حين كان أملى أن أجد رجلا يعوضنى سنوات عمـرى الضائعة ، ويحتـوينى بحبه لأسـعد بزواجى منه ، لكن هيهات أن يحـدث ذلك ، فلقد كتبت علىّ الأقدار أن أكون ضـحية لرجل أحببـته ، وزوجة لرجل كرهـته ، واسودت الحياة أمـامى ، وفى خلال ذلك شعـرت بدبيب الحياة يتـحرك فى أحشـائى ، وأملت أن تعوضنى الأمومـة عما حـرمت منه وأن يتغـير زوجى بعد أن يعـرف أنه سوف يصبح أبا فلم تهتز فيه شعرة لخبر الأبوة القريبة ، وشعرت باستحالة الحياة مـعه ، ووقعت بينى وبينه مشادة حـادة تركت البيت على أثرها إلى بيت أهلى ، وتكرر بعـد ذلك هجـرى للبـيت ورجوعى إليـه وزادت الخلافـات بيننا ، وبعد مـشادة ساخنـة بينى وبينه حول بخله وشـحه و«قـحطه» فـضـلا عن كل عـيـوبه الأخـرى ، تركت البـيت من جـديد وأقسـمت ألا أعود إليه أبدا ودعوت الله أن يفـرق بينى وبين هذا الرجل البخيل البليد ، كما دعوت الله أيضا على من تسبب فى وقوعى بين يدى هذا الزوج وفى ضياع عمرى من قبل ، ورفضت كل محاولات الوسـاطة والصلح بيننا ووضعت مولودتى الجميلة وأنا فى بيت أهلى ، فلم يكلف

الرجل نفسه حتى عناء السـؤال عن نوع المولود ، ومضت ثلاثة شهور بغيـر أن يراه ، فتمـسكت برغبـتى فى الانفصال عنه للـنهاية ، وطالت المفـاوضات والمداولات بيننا ثلاث سنـوات حصلت بعـدها على الطلاق بعد تنازلى له عن جميع حقوقى ، وأصبحت مطلقة وأنا التى لم تتزوج لأكثـر من بضعة شـهور ، وأخفـيت انضمامى إلى سـجل المطلقات عن كثيـر من المعارف والأصدقاء ، وأغلقت الدائرة حوالى وتفـرغت لتربية طفلتى ، فإذا بالرجل الذى أضـاع عمرى بعد أن عـرف بطلاقى يعرض علىّ الزواج منه ، ولكن بعقد عرفى وشعـرت بالصفعة الثانية منه .. إذ هل بعد كل مـا تعرضت له بسـببه وبعـد ضياع العـمر مـعه يكون كل ما يـقدمـه لى هو هذا العرض الرخـيص ، وازددت كرها له هو الآخـر وشعرت بالاستياء والمرارة تجاه كل شىء بل وبالهزيمة أيضا والهوان واختل توازنى لفـترة طويلة بعـدها ثم بدأت أتماسك وأستعـيد توازنى وأركـز اهتمـامى فى ابنتى ، ودرجت الطفلة فى مـدارج الطفولة حـتى بلغت الخامـسة من عمـرها ، فبدأت أعـانى من مشكلة جديدة وغـريبة مـعهـا هى مشكلة انسـياق طـفلتى هذه فى مشـاعرها تجـاه أى رجل يقابلـها أو يطرق علينا بابنا حـتى ولو كان مـحصل الكهـرباء أو عامل النظافـة ، فكل رجل عندها هـو بديل للأب الذى حـرمـت منه ، والذى ذهبت لرؤيتـه مرة واحدة ولم تطلب بعـدها أن تراه مرة أخـرى بسبب جمـوده وبلادة حسه ، والآن يا سـيدى فإن قلبـى ينزف دما من أجل ابنتى التى تعيش يتيـمة الأب رغم وجوده على قيد الحـياة ، ولقد تألمت كـثيـرا منذ أيام حـين وجدتـها تقـول لى إنهـا تريدنى أن أتزوج لكى تسـتطيع أن تقـول لزوجى يا « بابا » مع أنهـا لا تعرف مـعنى الزواج وإنما تشعر فقط بمعنى الأبوة التى تفتـقدها، وأنا الآن يا سيدى مهلهلة بين شقائى بنفسـى ، وبين عذابى بابنتى ، ولا أقوى على خوض تجربة ثالثة بعـد أن أصبحت حطامـا ثم أين أجد الرجل الذى يضمـد جراحى ويكون لابنتى الأب الحنون الذى تحلم به وأنا لا آمن على ابنتى مع أى رجل ولو كـان زوجـا لى ؟ ومـاذا أفعل مـع نفسـى ومع ابنتى ونحن

نحتاج للحياة فى ظل الامان والطمانينة ، لكن الشروخ تملأ نفسى وتشعرنى بكل الخوف على ابنتى قبل الخوف على نفسى ولست أعرف اى طريق أسلكه فى الحياة .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

نشرت رسالتك يا سيدتى رغم تحفظى على منطقك فيها لأنها تروى فصول قصة تقليدية قد تتكرر كثيرا فى الحياة ، ولا يتعلم احد دروسها للأسف إلا بعد ضياع زهرة العمر ، أما عناصرها فواحدة فى كل الأحوال ، فتاة صغيرة السن بريئة المشاعر تخرج إلى الحياة العملية لأول مرة فتلتقى برجل متزوج وله أبناء يكبرها فى السن فيبهرها بنضج شخصيته الطبيعى ، والمفترض فيمن بلغ منتصف العمر وبقوته وقدراته وامكاناته ، فتنجذب إليه متاثرة بقلة خبرتها بالحياة وبصغر السن وانعدام التجربة ، وتبدأ دراما الحب المحروم المحكوم باوضاع طرفيه الاجتماعية ، وتجد الفتاة نفسها مدفوعة بعواطفها وحدها عاجزة عن التخلى عن حبها رغم إدراكها لصعوبة تتويجه بالزواج ، ويجد الرجل نفسه عاجزا أو غير راغب فى أن يتحمل تبعات هذا الحب وآثاره الوخيمة على حياته العائلية والاجتماعية ، فيواصلان الطريق معا وكل منهما ينطوى فى أعماقه على أمل يائس يختلف عن أمل الآخر ممارسا فى ذلك نوعين دائمين من الخداع أحدهما للنفس ، والثانى للآخر .

أما خداع كل منهما لنفسه فيتمثل فى محاولة الفتاة لأن تقنع نفسها بعد أن سلمت بصعوبة تحقق الأمل فى الزواج ممن تحب ، بانها لا تريد سوى « الحب » ، وليست على استعداد لأن تفقده حتى ولو ضحت فى سبيل ذلك بحقها المشروع فى الزواج والاستقرار، وهو خداع للنفس وحيلة نفسية دفاعية يسميها علماء النفس بحيلة «الانكار » وفيها يقنع الإنسان نفسه بعد أن تحقق من عجزه عن نيل ما يرغبه فى أعماقه بانه لا يريده فى الحقيقة ،

وإنما يريد شيئا آخر يراه أفضل وأبقى .

وأما خداعها للطرف الآخر ، فلأنها ومهما أعلنت لشريكها في مثل هذه العلاقة من أنها لا ترغب في الزواج منه تقديرا منها لظروفه العائلية والاجتماعية، فإنها تنطوى فى أعماقها على التمسك بالأمل اليائس فى أن يتغلب ذات يوم على هذه الظروف ويتوج حبهما بالزواج مهما كانت خسائره على جبهة الأسرة والأبناء .

وأما خداع الرجل لنفسه ، فيتمثل في محاولته الدائمة لأن يقنع نفسه بأنه لم يكن « المسئول » عن تعاسة شريكته في العلاقة ولا عما تخسره من حياتها وفرصها المشروعة فى الزواج والاستقرار باستمرارها فيها لأنها هى التى أرادت ذلك من البداية وارتضته وسلمت به بعد أن أخلى أمامها مسئوليته عن ذلك وأكد لها مرارا أنه لن يستطيع زواجها وتحدث إليها كثيرا عن ظروفه العائلية والاجتماعية ، وهى حيلة نفسية دفاعية أيضا تستهدف إعفاء النفس من الإحساس بالذنب ، ويلجأ إليها الإنسان لا إراديا حين يستشعر مسئوليته عن مصير شريكته فى العلاقة ، لأنه يدرك تماما أنه شريك كامل المسئولية فيما تصنع بحياتها معه ، وأنه لو لم يكن راغبا في استمرارها فيما تفعل بحياتها ، لما عجز عن إنهاء قصته معها قبل أن تستفحل الخسائر ، أو قبل أن تبدأ من البداية .. أما خداعه للطرف الآخر في العلاقة ، فيتمثل أيضا فى أنه ومهما صرح بغير ذلك فإنه ينطوى فى أعماقه على الأمل المكتوم فى أن تستمر هذه العلاقة وتتواصل لأطول فترة ممكنة على ما هى عليه الآن وبغير أن يضطر لتحمل تبعاتها وآثارها السلبية على حياته العائلية واستقراره الأسرى وحياة أبنائه .

والمؤسف حقا هو أن كلا من الطرفين قد يواصل الهروب من مواجهة الحقيقة المرة ويواصل النكوص عن تحمل تبعاتها مؤجلا التفكير فى العواقب إلى مرحلة قادمة يتمنى فى أعماقه ألا تجىء أبدا .

ولهذا فليس من السهل.فى مثل هذه العـلاقة المرفوضة أن يفرق الإنسـان بين الجانى والـضحـية ، أو أن يحكم عـلى أحدهمـا بأنه ضحـية الآخر مائة بالمائة ، وإن كـانت الخسائر دائمـا أفدح وأبلغ على جانب الفتـاة للأسف . وقصتك يا سيدتى .. أصـدق مثال على ذلك ، إذ لم يكن ضياع العمر وفوات فرص الاستقرار والسعادة هما فقط كل خـسائرك فى هذه العلاقة الـيائسة ، بل إن ما تخلّفـه مثل هذه التـجـربة الخـاطئـة الطويـلة من بصـمـات وآثار غـائرة فى شخـصية الفـتاة ونفسـها ومشـاعرها وأفكارها وقيـمها ورؤيتـها للحيـاة ، يقضى على كل ما تبـقى لديها من براءة المشاعر ويفـسد نظرتها للحياة ويعمق من شكوكها فى الآخرين ويقلل إلى حد كبير من فـرص تواؤمهـا مـع فـكرة الـزواج بعد هـذه الـتجـربة ، ومن استعدادها للتجاوب النفـسى مـع من قد يحل فى حياتها محل بطل تجربتها المريرة .

بل إنهـا تجـعل منها فى الـنهاية شـخـصيـة مـركبـة يصـعب إرضاؤها ، ويصـعب قبـولها للآخريـن وقبولهـا منهم . ويكفى من مظاهر هذا التركيب النفسى المعقد ، أن أشير فقط إلى ما يتفاعل فى أعماقها من مـشاعر متناقضة تجاه شريكهـا فى هذه العلاقة ، حين يطول بها العـهد .. وهى عاجـزة عن الكف عن حبه ، وعـاجزة فى نفس الوقت عن إعـفائه من اللوم والمسـئوليـة عن ضيـاع عمـرها معه ، فـتتخذ عـلاقتها به وربما لعدة سنوات شـكل علاقة الحب ـ الكره ، التى يقـول بعض علماء النفس إنهـا تجـتـمع فيهـا مشـاعر الحب والكراهية معا فى قلب الإنسـان تجاه آخر يحبه ، لكنه ينقم عليه فى أعمـاقه بعض الأمور الأساسيـة ، ولا يستطيع بالرغم من ذلك الابتعاد عنه ونزع حبه من قلبه ، ولا يستطيع فى نفس الوقت أن يتخلص من مشاعر الكراهية له بسبب ما ينقمه عليه .

وليس هناك مجال أرحب لمثل هذه المشاعر المتناقضة المركبة من مثل هذه العـلاقة الطويلة اليائسـة بين رجل متزوج وفتـاة تتعلق

بالأمل العاجز فيه ١٣ عاما كاملة ، وتسفر فى النهاية عن خروجها منها وهى حطام نفسى ومعنوى ، كحطام السفينة الغارقة التى تحملها الأمواج إلى الشاطىء .

ولأن المثل الهولندى القديم يقول إنه حين ينقلب الحب إلى كراهية فإنه لا يعرف حدودا ، فلقد كرهت أنت فى النهاية شريكك فى هذه التجربة الطويلة واعتبرته المسئول الأوحد عن تدمير حياتك ، ورفضت عرضه الرخيص عليك بالزواج العرفى منك ، ليس فقط لأنه بالفعل عرض رخيص لا يتكافأ مع ضياع العمر بلا طائل معه ، وإنما أيضا لأنك قد كرهته حقا ولم يعد له فى قلبك أى نصيب من الحب القديم ، ولو كان له بقية من الحب فى قلبك بعدما واجهت من تعاسة لربما كنت قد رضيت بالعرض الرخيص حتى ولو لامك على قبوله اللائمون ، لكنك كنت صادقة مع نفسك على أية حال حين رفضت هذا العرض الرخيص وحين ذكرت أنك قد كرهته هو الآخر بعد من كرهته من الآخرين ! كما أنك قد عبرت عن نفسك وعما خلفته فى شخصيتك هذه التجربة المريرة ، تعبيرا تلقائيا نادرا حين قلت إنك قد شعرت باستحالة الحياة مع زوجك لكثرة الخلافات بينكما حول بخله وشحه .. و« قحطه » إذ انه فى هذه العبارة تتمثل بعض أسباب أزمتك النفسية التى حالت بينك وبين التواؤم مع زوجك بعد أن ألقت بك أمواج الحياة بين يديه ، وفيها أيضا بعض أسباب فشلك فى بذل الجهد الكافى لإنجاح زواجك به، فلقد أفسدت تجربتك المريرة الطويلة رؤيتك للحياة وغيرت الكثير من مفاهيمك وأفكارك ومعاييرك ، فنقمت على زوجك مثلا جمود مشاعره وتبلد أحاسيسه ، لأن لديك « مرجعية » فى هذا الشأن أتاحت لك فرصة المقارنة الظالمة وإصدار الأحكام القاسية ! ولو كنت قد ارتبطت بهذا الرجل قبل أن تفسد هذه التجربة حياتك ومعاييرك لربما كان حكمك عليه مختلفا فى هذا الشأن ، خاصة إنك تعترفين بكراهيتك له من البداية .. وبعدم

بذلك لأى جهد عاطفى معه يدفعه لأن يحبك ويحرك مشاعره ، وفارق كبير بين « مشاعر » رجل ارتبط بفتاة ١٣ عاما ، وبين مشاعر راغب فى الزواج دخل البيوت من أبوابها ولم تنسج الأيام بينه وبين زوجته بعد خيوط الحب والعاطفة ، كما أنك أيضا قد نقمت عليه بخله وشحه و « قحطه » .. ولقد حكمت عليه أيضا فى هذا الشأن بالقياس إلى « كرم » بطل التجربة السابقة «وسخائه» فإذا كنت لا أستطيع أن أقدر مدى صدق حكمك عليه بالبخل ، فإنى أستطيع على الأقل أن أقول لك إنك قد « حاسبته » على قحطه أى على قلة دخله وموارده بالمقارنة برجل الأعمال بطل التجربة المريرة ، والبخل نقيصة أخلاقية لاشك فى ذلك أما « القحط » فكيف يكون نقيصة أخلاقية يحاسب عنها من يكابده ، وهو لا حيلة له فيه ولم يرده لنفسه ؟ إنها المقارنة الظالمة يا سيدتى بين إنفاق « العاشق » المتحرر من التزام الزواج بمن يحبها، ولا يرى بأسا فى تعويضها عما يحرمها منه ببعض المال الذى لا قيمة له وبين انفاق الزوج محدود الموارد الذى يحسب حساب المستقبل ويكافح لتلبية مطالب الحياة . ولأن معاييرك قد فسدت من جراء هذه التجربة الخاطئة ، فلقد أخطأت أيضا الحكم عليه فى هذا الشأن ، وحاكمته محاكمة ظالمة عن تبلد أحاسيسه وقلة موارده ، وألقيت باللوم كله عليه ، وأعفيت نفسك من كل لوم ، ولو شئت الحق والعدل لقلت لك إنك تتحملين النصيب الأكبر من المسئولية عن إتمام هذا الزواج من البداية ، وعن فشله السريع فى النهاية ، لأنك لم تكونى صالحة من الناحية النفسية والعاطفية للارتباط برجل آخر فى اعقاب تجربتك التى اهدرت فيها زهرة عمرك ، ولأنه كان زواج هروب من حب فاشل ، أكثر منه زواج أمل فى السعادة ، واستعداد كاف للحرص عليه والدفاع عنه .

ومن عجب إنك لا تشعرين باى استعداد لإنصاف هذا الرجل البائس الذى سعى إليك راغبا فى السعادة والأمان معك ، فقبلت به

وأنت تنكرين عليه كل شيء فيه وتعاملت معه بنفسية الحطام المخربة من أثر تجربتك السابقة ، فلم ترى فيه شيئا قابلا للتواؤم معه ، ولم تبذلى أى جهد لتجاوز أزمتك التى لا ذنب له فيها لكى ينجح زواجك به ، وأسرعت تلقين باللوم عليه وتحملينه مسئولية كل شيء ، وكأنك الطرف الوحيد الضحية لزواجك منه ، مع أن طفلتك هى الضحية الأولى .. وهو ضحيتك الثانية .

ولا غرابة فى ذلك لأنك كرهته منذ البداية ، حتى قبل أن يفعل ما يستحق من أجله هذه الكراهية .. ولأن كراهيتك له كانت جزءا من كراهيتك لمن حطم حياتك قبله وربما أيضا لكل الرجال !

أما عذابك بتطلع طفلتك لأن يكون لها أب تستظل به ، فإنه لا ينبغى له أن يحول أنظارك بعيدا عن جنايتك أنت عليها بقبولك أولا للزواج من أبيها بغير استعداد نفسى كاف للقبول به ، ونكوصك المعيب عن الدفاع عن حق طفلتك المشروع فى أن تنشأ بين أبوين طبيعيين لها .

ولقد تأخرت وقفتك الأولى مع نفسك ١٣ عاما طويلة قبل أن تجدى الشجاعة للإقدام عليها .. لكن وقفتك الثانية معها لا ينبغى لها أن تتأخر عن الآن لحظة واحدة .. فأعيدى النظر يا سيدتى فى حياتك وقيمك وأفكارك كلها ورؤيتك للحياة ، واعترفى بمسئوليتك عن إهدار زهرة عمرك فى هذه التجربة الخاطئة منذ البداية ولا تكتفى بإلقاء اللوم على شريكك فيها وحده ، واعترفى كذلك بمسئوليتك الكبرى عن فشل زواجك وحرمان طفلتك من حقها فى الحياة الآمنة .

فهذه هى البداية الصحيحة لمن يريد ألا يكرر أخطاءه .. وأن يظفر بالسلام والاستقرار والأمان .

والحق إننا نحتاج لأن نتعلم كيف ندير حياتنا إدارة عاقلة لا توقعنا فى الأخطاء التى كنا نستطيع تفاديها بقليل من التحكم فى جماح نفوسنا وأهوائنا ولا نهدر فيها العمر الثمين فى الجرى

وراء السـراب والأوهلم . ولقـد أن الأوان لأن تـعـتـرفى بإدارتك الفاشلة والخاطئة لحياتك طوال الأعوام الماضية ، وان تراجعى كل قيمـك السابقة وأفكارك وتعدلى مـا سوف يحتاج منهـا إلى تعديل وتصحـيح ، وتعفى « الأقدار » من أية مـسئوليـة عن ارتباطك لمدة ١٣ عاما برجل متزوج وله أبناء ، وكذلك عن فشل زواج لم تمنحيه أنت من البداية فرصته فى الاختـبار والنجاح ، وحين تسلمين بكل ذلك سوف تتغير رؤيتك كثيرا للأشياء وسوف تجدين نفسك قادرة بعد حين على استـقبال مؤثرات الحياة الجديدة ، والتـواؤم معها ، وربما قادك ذلك إلى مـحاولة استـئناف حيـاتك مع زوجك السابق طلبا لسعـادة ابنتك إن لم تكن الفرصة قد ضاعت إلى الأبد .. وقد يقودك ذلك أيضـا إلى التواؤم بلا عناء مع شـريك حيـاة آخر تنعم معه طفلتك بالأمـان .. وتعرفين انت معه لأول مـرة مـعنى الحياة الطبيعية الهادئة .

عصير الألم !

كثيرا ما فكرت فى الكتابة إليك من قبل إلى أن قرأت مؤخرا رسالة « كبرياء الألم » التى يحكى لك فيها زوج معذب عن تمرد زوجته عليه وتخييرها له بين أن « يقبل » باتصالها مرة كل أسبوع بمن ملك عليها قلبها .. أو يقبل بطلاقها منه سرا على أن تستمر مقيمة فى بيته ومع ابنائها وتتزوج من الآخر ، فلا يكون لكاتب الرسالة بعد ذلك أى حق فى مراقبتها أو منعها من الاتصال به ، وقد توقفت طويلا أمام ما قلته له فى ردك على رسالته من أنه إذا لم يكن أمامنا خيار مع الألم الذى يفرضه علينا الآخرون ، فإن الأفضل لنا هو أن يكون ألمنا نبيلا مترفعا وليس ألما ذليلا خانعا ، ناصحا بذلك إياه بأن يكف عن محاولات استجداء مشاعر هذه الزوجة التى تعدت الحدود والأعراف ، وأن يطلقها طلاقا علنيا ليضعها بذلك أمام مسئولياتها عن أبنائها .. وأن «ينتصر » لنفسه بالاستغناء عمن أهانت رجولته وجرحت كرامته .. ولم تحفظ عهد الوفاء له .. ولا تريد عشرته . ولقد أثارت هذه الكلمات الدامية أشجانى وذكرياتى الأليمة ، وأشعرتنى بمرارة العلقم فى حلقى. فقبل سنوات كنت أعيش حياة سعيدة مع زوجتى وابنى وابنتى فى إحدى الدول العربية ، وكنت أكد وأكدح لكى أوفر لهذه الأسرة الصغيرة الحياة الهانئة المستقرة ، ونعيش معا حياة يغبطنا عليها الكثيرون ، كما كنت أحب زوجتى حبا عظيما هائلا دفعنى لأن أتوجها « ملكة » تأمر فتطاع .. وتومىء برغباتها فأسرع بتلبية إشارتها ، كما دفعنى أيضا لأن أعطيها من الحرية ما تحسدها عليها صديقاتها فى

الدخول والخروج والسفر وكل شيء .. اعتمادا على ثقتى المطلقة فيها وفى سعادتنا وحياتنا الجميلة التى لا ينقصنا فيها شيء ولا تشهد أية منغصات أو مشاكل ، وظلت حياتنا على هذا النحو إلى أن فوجئت بزوجتى تطلب منى الطلاق فجأة وصعقت للطلب الذى لم تسبقه أية مقدمات وحاولت معها المستحيل لكى ترجع عنه .. وبذلت الكثير من كرامتى معها لكى تعود إلى رشدها وتقدر مسئوليتها عن الطفلين ووسطت الأهل والأصدقاء لديها .. وقدمت لها العروض وأبديت استعدادى لأى شيء تطلبه أو تراه .. وأكدت رغبتى فى تغيير كل ما قد يكون سببا للطلاق ، لكنها تمسكت بمطلبها حتى النهاية ، وبلا إبداء أسباب مقنعة .. وأخيرا تكشفت القصة وعرفت أنها تريد الطلاق لكى تتزوج من صديق الأسرة ، الذى هدم هو الآخر أسرته وأعاد زوجته وأولاده لمصر لكى يتزوجها ولم تجد كل محاولاتى معها لكى ترجع عن غيها وتجرعت من عصير الألم الذليل الذى تتحدث عنه أنت ما يملأ النفس الآن غصة ومرارة ، وما أندم عليه كل الندم وأتمنى لو كنت قد تعففت عنه وآثرت الألم النبيل المترفع الذى لا يذل كرامة الإنسان ، فلقد بالغت فى تذليلها والتذلل لها دون جدوى ، ولم أجد فى النهاية بدا من التسليم برغبتها وطلاقها .. لكى تتزوج الآخر فى البلد نفسه الذى نعمل به وهو بلد صغير لا تخفى فيه الأسرار طويلا ، وقضت زوجتى السابقة شهور العدة فى بيت إحدى صديقاتها ، ثم تزوجت صديق الأسرة وانتقلت للإقامة معه فى مسكنه ، وحلت محل زوجته التى رحلت عن البلد مع أولادها باكية رافعة رأسها للسماء تدعو على من خرب بيتها ومزق أطفالها .

ووجدت نفسى أعيش فى المسكن نفسه الذى شهد قصة سعادتى وعذابى معا أرعى أطفالى الصغار وحدى . وأتجرع المهانة والإحساس بالذل وجرح الكرامة .. وأتفادى المرور فى الشارع الذى يقيم فيه « العروسان » اللذان ضحى كل منهما بأولاده وشريك حياته ليعيشا معا حياتهما الانانية على أشلاء الوفاء ، والواجب العائلى ، والإخلاص ، وأتفادى الظهور فى أى مجتمع يحتمل أن يجمع بيننا بالصدفة .

ولم أحرم الغادرة من أى شىء طلبته بالرغم من أنها الساعية إلى الطلاق والتى لم تصن عهد الوفاء لزوجها وأولادها لكنى لم احتمل البقاء طويلا بالبلد نفسه الذى تعيش فيه زوجتى السابقة مع زوجها وتركت عملى فيه ورجعت إلى مصر ، واحتويت أطفالى وكرست حياتى لهم .. واتحت لأمهم فرصة رؤيتهم حين تشاء بلا متاعب ولا قيود ، وهى تراهم بالفعل من حين لآخر ولكنها غير متلهفة عليهم، ولا تكلف نفسها عناء شراء هدية بسيطة لهم أو اصطحابهم إلى فسحة صغيرة خلال اجازتها بمصر وهى ترجع فى الاجازة وحدها ، وكذلك يرجع زوجها وحده أيضا لرؤية أولاده ، ولست أعرف حتى الآن ماذا وجد كل منهما فى الآخر لكى يجتذبه إليه . وأى ميزات خطيرة لمسها كل منهما فى شريكه .. ورآها كافية وحدها لأن يحطم من أجلها أسرته ويشرد أبناءه لكن هذا ما حدث .. ولم يكن لأحد حيلة فيه .. ولقد مضت الآن على هذه القصة بضع سنوات فقدت خلالها عملى المهنى فى البلد الذى كنت أعمل به لأننى تركته ورجعت إلى بلدى وفقدت عملى السابق بمصر خلال الاغتراب ، لأننى تجاوزت سنوات الاجازة بدون مرتب بكثير والتهم الريان ـ سامحه الله هو الآخر ـ نصيب الأسد من مدخرات الغربة وثمرة الشقاء والعذاب ، لكنى أعيش بالرغم من ذلك حياة كريمة بما تبقى لى من مال والحمد لله ، ولدى شقة كبيرة بحى راق من أحياء القاهرة مجهزة بكل الكماليات ، وامتلك سيارة حديثة وأولادى يتعلمون فى أرقى المدارس ، وأحاول الآن القيام بمشروع تجارى ناجح بإذن الله .

ولقد ظللت طوال السنوات الماضية ادعو الله أن يعوضنى عما تكبدت من عناء وآلام خيرا عميما وأن أجد اما بديلة لابنائى وزوجة صالحة تمسح عنى ما شعرت به من تعاسة خلال السنوات الماضية ، فلم أوفق إلى ذلك حتى الآن لشدة خوفى من أن اسىء اختيار الزوجة التى اطمئن معها على أولادى حين تنقضى صفحة عمرى .

ولقد قرأت رسالة « الحل الفريد » للسيدة التى تريد ابا لطفلها وتشترط أن يكون عقيما لكى تطمئن على صدق أبوته لطفلها الوحيد ..

وردك عليها بأن الأرمل والمطلق الذى يحتاج لأم بديلة لأطفاله ، لن يكون أيضا أقل أبوة لابنها ممن حرم من الإنجاب لأن له مصلحة مشتركة فى الزواج وفى استمرار البيت الذى يستظل به أطفاله وأطفال زوجته ، وأنا أؤيدك تماما فى هذا الرأى لأن من يحتاج إلى أم بديلة أمينة لأطفاله ، يجد من العدل أن يكون هو أيضا أبا بديلا أمينا لأطفال زوجته لكى تتعمق حاجة الطرفين كل منهما للآخر .. وإنى لأرجو أن ترشحنى لهذه السيدة ، حيث إننى أعرف ربى جيدا وأعرف واجباتى نحو زوجتى وأطفالى ولن أقصر فى أداء مسئولياتى كما أن حاجتى الآن للزواج أكبر بعد أن شارفت طفلتى على سن النضوج وازدادت حاجتها إلى أم تطمئن إليها وتستشيرها فيما تتحرج أن تستشيرنى فيه من شئون الفتيات فى هذه المرحلة من العمر .

وسامح الله من حرمها من حقها الطبيعى فى أن تجد أمها إلى جوارها فى هذه السن وحرم شقيقها من الحق نفسه ولا غفر الله لكل خوان كفور .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

قدر الله وما شاء فعل يا صديقى . فلئن كانت الأقدار قد قضت علينا بأن نتجرع مرارة الإحساس بالغدر وفقدان الأمان والسعادة فى بعض مراحل العمر ، فلابد أن نؤمن دائما بحقنا العادل فى أن ننال كل ما حرمنا منه ذات يوم قريب .

والعظمة الحقيقية هى فى احتمال المكار والصمود فى شموخ أمام أمواج الأكدار التى تعترض طريقنا فى بعض الأحيان كما تقول لنا الحكمة البوذية القديمة ، وبقدر ما نحتمل من اختبارات الحياة المؤلمة ، بقدر ما ترشحنا الأقدار لما تدخره لنا من سعادة مؤجلة تمسح عنا الأحزان .. وليس علينا أن ناسى طويلا على ما حرمنا منه وإنما علينا فقط أن نراجع تجاربنا الفاشلة فى الحياة ، ونتعلم دروسها ونتسلح بخبرتها الثمينة فى تجنب الأخطاء ومواطن الزلل السابقة ، ولا شك أن من أهم دروس

تجربتك الأليمة مع السعادة الزوجية ، هى أن المغالاة فى التذلل لمن انصرف عنا نهائيـا بمشاعره إلى غيرنا ، لا تكسبنا حـبه المفقود .. مهـما ابتـذلنا أنفسنـا معه وإنما تـضاعف من خـسائرنا بخـسارة الكرامة والاعـتبار بعد أن خـسرنا الحب والسعـادة من قبل . ومن يمضون إلى سعادتهم الشخصـية ، على حساب تعاسة الآخرين .. لا يتـوقفـون للأسف قليلا أو كـثـيرا أمـام ضحـايا هذه السعـادة الأنانية من شركاء الحياة والأبناء ، ولا يزيدهم تذلل شركاء الحياة لهم، للعدول عن اختـيارهم إلا ازدراء لهؤلاء الشركـاء « واقتناعا » بأنهم لم يكونوا ليستحقوا عشرتهم الملائكية ، وإحساسا بالسيادة والتفـوق عليهم .. فإذا كنت تتسـاءل متعجـبا عما وجـد طرفا تلك القصـة ـ كل منهما لدى الآخـر ـ لكى يهدم أسـرته ويمزق أبناءه ، ويتحـمل تبعـات كل ذلك من أجله فلعل الجواب على هذا التـساؤل المرير هو أن كـلا منهمـا قد وجد لـدى الآخر هذه القـدرة النفسـية الجامـحة على نبـذ شريك الحـياة ، والتـضحـية بسعـادة الأبناء واستـقرارهم طلبا لسـعادته الخاصة وهـى قدرة أو جراة نفسـية لا تتـوافر لـلكثيـرين ممن لا تصـفـو لهم السـعادة إذا شـقى بهـا أعـزاؤهم ، أو حتى إذا وضـعتـهم مـوضع اللوم والإدانة من الأهل والأصدقاد والمجـتمع العائلى المحيط بهم .. ولهـذا فليس غريبا أن يتوافق أصحـاب هذه الرؤية الذاتية للسعادة مع بعـضهم البعض وأن يجـد كل منهم لدى الآخـر طلبتـه ومبـتـغاه لأن الطيـور على أشكالها تقع .. فلا تاس طويلا على من توجـتها « ملكة » على قلبك وحياتك ، فلم تعرف لك قدرك .. ولم تتـوان عن الغدر بعهد الوفاء معك ، وتضحى بأبنائها لترتبط بصديق الأسرة الذى لم يتردد هو ايضا فى التضـحية باسرته وبابنائه من أجلها .. فكل منهـما جدير بصاحـبه حـقا وصـدقا .. واندم إذا شئت لا على أنـك قد أحببـتـها وأسـرفت فى حبـها وتدليلـها ، لأن تجـربة الحب الصادق فى حـد ذاتهـا تجربة إنـسانيـة لا يجـوز الندم عليـها حـتى ولو توجـهت مشاعر القلب خـلال إلى من لم يكن أهلا لها ـ و إنما أندم فقط على

أنك قد تذللت إلى هذه السيدة طويلا لتعـدل عن رغبتها فى الطلاق والارتباط بغـيرك ، وعلى أنك قد منحـتها من « الحرية » مـا كانت تحسدها عليـها صديقاتها ، وأسـرفت فى الثقة فيـها وفى « صديق الأسـرة » فلـم تنتـبــه فى الوقت الملائم للأسف إلـى تلك « الروح الغجرية » الجامحة المتطلعة إلى السـعادة الشخصية بغير توقف أمام الاعـتبارات العـائلية .. والإنسانيـة والأخلاقيـة العديدة التى تكبح جماح غيرهم وتردهم عما قد يهفون إليه .

لكن التـجربة قد مـضت بخيـرها وشرها على أية حـال .. ولقد علمتنا تجارب الألم إن كـل ما تحمله أمواج الحيـاة لنا من أكدار قد يصبح مـالوفا لنا وفى حـدود احتمالـنا البشرى بعـد حين . ومن حقك الآن بالفـعل أن تتطلع لنيل السـعادة التى تستـحقـها مع من تقدر لك إخلاصك وقـيمك الأخلاقية وحـدبك على طفليك ، وتعاملك المهذب مع مطلقـتك بعد انفصـالك عنها ، ولسوف أعـرض رسالتك هذه على كاتبـة رسالة « الحل الفـريد » فإن لم تكن على استـعداد للتنازل عن شرطهـا الذى اشترطته فـيمن ترتبط به وهو أن يكون بلا ابناء وغير قادر على الانجاب ليظفر طفلها الوحيد بكل أبوة من يرتبط بها كمـا تتصور ، ففى الحيـاة أخريات يرحبن بك وبطفلتك التى تحتاج لمـن تستشيرها فـيما تتحـرج أن تستشيـر فيه أباها ، وبابنك أيضا .. وإن غدا لناظره قريب .

الخيوط المقطوعة!

أنا سيدة فى الثلاثينات من عمرى، نشأت فى أسرة متراحمة ومترابطة، وكان أبى مهندسا معماريا كبيرا، ترقى فى المنصب حتى أصبح رئيسا لشركة كبرى، وكانت أمى ومازالت أطال الله عمرها الأم الرءوم لأبنائها، وقد تلقيت تعليمى منذ الطفولة فى مدارس غير مختلطة، وانتقلت منها إلى كلية البنات، وتخرجت وعملت كمعيدة بها، ولأن أبى كان محافظا بطبعه، كما أننى أمضيت مرحلة الدراسة الجامعية فى كلية للبنات، فلقد كان اختلاطى بالشبان فى أضيق الحدود، وكانت دائرة علاقاتى الاجتماعية محدودة للغاية، ولهذا لم يتقدم للارتباط بى سوى بعض الأقارب من أفراد هذه الدائرة الضيقة، لكنى كنت أحلم بالخروج من أسوارها فتطلعت للارتباط بشخص من خارجها، والتقيت بالفعل عند احدى صديقاتى بصديقة لها ومعها أخوها، وتبادلنا حديث الغرباء الذين يلتقون لأول مرة، وبعد أيام ابلغتنى صديقتى باعجاب هذا الشاب بى، ورغبته فى التقدم لخطبتى، وكان هو قد استلفت نظرى بالفعل، ربما بجرأته فى الحديث وأنا التى تميل بطبعها للخجل، وربما بخفة ظله وظروفه العائلية والاجتماعية المناسبة، وبعد أيام جاء لزيارتنا مع أخته وتمت الخطبة وتزوجنا بعد ذلك بثلاثة شهور فقط، وكان زوجى يملك شقة كبيرة فى الحى نفسه الذى نقيم فيه، كما كان أبى الذى رحل عن الحياة فجأة قبلها بشهور يرحمه الله قد ترك لكل منا مبلغا معقولا من المال فاستطعت أن اجهز به هذه الشقة خلال فترة قصيرة، وبعد شهور من زواجنا حملت وانجبت

طفلتى الوحيدة فأصبحت منذ اليوم الأول لمولدها هى كل حياتى، وخففت عنى بعض معاناتى من تغير شخصية زوجى بعد الزواج وفتوره تجاهى وعصبيته الشديدة التى أثارت العديد من الخلافات بيننا، فضلا عن افتقادى للانسجام العاطفى معه بعد الزواج، وبسبب هذه الظروف كلها قررت ألا أنجب منه مرة أخرى، وتعللت فى ذلك بانشغالى بالاعداد لرسالة الماجستير وتشاغلت عن اشجانى برعاية ابنتى والاهتمام بها، وجعلت منها محورا لحياتى،أخرج معها واشترى لها ماتحب، واهتم بتربيتها ونظافتها وملابسها وتعليمها حتى أصبحت موضع فخرى واعتزازى، ثم شاءت الاقدار الحزينة أن تمتحن هذه الزهرة البريئة بالمرض اللعين وهى فى السادسة من عمرها فإذا بها تذبل ويشحب لونها وتعانى من العذاب ما لا يطيقه الرجال، ودمرنى مرضها تدميرا، وسافرنا إلى بلد أجنبى لعلاجها ورجعنا بعد أن تحسنت حالتها كثيرا، فأدت امتحانها ونجحت بتفوق فى كل المواد رغم غيابها الطويل عن المدرسة، وكنت خلال هذه الفترة قد حصلت على الماجستير ورشحت للسفر إلى دولة أوربية للحصول على الدكتوراه من إحدى جامعاتها، فوجدتها فرصة للهروب من كل شيء، ولمواصلة علاج ابنتى فاصطحبتها معى وسافرت إلى هذه الدولة، وعملت بجانب دراستى لأوفر لها متطلبات الحياة والعلاج فى أصعب الظروف، لكن زهرتى البريئة راحت تذبل للأسف يوما بعد يوم، وجاء أبوها لزيارتنا وقضاء بعض الوقت معنا، فلم يمض أكثر من شهر ونصف الشهر على وصوله حتى كان الله قد استرد وديعته الغالية، ورجعنا بها إلى مصر، وأنا لا أشعر بنفسى ولا بمن حولى، وكلما اشتد علىّ الحزن القاتل التمست بعض العزاء فى أنها قد استراحت من الألم والعذاب، بل وأيضا من نظرات الناس التى لا ترحم، والتى كانت تتوقف رغما عنها عند هزالها الشديد وشحوبها المؤلم فى المرحلة الأخيرة، ومكثت فى مصر فترة قصيرة كنت أزور خلالها مثوى ابنتى الحبيبة كثيرا، وأتعجب لنفسى كيف مازلت على قيد الحياة رغم رحيلها، لكنى على أى

حال إنسانة مؤمنة واسلم بقضاء الله وقدره .. وقد رجعت إلى الدولة الأجنبية لاستأنف الاعداد لرسالة الدكتوراة وانشغل بها عن همومى وكلما سمحت لى الظروف رجعت إلى مصر لزيارة قبر ابنتى ولمحاولة الاقتراب من زوجى الذى اشفقت عليه من صدمة فقد ابنته التى كانت تحبه وكان يحبها من أعماقه، ولكن محاولاتى للاقتراب منه، وتجاوز الفجوة العميقة التى حدثت بيننا ذهبت ادراج الرياح وحدث ذلك أيضا حين جاء هو إلى البلد الأجنبى الذى أعيش فيه لزيارتى وقضاء شهر معى .

وفى إحدى زياراتى لمصر وقع بيننا خلاف كبير كالعادة، فصارحت شقيقة زوجى لأول مرة بأن كل الخيوط التى كانت تربطنى بأخيها قد انقطعت الآن بعد رحيل ابنتى، وإننا عاجزان تماما عن التفاهم والاستمرار ولا تهدأ المشاكل بيننا، وأنه مادام الأمر كذلك فلا داعى لاستمرار هذه العلاقة الغريبة ، وخاصة انه ليس بيننا ما بين الأزواج والزوجات من علاقات طبيعية، فإذا بشقيقته تجيبنى بأن معظم الأزواج والزوجات يعيشون حياتهم على هذا النحو، وأنه لاداعى للانفصال لمثل هذا السبب .

أما زوجى فلقد كان رايه هو اننى قد فقدت عقلى نهائيا بعد وفاة ابنتى وأنه سوف يصبر علىّ حتى استرد رشدى .

ولست أنكر أننى حزينة على رحيل ابنتى، واظن اننى ساظل كذلك إلى نهاية العمر لكنى على الناحية الاخرى إنسانة متزنة وراشدة ومدرسة جامعية ولا اتخذ قراراتى لأسباب انفعالية، ولهذا فقد تمسكت بطلب الطلاق، وكنت اتوقع أن يستجيب زوجى فى هدوء لطلبى اكراما لما كان بيننا من صلة، واحزان مشتركة، لكن عاملا جديدا تدخل فى الموقف وحال بينى وبين تحقيق هذا المطلب فلقد رشح زوجى من جهة عمله لمهمة خارجية فى نفس البلد الاجنبى الذى أدرس به لمدة عامين، ومن شروط من يخرج فى هذه المهمة أن يكون متزوجا وله حياة عائلية مستقرة تسمح له بتبادل الزيارات العائلية مع الدبلوماسيين واستقبال الضيوف فى بيت الزوجية .. الخ، وكان معنى طلاقه لى فى هذه الفترة

هو أن يفتقد هذا الشرط وتضيع عليه هذه البعثة، فهاج زوجي وماج واتهمني بالرغبة في تحطيم مستقبله وتدخل الوسطاء بيننا واقنعوني بتأجيل الانفصال إلى ما بعد انتهاء مهمته الخارجية، ومع وعد أكيد منه بأنه لن يقف ضد رغبتي بعد انتهائها وعودته إلى مصر .. وطلبت منه وعدا صريحا بذلك فأقسم لي على ذلك وطلب مني أن أثق في وفائه لوعده، كرجل يحترم كلمته ورجعت معه إلى البلد الأوربي، ومضى العامان بحلوهما ومرهما ورجع زوجي إلى مصر وأنا لم انته بعد من رسالة الدكتوراة .

وانتظرت أن يفي زوجي بتعهده لي بالطلاق الودي بلا مشاكل ولا قضايا فلم يف للأسف بوعده ومضى عامان طويلان آخران وهو يرفض ويتعلل بالأسباب. مع أني أقيم في البلد الاوربي وهو يقيم في مصر ولا أعرف عنه شيئا، ولا يبلغني من أخباره إلا القليل وعن طريق الأصدقاء، كما أنه ممتنع تماما عن الانفاق عليّ طوال هذه الفترة، واضطر للعمل المرهق المضني، إلى جانب الدراسة لأدبر بعض تكاليف الحياة القاسية هنا والتي لايفي بها مرتب البعثة الضئيل، وكلما طلبت منه الطلاق لكيلا أظل على هذا الوضع الجائر طالبوني بالعودة لمصر للتفاهم أو وعد هو بأنه سوف يجيء إلى للتفاهم معي حول الطلاق، ولست أريد في النهاية اللجوء إلى القضاء للحصول على الطلاق، كما ارفض ما عرضه على بعض الزملاء الأجانب هنا من أن أتحدث إلى وسائل الاعلام في البلد الذي أقيم فيه عن مشكلتي لكيلا أسيء إلى زوجي وبلدي ومجتمعي، ولكني من ناحية أخرى قد سمعت أن زوجي قد اقسم أنه لن يطلقني إلا بعد أن أصبح سيدة عجوزا لا تصلح لأحد من بعده، ولا يرغب فيها أحد، فهل هذا من العدل والشرع والدين والأخلاق والرحمة ؟

أن زوجي يصر على تعذيبي بلا مبرر، ويتسبب بموقفه هذا في تشتيت ذهني وجهدي بين العمل والدراسة، فماذا يجنيه هو من « تعليقي » على هذا النحو، بلا طلاق وماذا يفيد من افشال دراستي وعودتي لبلدي خائبة بغير الدكتوراة ؟

إنه من قرائك المداومين ياسيدى ومن المعجبين بآرائك وارجو أن تكتب إليه كلمة وتحاول إقناعه بإطلاق سراحى بالمعروف، كما ارتبطنا فى البداية بالمعروف وكما أمرنا ديننا الحنيف، فهل تفعل ذلك من أجلى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

افعل يا سيدتى ليس من اجلك وحدك، وإنما من أجله هو أيضا، فالحق أن استمرار هذا الوضع المعلق بينكما لا يسىء إليك وحدك وإنما يسىء إليه هو أيضا، وإلى رجولته ونخوته وقيمه، ولست احسبه يرضى لنفسه مهما كان تاريخ كل منكما مع الآخر .. وأيا كان الظالم والمظلوم منكما، بان «يحبس» سيدة مثلك على ذمته منذ عامين وهى تعيش فى مجتمع غربى بعيدة عنه، وهو يعيش بعيدا عنها فى بلد آخر، وقد تقطعت كل الخيوط التى كانت تجمعهما ولم يعد هناك امل فى رأب الصدع بينهما، ورغم ذلك فمازال يرفض طلاقها بغير سبب سوى أن يعضلها ويكيد لها ويحرمها من حقها المشروع فى أن تسترد حريتها ممن لا ترغب فى مواصلة الحياة معه، وكل ذلك ليس من الدين ولا من القيم الأخلاقية ولا من الكرامة الشخصية فى شىء، فالدين الحنيف الذى لم يكره شيئا مباحا كما كره الطلاق قد شرع للزوجة، إذا أمسكها زوجها وهى كارهة للحياة معه، ودون إيذاء منه لها أو اضرار بها أن تقدم لزوجها ما تفتدى به نفسها منه، فيما يعرف فى لسان الفقه بالخلع، وهذا الافتداء ليس بالضرورة مالا تقدمه الزوجة لزوجها لتحصل به على حريتها، وإنما يكفى أيضا ان يكون تنازلا عما لها عليه من حقوق مادية قد تعدل ماتكلفه فى زواجها أو اكثر، ومصداقا لذلك جاء فى التنزيل الحكيم : ﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾[البقرة : ٢٢٩] .

أما إذا ضيق عليها زوجها ودفعها بظلمه لها واضراره بها إلى طلب الطلاق وافتداء نفسها منه بمال تؤديه إليه كارهة، فإنه يكون بذلك برأى الإمام الأكبر الراحل الشيخ محمود شلتوت معتديا على

مالها، والرأى عنده فى مثل هذه الحالة هو انفاذ الطلاق انقاذا لها من الضرر ووجوب رد الزوج للمال الذى أكرهها على دفعه ثمنا للطلاق .

هذا من ناحية الدين، اما من ناحية القيم الأخلاقية والكرامة الشخصية فليس مما يشرف احد أن يمسك عليه زوجة كارهة لا ترغب فى استمرار الحياة معه وتتوسل إليه بكل الوسائل لكى يطلق سراحها ويسرحها بإحسان أو بغير إحسان، فإذا ظن الرجل إنه إنما يعضلها بذلك ليثار لكرامته الشخصية منها، فلقد طاشت سهامه فى ذلك أيضا، لأنه بتعنته معها فى هذا الشان، وتعليقه لها بلا طلاق لسنوات عدة إنما يكاد يحرضها بطريق غير مباشر على الوقوع فى الخطيئة فإن أصابت إثما فى هذه الفترة فعليه بعض إثمها وعلى كرامته ونخوته كل اللوم ومعظم العار، فاى كرامة شخصية ينتقم لها إذن مثل هذا الزوج فى هذه الحالة وقد اعان هو زوجته بتعنته معها على أن تطعنه فى صميمها ؟

يا سيدى إننى اقدر ظروفك الإنسانية المؤلمة بعد أن ثكلت طفلتك الوحيدة .. وأدرك جيدا أن ما أصاب زوجتك من شرخ نفسى غائر فى محنة فقدها، قد أصابك شرخ مثله أو اعمق غورا، لكنى لا أرى لك رغم كل ذلك أن تتمسك بزوجة كارهة لا ترغب فى أن تحمل اسمك مهما كانت أسبابك لذلك أو دوافعك، بل إنه حتى لو كانت نيتك فى ذلك طيبة ودوافعك للتمسك بها غير انتقامية، وكنت تامل حتى الآن فى أن تسترد نفسها بعد أن تتجاوز محنة فقد طفلتها وتواصل الحياة معك، فليس التمسك بعدم طلاقها هو الطريق السليم إلى ذلك، فلقد قال أحد السياسيين الدهاة ذات يوم، ليس من الحكمة ان نضيع الوقت فى محاولة إثبات حسن نيتنا تجاه من يضمر لنا سوء النية، لأنه لن يقتنع بذلك ولاننا لن نجنى من وراء ذلك تغييره او اقناعه بما نريد له ان يقتنع به، وإنما الأجدر بنا هو أن نتحرك من هذه النقطة التى قد نتجمد عندها . إلى نقطة أخرى نقول له فيها : ماذا تريد .. وماذا ستقدم مقابل

ما تريد .. وهذا هو ما أنصحك به أيضا يا سيدى ، والطلاق فى النهاية وقف مؤقت للحياة الزوجية وليس وقفا أبديا لها، ومن الممكن دائما استئنافها فى أى مرحلة من العمر بعد أن تزول سحب الخلاف وتذوب المرارات القديمة من النفوس، وحتى لو لم يكن هناك أى أمل فى استئنافها فى المستقبل فماذا يعيب الإنسان فى أن تفترق السبل بينه وبين إنسانة عاشرها بضع سنوات ثم استحالت العشرة بينه وبينها ؟

إن من لا نصلح له نحن قد نصلح لغيره، وفى الحياة دائما من قد يسعد بنا ويشعرنا بما حرمنا منه من حب وعطف وتقدير لدى الآخرين، والانفصال على أية حال بين زوجين لاتربط بينهما روابط الأبناء الأبدية والحرص المشترك على سعادتهم لا ينتقص من كرامة الرجل إذا طلبته زوجته، ولا ينقص من جدارة المرأة إذا اقدم عليه الرجل من جانبه، ولا يعنى فى النهاية شيئا سوى أن كلا منهما لم يجد سعادته مع الآخر، ومن حقه أن يطوى هذه الصفحة المريرة من حياته ويبدأ صفحة أخرى يرجو أن تكون سعيدة ، وما تفعله أنت الآن يا سيدى لن يثمر شيئا سوى تاخير طى هذه الصفحة المريرة لسنوات ثمينة لا تخسرها زوجتك وحدها، وإنما تخسرها أنت أيضا معها .

فحين تأتى النهاية يحسن بنا رفقا بانفسنا ألا نطيل آلام النزاع لنخفف من عذابنا بها، وإذا كنت تتوهم أنك تكيد لزوجتك بالا تطلقها إلا بعد سنوات طويلة يذوى خلالها شبابها فلا يرغب فيها من بعدك أحد، فالحق أنك تكيد لنفسك مثل ذلك وأكثر، إذ كيف سوف تتفتح مشاعرك لأمرأة أخرى وصدرك مشغول بالرغبة فى الانتقام من أخرى، وأين هى السيدة الكريمة التى تقبل الارتباط برجل يحبس زوجة أخرى على ذمته سنين عددا كيدا لها وانتقاما منها ؟

وأية صورة بشعة يقدم بها نفسه لمثل هذه السيدة وما يفعله سوف يثير شكوكها فى عدله ورحمته ونخوته وقيمه الأخلاقية ؟

إننى على ثقة من أنك فى أعـماقك أفضل كثـيرا مما تقدم به الآن نفسك للآخرين بهذا الموقف المتـعنت من زوجتك، لكنه العناد قرين الجنون الذى يخـرج من الإنسان أسـوأ مـا فيـه ويطمس فضـائله وأخلاقـياته، فـسو أمـورك المادية مع زوجتـك بالعدل والإحـسان ياسـيـدى، واطلق سـراحهـا، وثق من أنك حـين تفـعل ذلك فـإنك لاتخسر شيـئا سوى تعاستك بهذه الزيجة غيـر الموفقة وما يرتبط بها من ذكريات أليمة .

ويكفيك .. ويكفى زوجتك معك ما تجرعتماه من آلام الثكل المريرة، وإذا كنت تبحث عن سبب يقبله عقلك لطلب زوجتك للطلاق وتمسكها به طوال الأعوام الماضـية، فـيكفى أن أقول لك إن محنة الـثكل فى حد ذاتها قد تكفى وحـدها لشرخ العلاقة الزوجية بين زوجـين متحابين شرخـا يتطلب فى بعض الأحيان بـضع سنوات لإعادة رأبه، وذلك إذا لام أحدهما فى عـقله الباطن الآخر عن بعض المسـئولية عمـا شهدته حـياتهـمـا من آلام، فمـا بالك بزوجـين لم تنبت بذور الحب ثمـارها بينهما، ثم فقدا معا الشىء الوحيد المشترك بينهما ؟

إن التمسك بالطلاق هنا قد يكون فى بعض أسبابه رغبة نفسية قاهرة من جانب زوجتك فى طى هذه الصفـحة الحزينة من حياتها بكل رمـوزها ، وقد تكون له أسـباب أخـرى تتـعلق بالعشـرة بين الزوجـين، لكن هذا الدافع النفـسى البـاطنى يفجـرها كلهـا دفعـة واحدة ويضـخم منها إلى حـد تستحـيل معـه العشرة بـالفعل فى بعض الأحيـان، فلا تظلم نفسك وزوجـتك بالاصرار على استـمرار هذا الوضع المعلق بينكمـا والمعذب لكلـيكما مـعا، وابدأ حيـاتك من جديد مع أخرى تـعوضك عما عانيت، ولا تـبدد هبة العمر الثـمينة فى النزاع والشقـاق والمكايدة بلا طائل فى النهاية سوى الخـسائر النفسية والصحية للكائد والمكيد له، وليغفر الله لك ولها ما كان من أمركما معا، وليعوضكمـا خيرا عن طفلتكما الراحلة وعما ضاع من العمر فى التعاسة والعناء ..

الفهرس

	الصفحة
الشيء المجهول !	٧
الحل السحرى	١٦
الحقيقة العارية !	٢٤
التساؤلات المريبة !	٣٣
القلب الخالى !	٤٣
شجاعة الحياة !	٥٤
النظرات اللائمة !	٦٢
ألعاب الخريف !	٧١
ثورة البركان !	٨٠
صوت الموسيقي !	٨٨
نقطة الانفجار !	٩٤
شاطيء الأمان !	١٠٢
الورقة الصفراء !	١٠٧
كبرياء الألم !	١١٥
النظرات الصامتة !	١٢٣
كشف الأسرار !	١٢٩
الآذان الصماء !	١٣٨
ذئاب الغابة !	١٤٥
الهرم المقلوب !	١٥١
صمت الجدران !	١٥٨
الفكرة الخاطئة !	١٦٣
نظرة الاستخفاف !	١٧٠
ضياع العمر !	١٧٦
عصير الألم !	١٨٦
الخيوط المقطوعة !	١٩٢